

دراسات أدبية وإنسانية

مجلة فكرية سداسية يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية
بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نمبر 1425 / أبريل 2004

العدد 1

ISSN: 1112 - 4857

دراسات أدبية وإنسانية

مجلة فكرية سداسية يصدرها محبر الدراسات الأدبية والإنسانية
بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صفر 1425 / أبريل 2004

العدد 1

جميع الآراء الواردة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها فقط

الهيئة الاستشارية

الدكتور ابن عراب عبد الكريم
الدكتور سامي عبد الله الشكناي
الدكتور سامي إسماعيل
الدكتور لغويّة عمر

هيئة التحرير

الدكتور دؤب رابح
الدكتور صاري أحمد
الدكتور عمراوي حميد
الأستاذ حمّاش خليفة
الأستاذ فوغالي باديس
الأستاذ نابي عز الدين

الرئيس الشرفي

الدكتور بوخلخال عبد الله

مدير المجلة

الدكتور عمراوي حميد

رئيس التحرير

الدكتور دؤب رابح

مسؤول النشر

الدكتور عمراوي حميد

/_____/

توجه جميع المراسلات باسم مدير مجلّ الدراسات الأدبية والإنسانية إلى العنوان الآتي:
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ص.ب 137 قسنطينة - الجزائر 2500

هاتف وفاكس: 0 31 92 21 98

البريد الإلكتروني: E.Mail - usieak 25 @ Wanadoo. dz

تقديم مدير المجلة

بمشيئة الله وعونه، وبتضافر جهود الباحثين الأعضاء في مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية ظهر هذا العدد الأول من المجلة بهذا الشكل، لتضاف إلى بقية المجلات العلمية التي تصدرها جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

وصدور هذا العدد يأتي ضمن أعمال المشروع العلمي الذي سطره المخبر المشكل من ست فرق بحث منذ تأسيسه عام 2002.

فبرغم الصعوبات يصدر هذا العدد في وقت تستعد فيه الجامعة للاحتفال بالذكرى ميلادها العشرين، ويتضمن موضوعات بحث في التاريخ والأدب.

وقد يتضمن هذا العدد نقصا في بعض المواطن، لكننا نؤمن بما يقال: إن الطريقَ تُعبَّدُ بالسير.

وبمناسبة صدور هذا العدد فهيئة التحرير تحيي كافة أفراد الأسرة الجامعية، وكل القراء. وتتمنى أن تحظى موضوعاتها بمزيد الثقة، وأن تستمر في الصدور في وقتها وتنهجها لتستكمل رسالتها النبيلة؛ بالكلمة العلمية الصادقة، المبدعة، البعيدة عن لغة المناقب والظهور.

والله الهادي إلى الصواب وإلى المآب

الدكتور عمير اوي حميد

كلمة رئيس التحرير

لقد تم بحمد الله تعالى ميلاد العدد الأول من مجلة مخبر الدراسات الأدبية والتاريخية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. هذا المولود الجديد الذي جاء نتيجة عمل جاد ومحكم من قبل أعضاء فرق البحث المنضوية تحت لواء هذا المخبر الذي يجمع بين الدراسات الأدبية والدراسات التاريخية، وهذان التخصصان لا غنى لأي باحث عنهما لأكما في حقيقة الأمر يكملان بعضهما. ولعل هذا العدد الأول خطوة هامة في مسار البحث العلمي والذي يذكرنا بكبار المؤرخين العرب المسلمين الذين كانوا أدباء مؤرخين أو أدباء؛ أمثال الطبري وابن كثير.

المهم أن القارئ سوف يجد متعة كبيرة في قراءة هذا العدد وترجو أسرة تحرير المجلة ألا يبخل علينا بملاحظات حول الموضوعات -شكلا ومضمونا- ونحن بدورنا سوف نأخذ بتلك الملاحظات من أجل تقديم الأحسن فالأحسن في الأعداد القادمة إن شاء الله.

وفي الأخير لا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إخراج هذا العدد وسهر عليه وأخص بالذكر الدكتور عمير اوي حميدة الذي أنفق كثيرا من وقته وجهده من أجل إصدار هذا العدد. والشكر كذلك للباحثين والمشرفين على المخبر الذي أنتج هذا العدد.

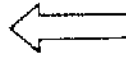
أسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه خير وفلاح هذا الوطن المفدى.

والسلام عليكم

أ.د. رابح دوب

فهرس الموضوعات

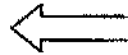
دراسات تاريخية



الباب الأول

- 4 - تقديم مدير المجلة
- 6 * كلمة رئيس التحرير
- * الأستاذ حمّاش خليفة:
- 9 تبادل الهدايا بين الجزائر والياب العالي في العهد العثماني
- * الدكتور عميراي حميدة:
- 30 الرحلات الاستكشافية في الجنوب الجزائري
- * الأستاذ قاصري محمد السعيد:
- 41 السياسة الإدارية الاستعمارية في الصحراء الجزائرية
- * الدكتور صاري أحمد:
- 63 العروة الوثقى: صوت إسلامي في باريس
- * الأستاذ عمري الطاهر:
- 87 مراكز الثقافة العربية في الجزائر بين المقاومة والتكيف (1830-1900)
- * الدكتور سامعي إسماعيل:
- 111 البعد الثقافي لثورة التحرير من خلال موانيق ونصوص الثورة

دراسات أدبية



الباب الثاني

- * الأستاذة بورويس ذهبية:
- 128 التقسيم الثلاثي للكلم في العربية "علمية وأصالة المصطلح"
- * الأستاذ فوغالي باديس:
- 141 جماليات المكان في القصة الجزائرية القصيرة عند المرأة
- * الأستاذ لوحيشي ناصر والأستاذة بوصيعة زيتب:
- 168 مقومات الشخصية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث
- * الأستاذة سكيّنة قنور والأستاذة أمال لواتي:
- 220 القصة في الأدب الجزائري 1925-1962 (الرؤية والأداة)

تبادل الهدايا بين الجزائر والباب العالي

في العهد العثماني

الأستاذ خليفة حماش

كان تبادل الهدايا بين الجزائر وإستانبول يشكل الأرضية الصلبة التي بني عليها جسر العلاقات السياسية والعسكرية التي كانت قائمة بين الجزائر والدولة العثمانية منذ تأسيس أياالة الجزائر العثمانية في عام 1520 م حتى سقوطها في أيدي الفرنسيين في عام 1830 م. وكانت الهدية التي يرسلها باشاوات الجزائر بمناسبة تعيينهم في الحكم إلى السلطان العثماني من أهم الهدايا التي كانت الأيالة ترسلها إلى الباب العالي، وكان هو يرد عليها بمدية مثلها. وفي ضوء "الاستقلال" الذي أصبحت تتمتع به الأيالة في علاقاتها بالدولة العثمانية منذ عام 1123 هـ/ 1711 م يمكن تقدير الأهمية التي كان السلاطين في إستانبول والباشاوات في الجزائر يولونها لعملية تبادل الهدايا بينهما، خصوصا أن تلك العملية كان لها بعد تاريخي يرتبط بإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ويعود ذلك إلى أواخر عام 925 هـ/ أواخر 1519 م حيث أرسل أهل الجزائر ومعهم خير الدين بارباروس إلى السلطان سليم الأول (918-926 هـ/ 1512-1520 م) أربع سفن تحمل

"هدية عظيمة"¹ مع رسالة² عبروا له فيها عن رغبتهم في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية لكسب دعمها السياسي والعسكري في الحرب التي كانوا يخوضونها ضد الأسبان الذين صاروا بعد طردهم المسلمين من الأندلس، يهددون بلاد المغرب عامة، واستطاعوا أن يسيطروا سيطرتهم على بعض المدن الساحلية به، ومنها وهران والمرسى الكبير وبجاية وحسن الفنا (البنين) المقابل لمدينة الجزائر في المغرب الأوسط. وقد قبل السلطان سليم تلك الهدية كما قبل إلحاق الجزائر بدولته العثمانية³. وبذلك تأسس ما يسمى أيلة الجزائر العثمانية.

ولم تكن الجزائر والدولة العثمانية هما وحديهما اللتين توليان اهتماما لتلك الهدية، وإنما كانت معهما الدول الأوروبية أيضا، وذلك لما تفرزه تلك الهدية من نتائج ترتبط بالعلاقات بين الولاة العثمانيين في الجزائر، والسلطان في إستانبول. ولذلك فإن قناصل تلك الدول في الجزائر، وسفراءها في إستانبول لم يكونوا يغفلون عن جمع المعلومات حول تلك الهدايا من مختلف جوانبها، وإرسالها في

1 باريس، المكتبة الوطنية، مخطوط رقم 878 عربي، سيرة المجاهد خير الدين (المؤلف مجهول)، ص 37 - 38.

2 اكتشف الترجمة التركية لتلك الرسالة التاريخية في حدود الأربعينات أو الخمسينات من القرن الماضي، المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزونجارشيلي في أرشيف طوبقاي سراي بإستانبول، وتطرق إلى محتواها وذكر رقمها في مؤلفه "تاريخ الدولة العثمانية (بالتركية)، ج 2، ط 4، أنقرة 1983، ص 368، هامش 2". وقام الدكتور عبد الجليل التميمي بإعادة الرسالة إلى نصها العربي، ونشرها مع دراسة حول أهمية تلك الرسالة في تحديد التاريخ الصحيح لإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، في: المجلة التاريخية المغربية، ع 6/ يناير 1976، ص 117 وما بعدها.

3- النص التاريخي الوحيد الذي يوجد بين أيدينا اليوم ويحدد الكيفية التي تم بها ذلك القبول هو ما ورد في "سيرة المجاهد خير الدين"، مصدر سابق، ص 37 - 38.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حماد

تقارير إلى وزراء خارجيتهم. وذلك ما تكشف عنه مراسلات هؤلاء القناصل والسفراء التي صارت اليوم مادة أرشيفية تستغل في الكتابة التاريخية، كما هو الحال في هذا الموضوع الذي أعتمد في إنجازها على وثائق فرنسية وأخرى إنكليزية.

ومنذ عام 1123 هـ/ 1711 م اتخذ تبادل الهدايا بين الأيالة والباب العالي أهمية تاريخية أكبر مما كان عليه، إذ ترسخ كتقليد صار على كل وال جديد أداؤه تجاه السلطان العثماني تعبيراً منه عن الولاء له واعترافاً بتبعية الجزائر للدولة العثمانية. ولما كانت ظروف الأيالة الاقتصادية والسياسية وشخصية الوالي الجديد تتحكم في مسألة إرسال الهدية إلى الباب العالي، فإن إنجازها كان يختلف من عهد إلى آخر. وكان إرسال الهدية يرتبط بالتعبير عن الولاء للسلطان أكثر مما يرتبط بالحصول على الترسيم منه. فإذا كان بعض الولاة يقومون بذلك بعد بضعة أشهر فقط من توليهم الحكم، فإن بعضهم الآخر كان ينتظر مرور أكثر من سنتين على تعيينهم لإرسال الهدية، ولكن السلطان لم يكن يعطي لذلك التأخر أي اهتمام، فكان يرسل إلى هؤلاء الولاة فرمان الترسيم قبل أن يقوموا بإرسال هداياهم إليه.

ولكي يتضح ذلك فإن مصطفى باشا الذي تولى الحكم في 28 ذي القعدة 1212 هـ/ 14 مايو 1798 م قد حصل على ترسيمه من السلطان سليم الثالث (1203-1222 هـ/ 1789-1807 م) بعد ستة أشهر فقط من تعيينه في المنصب¹، أما هديته فلم يرسلها إلى السلطان المذكور إلا في 11 جمادى الثانية 1215 هـ/ 30 أكتوبر 1800 م، أي بعد مرور سنتين ونصف على

1 باريس، أرشيف وزارة الخارجية، رسالة من القنصل الإسباني في الجزائر إلى الحكومة الفرنسية، 30 ديسمبر 1798، في : C.C.C/Alger، مجلد 34، ورقة 310.

تعيينه¹. وقد تم إرسال تلك الهدية في وقت كانت العلاقات بين الأيالة والباب العالي متوترة بسبب معاهدة الصلح التي عقدها مصطفى باشا مع فرنسا التي كانت تحتل مصر وفي حرب بسبب ذلك الاحتلال مع الدولة العثمانية². ذلك فضلا عن الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها الأيالة بسبب تدهور الإنتاج الزراعي وأجبرتها على إرسال سفنها إلى البحر الأسود لشراء المواد الغذائية لإنقاذ السكان من المجاعة³.

وبخصوص خليفته أحمد باشا الذي تولى الحكم في جمادى الثانية 1220 هـ / سبتمبر 1805 م فقد أرسل هديته إلى نفس السلطان بعد مرور سبعة أشهر فقط على تنصيبه، وذلك في 18 محرم / 7 أبريل من السنة الموالية⁴. ولم تكن هذه السرعة من الوالي المذكور في إنجاز الهدية - كما يبدو - سوى تعبير عن رغبته في تدعيم موقفه لدى السلطان ووزرائه وتبرير الثورة التي تزعمها ضد سلفه مصطفى باشا الذي طالما أزعج الباب العالي بمواقفه غير الثابتة زمن حملة نابليون على مصر. وقد امتدت تلك المدة إلى عشرة أشهر في عهد الحاج علي باشا الذي تولى الحكم في محرم 1224 هـ / فبراير 1809 م، وأما هديته إلى السلطان محمود الثاني (1223 - 1255 هـ / 1808 - 1839 م) فلم يرسلها إلا في 10

1 رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر، 6 فبراير 1801، في C.C.C/Alger، مجلد 35، ورقة 202.

2 لمزيد من التفاصيل راجع: خليفة حمّاش، العلاقات بين أبالاة الجزائر والباب العالي من 1798 إلى 1830، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اسكندرية، 1988 م، ص 201 وما بعدها.

3 حمدان بن عثمان خوجه، المرأة، تعريب محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1972، ص 160.

4 رسالة من القنصل الفرنسي، 10 أبريل 1806، في C.C.C/Alger، مجلد 38، ورقة 35.

ذي القعدة / 17 ديسمبر من السنة المذكورة¹. ثم امتدت تلك المدة إلى أربعة عشر شهرا في عهد عمر باشا الذي سعى منذ اعتلائه منصب الولاية في أواخر ربيع الثاني 1230 هـ / أوائل أبريل 1815 م، إلى تمين علاقات الأيالة مع الباب العالي قصد الحصول على دعمه السياسي والعسكري في مواجهة التهديدات الأوروبية الموجهة ضد الأيالة²، فلم يرسل هديته إلى السلطان محمود إلا في شهر شعبان / يولية من السنة الموالية³. علما أن عمر باشا كان قد حصل على فرمان الترسيم في منصبه من السلطان محمود قبل إرسال الهدية بنحو شهرين، وكان ذلك في 25 جمادى الثانية 1231 هـ / 13 مايو 1816 م⁴. وأما خليفته علي باشا الذي تولى الحكم في أواخر شوال 1232 هـ / أوائل سبتمبر 1717 م، فإن الوثائق تخلو مما يشير إلى إرساله للهدية إلى السلطان العثماني، أو حصوله على الترسيم منه. وكما يبدو فإن فترة حكمه القصيرة التي دامت بضعة أشهر فقط، وهي إلى أواخر ربيع الثاني / أوائل مارس من السنة الموالية، وكان قد قضائها كلها في إرساء قواعد الإصلاحات السياسية والعسكرية التي باشاها منذ توليه الحكم، هي التي لم تساعد على القيام بذلك الالتزام تجاه الباب العالي.

1 Devoulx, Albert, Tachrifat, Alger, 1853, p 42.

2 عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816 — 1871 م، ط 1، تونس، 1972، ص 59.

3 بارييس، أرشيف وزارة الخارجية، رسالة من السفير الفرنسي في إستانبول إلى حكومته، 25 يولية 1816، في: C.P./Turquie، مجلد 230، ورقة 97.

4 بارييس، الأرشيف الوطني الفرنسي، سجلات الجزائر العثمانية العربية والتركية، 228 MI 14، سجل رقم 13، ورقة 10.

وأما حسين باشا (آخر الولاة العثمانيين في الجزائر) الذي تولى الحكم في أواخر ربيع الثاني 1233 هـ/ أوائل مارس 1818 م، فقد تلقى فرمان الترسيم من السلطان محمود الثاني (1223 - 1255 هـ/ 1808 - 1839 م) بعد ستة أشهر فقط من تعيينه في منصبه، وكان ذلك في 3 شوال/ 16 أغسطس من نفس السنة¹، بينما لم يرسل الهدية إلى الباب العالي إلا بعد مرور ستة عشر شهرا عليه في الحكم، وذلك في شوال 1234 هـ/ يولييه 1819 م².

وفيما يتعلق بمحتويات الهدايا التي كان ولاية الجزائر يرسلوها إلى السلاطين العثمانيين، فكانت تتمثل بوجه عام في أشياء عديدة تشتهر الجزائر بصناعتها ويدخل معظمها في الاستعمالات اليومية للسلطان ووزرائه، وتأتي في مقدمتها المنسوجات الصوفية. إلا أن ذلك لا ينفي احتواءها على بعض الأشياء الثمينة التي كانت تكلف خزينة الأيالة مبالغ باهظة، خصوصا المصنوعة منها من الذهب الخالص والمرصعة بالجواهر، مثل البنادق والسيوف والسروج؛ ذلك فضلا عن الغلمان والإماء وبعض أنواع الطيور والحيوانات النادرة.

وكنموذج لمحتويات الهدايا التي كان يرسلها باشاوات الفترة المتأخرة من العهد العثماني، فإن هدية عمر باشا عام 1231 هـ/ 1816 م، كانت تشمل على عدد من الغلمان وثلاثة خيول بسروجها وشكائمتها المرصعة بالذهب والأحجار الكريمة، وعدد من البنادق المرصعة بالذهب والمرجان، وحلية ثمينة لامعة محمولة وسط صحن من الفضة الخالصة، وعدد من المسبحات المصنوعة من

1 باريس، الأرشيف الوطني، سجلات الإدارة الجزائرية في العهد العثماني العربي والتركية، 228 MI 14، سجل 13، ورقة 10.

2 رسالة من القنصل الفرنسي، 23 فبراير 1820، في : C..C.C/Alger ، مجلد 45، ورقة 121.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش
المرجان والكهرمان، وعدد من الجواهر، وثمانية أسود وأربعة غمور وست نعاعات،
وعدد كبير من البيغاوات، وعشرة أزواج من جلود النحور والفهود، وعدد من
الألبسة والأغطية الجزائرية الصنع، وعدد كبير من السجاجيد المزركشة والمصنوعة
في فاس، علاوة على خمسين أسيراً أوروبياً¹.

ومع أنه لا توجد تفاصيل دقيقة حول تلك الهدية، فيمكن القول بأنها فاقت
كثيراً من الهدايا قيمة، وقلما أرسل أحد الباشاوات مثلها طوال العهد العثماني إلى
الباب العالي. وقد بلغت قيمتها حسب الصحيفة الرسمية للحكومة الفرنسية
آنذاك، حوالي مليون ونصف من الريالات الجزائرية² (أي ما يعادل خمسة ملايين
ونصفاً من الفرنكات الفرنسية)³. وبذلك يكون عمر باشا قد أرسل إلى السلطان
محمود الثاني هدية تعادل قيمتها خمسة أضعاف قيمة الهدية التي أرسلها إليه سلفه
الحاج علي باشا عام 1224 هـ/1809 م، وقدّر القنصل الفرنسي في الجزائر
قيمتها بحوالي مليون فرنك⁴.

1 الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية : Le Moniteur universel عدد 247، 3 سبتمبر
1816 م، ص 993.

2 228 MI 13، سجل 8، ورقة 72-73.

3 Le Moniteur، العدد السابق، ص 993.

4 وذلك باعتبار أن الريال (عملة فضية) يساوي 72،3 فرنك، راجع جدول مقارنة العملات
الجزائرية بالعملات الفرنسية في : ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة
العثمانية، ص 272.

5 رسالة من القنصل الفرنسي، 6 يناير 1810 م، في : C.C.C/Alger، مجلد 40، ورقة

6. وتوجد تفاصيل عن محتويات هذه الهدية في : Devoulx، المصدر السابق، ص 42.

وأضاف المؤرخ العثماني أحمد جودت باشا عن ذلك خمسة أسود، وغمرين، وغزالين، وثلاث
نعاعات. (تاريخ جودت) (بالتركية)، ج 5، أنقرة، 1984، ص 2362.

أما عن حجم الهدية (هدية عمر باشا) فكان كبيرا حتى أن الباب العالي خصص لها في إستانبول ثلاثمائة من الخدم لنقلها من الميناء إلى قصر السلطان¹. وقد جذبت تلك الهدية انتباه الجزائريين فكتب عنها أحمد الشريف الزهار إن "هذه الهدية التي بعث بها هذا الأمير لم يقدم مثلها أمير قبله ولا أمير بعده وكثرتها من أحجار اليواقيت ومن الجوهر النفيس ومن ذهب الإبريز وقد قدرت حجرة من الحجارّة المرصعة في سرج من السروج بستة وثلاثين ألف محبوب، أو دورو، وهو شيء لا يقدر بثمن وإنما يعبر عنه بالجزائر"²، ويقصد بذلك أنه مبلغ يتحدث عنه الناس ولا يعدونه. وأما الحكومات الأوروبية فقد اعتبرتها سلوكا غير مألوف من جانب باشاوات الجزائر تجاه الباب العالي، وفسرت ذلك برغبة عمر باشا في كسب تأييد السلطان العثماني للأيالة في سياستها الدولية ومساعدتها على مواجهة تهديدات الدول الأوروبية وفي مقدمتها بريطانيا التي تزعمت تنفيذ قرارات مؤتمر فيينا (عام 1814-1815) بخصوص محاربة القرصنة كما عبرت عن ذلك بعض الصحف في أوروبا³.

1 أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية؛ رسالة من السفير الفرنسي بإستانبول، 25 يولييه 1816، في : C.P / Turquie، مجلد 230، ورقة 97.

2 أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، 1980، ص 121. Le Moniteur 3، عدد 255، 11 سبتمبر 1816، ص 1026، نقلا عن "التليغز" اللندنية التي كتبت تقول: "إن صحفا فرنسية وألمانية تحدث في أيامنا هذه عن الهدية العظيمة التي أرسلها والي الجزائر عمر باشا إلى السلطان العثماني. وكما يبدو فإن الباشا أراد من ورائها أن يثبت تبعيته وخضوعه للباب العالي والتزامه بتنفيذ فرماناته التي لم يُعط لها اهتمام حتى الآن في الجزائر، وهو بذلك يمتحن أن يهرع الباب العالي إلى نجدته بواسطة أسطول البحرى ويعرض وساطته بين الجزائر ودول أوروبا".

وكانت محتويات الهدية توزع على السلطان ووزرائه وأفراد حاشيته بحصص متفاوتة حسب مركز كل واحد منهم في الدولة، وذلك وفقا لقائمة كانت تعد لهذا الغرض في الجزائر وترفق بالهدية التي يحملها إلى إستانبول وقد يختار أعضاؤه من بين الشخصيات البارزة في الأيالة، وكان عددهم يختلف من مناسبة إلى أخرى. وكمثال على ذلك كان الوفد الذي حمل هدية أحمد باشا عام 1221 هـ/1806 م، يتكون من أربعين عضوا من بينهم رئيس الوفد ونائبه وجاوش وكاتب، أما بقية الأعضاء فيشكلون الأتباع أو المعية². وكان الوفد الذي حمل هدية حسين باشا عام 1234 هـ/1819 م³ يتكون من عشرين عضوا فقط.

1 لم أتمكن من الإطلاع على نموذج للقوائم الخاصة بالجزائر، غير أنني تمكنت من الإطلاع على قائمة مشاهة لها خاصة بهدايا بايات تونس، وكانت تشتمل على أربع وعشرين شخصية في الباب العالي وكان في مقدمتهم السلطان ثم الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وآغا دار السعادة والقبودان باشا وآغا الإنكشارية ورئيس الكتاب وغيرهم. راجع : تونس، أرشيف دار الباي، صندوق 221، ملف 353، وثيقة 7.

2 لندن، دار المحفوظات البريطانية (P.R.O.)، قائمة بأعضاء الوفد الجزائري إلى إستانبول عام 1806، في : F.O.3، مجلد 11، ورقة 88.

3 تطرق السفير الأنكليزي في إستانبول إلى تلك الهدية وذكر بعض محتوياتها، وتمثلت في عدد من الغلمان السود، وأربعة خيول بسروجها وشكائهما المرصعة، وستة أسود، وأربعة ثور، ونعامتين، وحيوان نادر يشبه البقر الوحشي، وعدد من الصقور والبيغاوات الموضوعة داخل أقفاص جميلة، بعضها مرصع بالأحجار الكريمة مثل الياقوت، وعدد من السجاجيد المغربية الصنع، وعدد من ألبسة الإحرام، وألبسة أخرى ذات صناعة جيدة وقيمة عالية. رسالة مؤرخة في 9 سبتمبر 1819، في : F.F.O.78، مجلد 92، ورقة 237 — 238.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش
وكان رئيسه "يالي وكيل خرج حاجي يوسف" الذي كان هو نفسه رئيس الوفد
الذي حمل هدية مصطفى باشا عام 1215 هـ / 1800 م¹.

وكان يطلق على الهدية في الجزائر اسم "بشكش"². وهو كلمة عثمانية من
الأصل الفارسي "بيشكش" بمعنى الهبة التي تقدم لأحد الرؤساء أو أصحاب النفوذ
لكسب موقفه وودده³. ويمكن مقابلة ذلك الاسم بتعبير "الجائزة الهمايونية" أو
"جائزة المنصب" الذي كان يطلق في مصر على الهدية التي يرسلها ولائها بمناسبة
تعيينهم إلى السلطان العثماني⁴.

ومن الاسم المذكور اتخذ رئيس الوفد الذي يحمل الهدية الاسم الذي يعرف
به وهو "بشكش أغاسي"، وأما نائبه فيعرف باسم "كتخدا"⁵. وكانت وظيفة هذا
الأخير ضرورية كثيرا في حالة ما إذا حدث ما يمنع رئيس الوفد من مواصلة
مهمته، وقد اتضح ذلك عام 1234 هـ / 1819 م عندما توفي رئيس الوفد
الحاج يوسف في إستانبول قبل أن يكمل مهمته، فخلفه نائبه الحاج حافظ⁶.

وقد جرت العادة أن ترسل الهدية والوفد الحامل لها على متن سفينة حربية
تابعة للدولة الأجنبية حتى يضمن وصولها وعدم التعرض لها من قبل أعداء الأيالة في

1 رسالة من السفير الإنكليزي بإستانبول، 9 سبتمبر 1819، في : F.O.78، مجلد 92، ورقة 237.

2 أورده أحمد الشريف الزهار في مصدره السابق، ص 145 بشكل "باشكاش".

3 راد حاوص، جيمس، كتاب معاني لهجة (قاموس عثماني إنجليزي).

4 د. ليلى عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة،
جامعة عين شمس، 1975، ص 99.

5 228 MI 14، سجل 19، ورقة 10.

6 المصدر نفسه.

البحر المتوسط وعلى رأسهم فرسان القديس يوحنا. وكانت الدولة التي يقع اختيار الأيالة عليها لتتولى نقل الهدية إلى إستانبول، تعتبر ذلك شرفا كبيرا لها. ويتضح ذلك من رسالتين متبادلتين بخصوص ذلك الموضوع بين والي الجزائر حسن باشا والملك الفرنسي " لويس السادس عشر " عام 1791 م. فكتب حسن باشا في رسالته إلى الملك لوي السادس عشر بعد ذكر خبر توليه منصب الولاية في الجزائر: " نحن ملزمون بناء على تقاليدنا القديمة بإرسال هدية قيمة إلى الباب العالي بمناسبة تولينا الحكم، فنرجو منكم قبول اختيارنا للريان دومارج المقيم حاليا في فرنسا للقيام بتلك المهمة، وذلك بأن ترخصوا له باختيار السفينة التي يرغب فيها ويراهم مناسبة لذلك الغرض، وتسليحها بالكيفية التي يراها صالحة لذلك. وبكلمة واحدة فإننا نريد منكم باسم الصداقة التي تربطنا أن تضعوا تحت تصرفه سفينة كبيرة وجديدة وحسنة التجهيز، ونأمل في صدور أمركم الحكيم بتسليح السفينة المذكورة وإنجارها"¹.

وقد رد الملك الفرنسي برسالة مماثلة، ومما جاء فيها: " لقد أضفتم إلى خبر توليكم الحكم إحدى الفضائل التي توليها اهتماما كبيرا، وهي اختياركم لعلما لتنتقل تحت حمايته السفارة التي رغبتم في إرسالها إلى جلالة السلطان في القسطنطينية، لنحصلوا منه على عهد الولاية. وإن القائم بالأعمال الفرنسي لدى سيادتكم سوف يتشرف بتسليمكم هذه الرسالة، وسيخبركم بأننا لن ندخر جهدا في تلبية طلبكم والاستجابة إلى رغبتكم"².

1 Plantet, Eugene, correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France 1679-1833, 2 ed., Tunis, Bouslama, 1981, T 2, pp 406 – 408.

2المصدر نفسه، ص 408 – 409.

وقد فازت بذلك الشرف — بالإضافة إلى فرنسا — دول عديدة، منها الولايات المتحدة الأمريكية التي دخلت في أواخر القرن الثامن عشر إلى ساحة العلاقات الدولية كدولة حديثة قليلة التجربة في علاقاتها الدولية، خصوصا فيما يتصل بعلاقاتها مع الشرق الإسلامي. وكان اختيار مصطفى باشا لسفيتها "جورج واشنطن" لتنقل هديته إلى السلطان سليم الثالث عام 1215 هـ/1800 م مجردا من أي اعتبار يتعلق بعلاقات الولايات المتحدة مع الأيالة، وإنما جاء لأنها كانت دولة غير مشاركة في الصراع الذي كان قائما آنذاك في البحر المتوسط بين القوى الدولية بزعامة فرنسا من جانب، وبريطانيا والدولة العثمانية من جانب آخر، وهو الصراع الذي كانت الأيالة تشكل أحد أطرافه بحكم تبعيتها للدولة العثمانية من جهة وعلاقاتها الخاصة بفرنسا وبريطانيا من جهة ثانية. وقد تم عمل الولايات المتحدة وسط ظروف صعبة وحرجة، سواء على مستوى علاقاتها بالأيالة أم علاقاتها بالدولة العثمانية التي لم تكن تربطها بها أية معاهدة. ذلك أن تكليف سفيتها "جورج واشنطن" — التي زارت مدينة الجزائر آنذاك ورسّت في مينائها — بنقل وفد الأيالة إلى إستانبول، قد حدث دون إجراء أي اتصال بالرئيس الأمريكي للحصول على موافقته كما كانت تقتضي العلاقات الدولية، وإنما حدث تحت ضغط مارسه مصطفى باشا على قنصل أمريكا في الجزائر، وتهديده بقطع العلاقات مع بلاده إذا رفض إعطاء الإذن لربان السفينة المذكورة للقيام بتلك المهمة. وفي ظل تلك الظروف اعتبر الأمريكيون الأمر مساسا بشرف بلادهم، خصوصا أن السفينة كانت تحمل اسم رئيس الولايات المتحدة "جورج واشنطن".¹ إلا أن نتائج تلك الرحلة كانت على عكس ما كان

1 Bemis, S.F., A diplomatic history of the United States, London, 1937, p 197, وأيضا: د. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ص 226.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش

متوقعا منها، إذ أسفرت عن فائدة كبرى في توطيد علاقات الولايات المتحدة مع الدولة العثمانية¹. ولذلك لم يتردد الأمريكيون في تلبية طلب الأيالة بنقل هديتها مرة أخرى إلى إستانبول، وهي الهدية التي أرسلها علي باشا عام 1224 هـ/1809 م إلى السلطان محمود الثاني².

وتعد بريطانيا ثاني دولة تحمل هدية الأيالة إلى إستانبول بعد الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، وقد قامت بتلك المهمة مرتين : الأولى عام 1221 هـ/ 1806 م، وهي المناسبة التي تلقى فيها وزير خارجيتها رسالة من الصدر الأعظم إسماعيل حافظ باشا اعتمر فيها قيام بريطانيا بنقل البعثة الجزائرية إلى إستانبول، ترجمة صادقة للعلاقات الودية القائمة بين الحكومة البريطانية والباب العالي³. ولم ينس الصدر الأعظم أن يوجه في رسالته للحكومة الأنكليزية الشكر على "العناية الفائقة والمعاملة الكريمة اللتين حظي بهما على متن السفينة الأنكليزية وفد الجزائر التي تعد إحدى أياالات الدولة العثمانية"⁴. أما المرة الثانية التي تولت

1 ذلك ما تكشفه تقارير الربان "بينيريدج" قائد السفينة عن الرحلة، ويذكر في أحدها (مؤرخ في 22 ديسمبر 1800 م) " إن الظروف مواتية تماما للولايات المتحدة إذا أرادت أن تعقد معاهدة تجارية مع الباب العالي" راجع : F.0.78، مجلد 31، ورقة 91. وأوضح في تقرير آخر (مؤرخ في 26 ديسمبر 1800 م) أن القيودان باشا موافق على مد جسر العلاقات بين الباب العالي والولايات المتحدة، راجع : نفس المصدر، ورقة 87.

2 رسالة من القنصل الفرنسي، 6 يناير 1810، في : C.C.C/Alger، مجلد 40، ورقة 6. كذلك رسالة من السفير الفرنسي، 15 يونيو 1810 : في C.P/Turquie، مجلد 25 إضافي، ورقة 20.

3 رسالة مؤرخة في 14 مايو 1806 م ومترجمة إلى الإنجليزية، في : F.0.78، مجلد 50، ورقة 54.

4 نفس رسالة الصدر الأعظم.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش
فيها بريطانيا نقل هدية الأيالة إلى إستانبول، فكانت عام 1231 هـ/ 1816 م،
وهي المناسبة التي أرسلت فيها الجزائر أكبر هدية لها إلى السلطان العثماني كما
سبق الإشارة، وخصصت لها بريطانيا سفيتها "تاجس Tagus"¹.

وأما الدولة الثالثة التي تولت نقل هدية الجزائر إلى الباب العالي في الفترة
المذكورة فكانت الدانمارك التي تعد إحدى الدول القديمة في علاقاتها مع الجزائر،
وقد قامت بتلك المهمة في عام 1234 هـ/ 1819 م². وكانت الهدية التي
حملتها سفينة الدانمارك هي آخر هدية أرسلتها الأيالة إلى الباب العالي.

وقد كانت السفينة المختارة لنقل الهدية تحظى باهتمام كبير من قبل
الجزائريين، فترين بالرايات وتودع وسط طلقات المدافع. وبعد ثلاثة أسابيع³ من
الإبحار تصل إلى العاصمة العثمانية وترسو في القرن الذهبي، وإثر ذلك ينقل خبرها
إلى السلطان الذي يأمر بإنزال البعثة التي تحمل الهدية وتخصيص مراسم الاستقبال
لها ثم تحديد برنامج لقاءاتها مع السلطان نفسه ووزراء الباب العالي لتوزيع الهدايا
عليهم ومناقشة أوضاع الأيالة معهم⁴.

1 رسالة من السفير الفرنسي في إستانبول: 25 يولية 1816، في: C. P. / Turquie، مجلد 230، ورقة 97.

2 رسالة من السفير الإنجليزي بإستانبول، 9 سبتمبر 1819 في : F.0.78، مجلد 92، ورقة 237.

3 يمكن تحديد ذلك في ضوء رحلة السفينة الأمريكية التي غادرت الجزائر في 19 أكتوبر 1800، ووصلت إلى إستانبول في 11 نوفمبر من نفس السنة.

4 رسالة من حاجي مصطفى رئيس بعثة عام 1221 هـ/ 1806 م إلى أحمد باشا، 26 صفر/ 15 مايو من نفس السنة، مترجمة إلى الإنجليزية في : F.0.3 مجلد 11، ورقة 92.

وإذا كان ولاية الجزائر قد اعتادوا أن يكسبوا رضا السلطان عليهم وكذلك ود وزرائه في هذه المناسبة، فإن مصطفى باشا أصيب بخيبة أمل كبيرة في عام 1215 هـ/1800 م. إذ بلغ غضب السلطان سليم الثالث عليه أن رفض استقبال بعثته وقبول هديته (التي أرسلها إليه على متن السفينة الأمريكية) بسبب توقيعه على معاهدة صلح مع فرنسا التي كانت تحتل مصر وفي حرب بسبب ذلك مع الدولة العثمانية.

بعد مرور شهرين على ذلك التوقيع، أي في 23 جمادى الثانية / 11 نوفمبر من السنة المذكورة رست السفينة الأمريكية "جورج واشنطن" في القرن الذهبي وسط مظاهر من الاستنكار والغضب. ولم تستقبل البعثة الجزائرية استقبالا رسميا بحجة غياب "القبودان دريا" (كوجوك حسين باشا)، ورفض طلب رئيسها حاجي يوسف بوضع برنامج لقاءاته مع السلطان وزرائه¹. وبعد بضعة أيام عاد "القبودان دريا" إلى إستانبول فتوجه إليه حاجي يوسف وهو لا يزال على متن سفينة القيادة حيث دار حوار بينهما عبر خلاله "كوجوك حسين باشا" عن غضب السلطان على الأيالة بسبب موقفها السلبي تجاه فرنسا والذي اعتبره منافيا لروح العلاقة الإسلامية التي تربط الجزائر بالدولة العثمانية. وكان رد حاجي يوسف على ذلك الاتهام بقوله إن ما عقدته الأيالة مع فرنسا لم يكن معاهدة صلح كما يعتقد الباب العالي وإنما مجرد هدنة، وأن سفارته تعد أصدق دليل على تعلق الأيالة بالدولة العثمانية وحفاظها على علاقاتها التاريخية معها².

1 تقرير من ربان السفينة الأمريكية إلى حكومته، 22 ديسمبر 1800 في : F.O.78، مجلد 31، ورقة 90-91.

2 نص الحوار مترجم إلى الإنجليزية وملحق برسالة السفير البريطاني، 29 نوفمبر 1800، في : F.O.78، مجلد 30، ورقة 258.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها حاجي يوسف في الدفاع عن موقف الأيالة، إلا أنه لم يفلح في إقناع "القبودان دريا" الذي أصر على موقفه بعدم استقبال البعثة، وطلب من الريان الأمريكي أن يتزل من على سفينة الراية الجزائرية ويرفع بدلها الراية الأمريكية، وأشار عليه بعدم رفعها مرة ثانية مادامت سفينة في المياه الإقليمية للدولة العثمانية، فلى الريان طلبه¹. ثم أمر "القبودان دريا" بعدم السماح لأعضاء البعثة الجزائرية بالخروج من مقر إقامتهم، وأعطى في نفس الوقت لحاجي يوسف مهلة شهرين ليتصل خلالها بالجزائر ويخبر مصطفى باشا بقرار الباب العالي بعدم استقبال بعثته وقبول هديته ما لم يتم بإبطال معاهدة الصلح التي عقدها مع فرنسا وإعلان الحرب عليها، وكذلك الاستجابة لأمر السلطان بإطلاق سراح الأسرى البريطانيين والنمساويين واليونانيين في الجزائر وتعويضهم عن الخسائر التي لحقتهم من جراء استيلاء البحارة الجزائريين على سفنهم ومصادرة بضائعهم التي وجدوها على متنها. وقد وصلت تهديدات "القبودان دريا" إلى حد منع الأيالة من القيام بعمليات التجنيد في الأناضول والتهديد بمعاقة كل من يتطوع في أوجاق الجزائر من الرعايا العثمانيين²، كما أمر باحتجاز أموال التجار الجزائريين وطردهم من محلاتهم ووضع الاختام على أبوابها لمنعهم من العودة إليها³.

وبعد يومين طلب حاجي يوسف مقابلة ثانية مع "القبودان دريا" وحاول خلالها إغراءه بالحصة التي خصصت له ضمن الهدية وسلمه قائمة بمحتوياتها، فاستلمها منه ومزقها قطعاً ورمى بها على الأرض دون أن يلقي نظرة واحدة

1 نفس تقرير ريان السفينة الأمريكية في : F.O.78، مجلد 31، ورقة 90-91.

2 نفس التقرير.

3 أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 72.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش
عليها، وعبر عن غضبه قائلاً "لا يسمح لأحد من وزراء حضرة السلطان بقبول
أية هدية من شخص تصرف بأسلوب مخالف لإرادته".

وعقب تلك المقابلة أدرك حاجي يوسف خطورة الموقف ورأى وجوب
إرسال نائبه حاجي مصطفى على متن السفينة الأمريكية إلى الجزائر لإطلاع
مصطفى باشا على الصعوبات التي تواجهها بعثته في إستانبول بعد أن قرر الباب
العالي عدم استقبالها². وقد عادت السفينة الأمريكية من العاصمة العثمانية
ووصلت إلى الجزائر في 6 رمضان 1215 هـ/ 21 يناير 1801م، وتبعها
سفينة بريطانية عليها مبعوث عثماني ومعه فرمان من "القبو دان دريا" إلى
مصطفى باشا بخصوص نفس الموضوع. وفور نزول حاجي مصطفى وبعده
المبعوث العثماني في الميناء اجتمع الديوان وأصدر قرارا بإبطال معاهدة الصلح مع
فرنسا وقطع علاقات الأيالة معها، وأتبع ذلك بقرار إطلاق سراح أربعمئة أسير
من جنسيات مختلفة تلبية لأمر الباب العالي³. ثم أرسل مصطفى باشا إلى القنصل
البريطاني يطلب منه أن يكتب إلى "القبودان دريا" في إستانبول ليخبره بتنفيذ
أوامره في الجزائر ويلتمس منه استقبال وفد الأيالة وتسهيل مهمته⁴. ولكي يعيد

1 رسالة من السفير البريطاني في إستانبول، 29 نوفمبر 1800 في : F.0.78 مجلد 30، ورقة 258.

2 نفس تقرير ربان السفينة الأمريكية في : F.0.78، مجلد 31، ورقة 90-91.

3 رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر، 6 فبراير 1801، في : C.C.C/Alger مجلد 35، ورقة 204.

4 رسالة من القنصل البريطاني في الجزائر، 30 يناير 1801، في : F.0.3، مجلد 9، ورقة 2-4.

مصطفى باشا للباب العالي ثقته به أرسل مبعوثا عنه إلى إستانبول على متن سفينة داغمركية يحمل رسالة منه إلى "القبودان داريا" أخيره فيها بالاستجابة لأوامره¹.

وكانت دول أوروبا تدرك مدى حرص الجزائر على نجاح بعثتها التي تحمل الهدية في أداء مهمتها في العاصمة العثمانية، وصارت تلك الدول تعتبر سرعة استجابة مصطفى باشا لأوامر الباب العالي عام 1215 هـ/1801 م، دليلا كافيا على ذلك الحرص. ولهذا تبين لتلك الدول أنه إذا أرادت الحصول من الأيالة على تنازلات سياسية أو تجارية، فإن عليها أن تستغل مناسبة إرسال بعثاتها إلى إستانبول، وتتوسط لدى الباب العالي لعرقلة مهامها حتى تستجيب الأيالة لمطالبها(أي مطالب تلك الدول). وهذا ما طلبه القنصل الفرنسي في الجزائر آنذاك "دوبوا تانفيل" من بلاده أن تفعله عام 1808 م للضغط على الجزائر (التي كانت آنذاك تتفاوض مع بريطانيا لتعين إحدى سفنها لنقل الهدية التي قررت أن ترسلها إلى الباب العالي) من أجل إرغامها على التنازل على بعض الامتيازات التجارية التي كانت فرنسا تدعي حقها فيها في الشرق الجزائري².

وكان باشاوات الجزائر يحصلون مقابل هداياهم إلى السلطان العثماني على رموز الولاية³ المتمثلة في "القلنج" وهو نوع من السيوف العثمانية، و"القفتان"، وهو اللباس الرسمي لرجال الدولة العثمانية، وهو عبارة عن ثوب أحمر اللون مصنوع من القطن، وله كمان عريضان ومتدليان عند اليدين، ومطرز بألوان مختلفة من الأمام، ومزين بالحرير الأصفر اللامع، ولا يتجاوز ثمنه -كما يذكر

1 الرسالة نفسها.

2 رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر، 5 يناير 1808، في : C.C.C/Alger مجلد 39، ورقة 3.

3 وردت تلك الرموز في مصادر عديدة، راجع مثلا : 228 MI 14 سجل 13، ورقة 10.

تبادل الهدايا - أ. خليفة حماش
"فونتير دوبارادي" - خمسة عشر ريالاً، ويطلق عليه في الجزائر "الخلعة السلطانية"². أما الرمز الثالث والمهم فكان يتمثل في "الفرمان" وهو رسالة من السلطان موشحة بالطغرا (أي توقيع السلطان) يعهد فيها للباشا بوظيفة الولاية ويمنحه رتبة "بكلربكي"³.

وفضلاً على رموز الولاية المذكورة، فإن الباب العالي كان يرد على الهدية الجزائرية هدية مثلها أو أكثر منها قيمة في بعض الأحيان، وتتمثل محتوياتها في جميع الأوقات في المعدات والتجهيزات العسكرية التي تكون الأيالة في حاجة إليها لتقوية وسائل دفاعها وفي مقدمتها الأسطول. وكنموذج لذلك فقد رد السلطان سليم الثالث على هدية مصطفى باشا عام 1215 هـ/ 1801 م هدية تمثلت في خمسة وسبعين جندياً، وأربعين مدفعاً من النحاس، وخمسمائة برميل من البارود، وألف قنطار من الكبريت، وأربعة آلاف قذيفة، وخمسمائة رزمة من الأشرطة، وألف برميل من القطران وأجهزة أخرى مختلفة خاصة بالسفن، علاوة على عدد من القفّاتين وهدايا أخرى للباشا ومساعديه⁴.

1 Venture de Paradis, Tunis et Alger au 18 siecle, Paris, 1983, p. 201.

2 أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 43، 95.

3 حول تفاصيل ذلك راجع خليفة حماش، المصدر السابق، ص 38-39.

4 رسالة من القنصل الأمريكي في الجزائر، نوفمبر 1801 في : Swanhson, Claude, A : Naval documents related to the U.S.wars with the Barbary powers, Washington, 1939, vo. 1, p 617 وللإطلاع على نماذج أخرى لتلك الهدايا راجع هدية السلطان محمود الثاني إلى علي باشا عام 1810 م في : أحمد جودت باشا، تاريخ جودت (بالتركية) ج 5، ص 2362. وكذلك هديته إلى عمر باشا عام 1817 م في : F.0.78 مجلد 88، ورقة 138-140.

أما في مطلع عام 1225 هـ / 1810 م فإن السلطان محمود الثاني قد رد على هدية علي باشا بهدية احتوت على: 42 بندقية ذات أطوال مختلفة تتراوح بين 8 و 21 شبرا، و 3000 قذيفة، ومدفع واحد طوله 60 شبرا، و 100 هبارة (نوع من القذائف)، و 200 قنطار من البارود، ومثلها من الحديد، و 40 خشبة لبناء السفن، و 200 قنطار من القنب، ومثلها من القطران، وسفيتين كبيرتين احدهما من نوع فرقاطة، وواحدة منهما تحمل 18 مدفعا¹.

ومثل ذلك الرد كان من الباب العالي أيضا في عام 1232 هـ / 1816، وعام 1235 هـ / 1820 م، ولكن حجم الهديتين كان أكبر²

وبالإضافة إلى هدايا الولاية، كان باشاوات الجزائر يرسلون في بعض المناسبات هدايا أخرى إلى وزراء الباب العالي ومساعدتهم وفي مقدمتهم القبودان دريا الذي كانت له يد قوية على الأيالة. وقد كتب القنصل الفرنسي "دوبوا تانفيل" في عام 1807 م بهذا الخصوص "أن أحمد باشا قد أرسل إلى الشرق أجمل سفينة تملكها الأيالة بقيادة الرئيس حميدة³ الذي كلف بمهام عديدة من بينها حمل

1 رسالة من السفير الفرنسي في إستانبول: 15 يونية 1810، في C. P. / Turquie، مجلد 25 إضافي، ورقة 20.

2 خليفة حمّاش، المصدر السابق، ص 219، 222.

3 حميده : هكذا ورد في الرسالة. ويشار إليه بنفس الشكل أحيانا في السجلات الجزائرية (راجع : 15 MI 228، سجل 19، ورقة 138)، وأحيانا أخرى بشكل "حميدو"، (راجع : 14 MI 228، سجل 13 ورقة 70). وكان بحارا جزائريا شهيرا في أوائل القرن التاسع عشر، وقتل في إحدى المعارك التي قادها ضد الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط عام 1815 م.

تبادل الهدايا ----- أ. خليفة حمّاش
هدية إلى القبودان باشا الجديد (الجزائري علي باشا) الذي تمّابه الجزائر وتسعى إلى
كسب موقفه لصالحها".

وفي الأخير أتمنى أنني قد أسهمت في إماطة اللثام عن جانب مهم من
جوانب العلاقات بين الجزائر والدولة العثمانية، وهو جانب تبادل الهدايا بينهما.
ولكن الموضوع مع ذلك يبقى في حاجة ماسة إلى جهد أكبر وعمل أوسع
للإحاطة به من جوانبه المختلفة: سياسيا وعسكريا وحتى دبلوماسيا واقتصاديا،
خصوصا أن ذلك التبادل للهدايا لم يكن وليد ظروف طارئة مرت بها الأيالة، وإنما
وليّد الظروف التاريخية التي ألحقت فيها الجزائر بالدولة العثمانية، واستمر ذلك
التبادل قائما مدة قدرها ثلاثة قرون بعد ذلك، مما جعله سمة بارزة في تاريخ
الجزائر العثمانية.

1 الرسالة مؤرخة في 3 مايو 1807 م، في : C.C.C/Alger مجلد 38، ورقة 224.
والإطلاع على نموذج لتلك الهدايا راجع الهدية التي أرسلتها الأيالة في إحدى المناسبات إلى
القبودان دريا محمد خسرو باشا وعدد من مساعديه في : 14 MI 228 سجل 15، ورقة 3.

رحلات استكشافية

في الجنوب الجزائري

الدكتور عمير أوي حميدة

مقدمة

إن موضوع أدب الرحلة هام جدا في الدراسات الحديثة؛ لتعدد فوائده، وتنوع مقاصده، وكثرة نتائجه. وإن الاهتمام به يعد مسؤولية كبيرة. لأن الرحلات هي أخبارٌ دولها شهود عيان، وتعلقت بتاريخ الجزائر. فهي مصادر لا يستغني عنها الباحث التربوي.

والرحلة أنواع. منها الرحلة العلمية. والرحلة التجارية. والرحلة الحجازية. والرحلة الخيالية. ويمكن حصرها في نوعين، الأول رحلة داخلية؛ كانت من أبناء بلاد الجزائر أو من المغامرين إلى داخل البلاد. والنوع الثاني خارجي؛ كان من أبناء البلاد أو من غير أبناء البلاد إلى خارج البلاد. فرحلة أبناء البلاد كانت إلى الحجاز، وإلى البلاد الإسلامية. وإلى البلاد الأوروبية. وإلى أنحاء الجزائر.

والذي يهمنا في هذا المقام هو الرحلة الداخلية، وبالتدقيق الرحلة إلى الجنوب الجزائري. والسؤال الذي يمكن طرحه هو: من من المغامرين الذين قاموا بهذه الرحلات؟ وما هي أهدافهم منها؟ وما هي أهم النتائج التي حصلت من هذه الرحلات؟ وما هي القيمة التاريخية لهذه الرحلات؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة فضلنا أن يكون حديثنا من خلال النقاط الآتية:

1 - موجز عن أهمية أدب الرحلة في التاريخ

2 - أهمية الرحلة إلى الجنوب الجزائري

3 - نتائج الرحلة إلى الجنوب

1 - موجز عن أهمية أدب الرحلة في التاريخ

ففيما يتعلق بأهمية الرحلة في التاريخ فالكلام يطول. وحين يكون الكلام عن أية رحلة يدرج فيما يعرف بأدب الرحلة، الذي يمكن تحديده بالقول: إن أدب الرحلة "هو ما يمكن أن يوصف بالواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلاد العالم ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"¹.

ويمكن القول أيضا إن الرحلة نوعان؛ الأول هو رحلات الواقع المحسوس. ففي هذا النوع تترج فيه المشاعر وتتولد المعاني الدينية والاجتماعية والفكرية الإنسانية. والنوع الثاني هو رحلات الخيال مثل رحلة المعري في رسالة الغفران، ومثل رحلة ألف ليلة وليلة. ففي هذا النوع يختلط فيه الإنس والجن، والواقع بالخيال.

1- أنجيل بطرس، "الرحلات في الأدب الإنجليزي"، الهلال، عدد 7 مصر 1975، ص.

وموضوع أدب الرحلة، أو الرحلة الأدبية شيق وهام جدا. فأغلب المخزون الفكري الإنساني هو ناتج عن أدب الرحلة. لأن كثيرا من الشعراء والمفكرين والحكماء أنتجوا فكرا من رحلاتهم، وبذلك يكونون قد أسسوا علاقات تواصل بين الشعوب؛ قديما ووسيطا وحديثا، أي بين الشعوب العربية عهد الجاهلية، والمصرية عهد الفراعنة، والفارسية عهد الأكاسرة، والرومانية عهد القيصرية، والأوروبية عهد الملوك والإقطاع. فكان الرحالة سفراء، وعامل تأثير وتأثر في الفكر والأدب والفن. لأن الرحلة كانت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. مثلما كانت الرحلة إلى الكعبة الشريفة من مختلف أنحاء.

فمن خلال ما تركه الرحالة من معلومات فإن الفاتحين المسلمين كانوا على دراية بأحوال بلاد المشرق قبل فتحها. مثلما كانت شعوب تلك البلدان على دراية بأحوال الجزيرة العربية قبل الفتح الإسلامي. إذ كانت رحلة الشاعر أبو دلف بن المهلهل الذي زار الهند وأفغانستان وألف كتاب عجائب البلدان. مثلما كانت رحلة الريحان محمد البيروني الذي كتب تاريخ الهند. والمسعودي الذي كتب مروج الذهب، وغيرهم مثل ابن جبير، وابن بطوطة، وابن خلدون، وحسن الوزان. فيكون الرحالة العرب قد ساهموا في نقل معالم الحضارة الإسلامية إلى بلاد أوروبا قبل أن ينتقل الأوروبيون إلى البلاد الإسلامية.

مثلما كان رجاله الغرب من أوروبا على دراية بمواطن البلدان قبل احتلالها. مثلما كانت الشعوب المستهدفة تعرف شعوب البلدان الغازية قبل وصولهم لها.

فبواسطة هذه الرحلات كانت شعوب العالم على صلة فكرية منذ القدم قبل أن يكونوا على صلة سياسية أو اجتماعية أو دينية. ولكن الذي حدث أن الأوروبيين هم الذين وظفوا أدب الرحلة واستفادوا منه كثيرا. وكان في مقدمة المستفيدين المستشرقون، ورجال الاستعمار الاستيطاني.

وقد بدأ أدب الرحلات في العصر الحديث مع حركة البعث والتنوير، فهو يعكس من جهة أخرى صورة التخلف والجمود والسكون الموجودة في إفريقيا أمام صورة التقدم الصناعي والعمل العلمي الدؤوب.

ولهذا يمكن القول إن رحلة المشرق مثل أدباء المهجر إلى أوروبا وأمريكا. وعلماء المغرب والأندلس الذين كانوا يتناقلون الأخبار من زمن إلى آخر. ومغامرو الغرب الذين كانوا يكتشفون المناطق النائية، إن هؤلاء الرحالة قد ساهموا في نقل علوم ومعارف المغرب والمشرق والغرب فكانت ولا تزال تنقل وتروى بالسند. ولهذا فأدب الرحلة ثري وفريد من نوعه من حيث توفر المادة الخيرية المصدرية.

2 - أهمية الرحلة إلى الجنوب الجزائري

كانت رحلات كثيرة إلى الجنوب الجزائري خلال العهد العثماني، نذكر منها رحلة محمد الكبير باي بايليك الغرب الجزائري، التي كتب عنها ابن هطال¹. ورحلة أبو سالم العياشي إلى الصحراء الجزائرية حيث وصف لنا مواطن كثيرة مثل تماسين وعين ماضي.

وفي فترة الاحتلال الأوروبي فقد كان الاهتمام الأوروبي كبيرا بالصحراء الجزائرية². هذا الاهتمام الذي كان سابقا عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، والذي كان في إطار التنافس الدولي على إفريقيا في نهاية القرن 18 خاصة بين كل من ألمانيا وبلجيكا وهولندا وبريطانيا وفرنسا. لأن بريطانيا سعت لتأسيس مواطن نفوذ لها انطلاقا من منابع النيل. وبواسطة إقامة الشركات منها شركة شرق إفريقيا. بادعاء أن تلك الكشوفات في إفريقيا هي علمية وخدمة للإنسان. وقد كان التفاوض بين هذه الأطراف حول اقتسام مواطن النفوذ؛ ومن نتائج هذا التفاوض أن تم عقد اتفاقية بين بريطانيا وفرنسا عام 1916 حول اقتسام الكامرون. وفور احتلال فرنسا للجزائر جددت اهتمامها بالصحراء الجزائرية. ووجهت رحلات استكشافية متعددة.

1- تحقيق محمد بن عبد الكريم القاهرة 1969

2- ساهم الدكتور يحيى بوعزيز بدراسات كثيرة عن الجنوب الجزائري وقدمها في ملتقيات كثيرة منها ما قدمه في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث المنعقد في غانراست عام 1979

ويمكن تسجيل البداية القوية للرحلات الاستكشافية الفرنسية في الجنوب الجزائري بتأسيس لجنة الاكتشاف العلمي من قبل السلطة الفرنسية عام 1837 حيث شكل القرار الوزاري رسميا عام 1839 هيكله هذه اللجنة بـ 21 عضوا أغلبهم من أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون و"الكليات" العسكرية. أي أنهم من مختلف التخصصات العلمية (آثار، جغرافيا، أنثوغرافيا، تاريخ، طب، اقتصاد، فلاح...)¹.

وقد نتج عن أعمال هذه اللجنة العلمية طبع ونشر عديد من المؤلفات والمجلات والنشريات، شملت مختلف النواحي المتعلقة بالجزائر وبالجزايرين. وكانت الرحلة العلمية الاستكشافية من الوسائل الهامة التي قدمت مادة خيرية عالية القيمة.

وفيما يتعلق منها بالجنوب الجزائري فقد سبق أن تحدثنا عن اهتمام الأوروبيين بهذه المنطقة². حيث تبين أن السياسة الفرنسية كانت على دراية كبيرة بأهمية الصحراء، وأن قناعتها كانت كبيرة في أن بقاءها في الجزائر مرهون باحتلال الصحراء. ولتحقيق هذا الهدف طبقت السلطة الفرنسية

1- وقد عدد أبو القاسم سعد الله مختلف التخصصات العلمية هذه التخصصات بـ 19 تخصصا. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 82

2- يراجع ما كتبناه في: من تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2000، ص. 144 وما بعدها.

سياسة معينة تمثلت في إسناد إدارة بعض المناطق في الصحراء إلى شيوخ جزائريين موالين لها. وتمثلت أيضا في توسيع دائرة الحملات العسكرية في الجنوب الجزائري، بجانب تشجيع الهجرة المدنية الأوروبية إلى هذه المنطقة. ومراسلة كبراء القوم لكسبهم إلى الصف الفرنسي. وتشجيع الرحلات العلمية والتجارية إلى هذه المنطقة. ثم القيام بحملات عسكرية التي كانت بمثابة الرحلات الاستكشافية. ويمكن تسجيل أول حملة عسكرية بالتي كانت إلى بسكرة عام 1844. والأغواط عام 1844 ثم إلى الزعاطشة عام 1849. ثم تالتت الحملات إلى مختلف أنحاء الصحراء. وكان يرافق تلك الحملات مغامرون ومستكشفون علماء. وتوالت الرحلات التجارية ومنها التي قام بها غارسان عام 1848 وغيره كثيرون¹.

بجانب هذه الحملات العسكرية والرحلات التجارية كانت رحلات علمية منها:

- رحلة حمدان خوجة الجزائري الذي يمكن اعتباره أول جزائري ساهم بكتاب هو الأول في البلاد العربية خلال الاستعمار الفرنسي هو كتاب المرأة. صحيح أنه لم يتم برحلة إلى الجنوب الجزائري لكنه كان على دراية بها وبأحوالها وقدم معلومات هامة في كتابه هذا عن الجزائر خلال رحلته إلى فرنسا عام 1833 استفاد منها الأوروبيون.

1- لمزيد من المعلومات عن مثل هذه الرحلات يراجع ما كتبناه في: من تاريخ الجزائر.

- رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء، التي ما تزال غامضة. فعلى رأي أبي القاسم سعد الله أن معلومات هذا الرحالة هامة، ولكننا مازلنا في حاجة إلى معلومات إضافية عنه. فقد جمع بين الأخبار عن الصحراء وقراها وواحاتها وعاداتها وحرية وقابس وشنقيط ونحوها، ثم إنه ليس من الواضح أنه قد زار الأماكن التي وصفها، ولعله سمع عنها فقط باعتباره من سكان الأغواط إحدى مدن الصحراء التي تحدث عنها. حقاً إنه قد حجج، وهذا يؤهله للحديث عن الجزيرة العربية ولا سيما الحجاز وبعض أخبار تونس التي قد يكون مر بها، ولكن يكاد يكون من المؤكد أنه لم يزر الدرعية السعودية عندئذ، كما أنه من غير المؤكد أنه زار أيضاً شنقيط وغدامس وغيرها من المناطق النائية التي تحدث عنها.

فإذا أخذنا في الاعتبار هذه الملاحظات وجدنا أن رحلة ابن الدين الأغواطي على غاية من الأهمية. فهي مكتوبة سنة 1242، وأنه قد كتبها بطلب من قنصل أمريكا عندئذ بالجزائر، السيد وليام هودسون¹، في كراسة

I - الملاحظ أن الأوروبيين كانوا يتقربون إلى الجزائريين ويطلبون منهم كتابة رحلاتهم ومذكراتهم، وهو الذي حدث مع علي أفندي ابن حمدان خوجة حين طلب منه المستشرق دي سولسي كي يدون رحلته التي كانت برفقة والده من الجزائر إلى قسنطينة والعودة. وقد ترجمها هذا الأخير إلى اللغة الفرنسية. وحاولنا من جهتنا ترجمتها إلى العربية. لمزيد من المعلوماتراجع: وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832. ترجمة. نشر جامعة غاريان، ليبيا 2003

تحتوي على أربع عشرة صفحة، ونحن نتصور أن ابن الدين قد كتب أكثر من ذلك لنفسه ولكنه لخص للقصص ما رآه كافياً، وقد ترجم القنصل هذه الصفحات إلى الإنجليزية ونشرها. كما ترجمها السيد أفيزاك¹ إلى الفرنسية عن النص الإنجليزي ونشرها أيضاً مع تعليقات وتصحيحات هامة، وأهم المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته: الأغواط، وتاقدامت، وعين ماضي، وجبل عمور، ومتيلي، ووادي ميزاب، والقليلة (المنبعة) وورقلة، وتقرت، وتوات، وقيمون، وعين صالح، وشنقيط وغدامس، والدرعية، وقابس، وجزيرة جربة. وقد استفاد الأوروبيون والأمريكيون، أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافها من هذه المعلومات التي كتبها الحاج ابن الدين عن قراها وعادات أهلها ومساكنها.

- رحلات علمية قام بها جيولوجيون فرنسيون منها التي قام بها المهندس جوس (Jus) الذي تمكن من حفر بئر ماء في أول ماي 1856 بأمر من علي بن فرحات قائد توقورت على عمق 60 م وكان الماء غزيراً وكانت فرحة السكان كبيرة حيث نبع الماء بقوة 4000 ل / دقيقة إلى درجة أنه قيل شعر ملحن بهذه المناسبة، وترجم على هذا الشكل:

Je vous annonce des choses merveilleuses
L'eau a jailli du sein des sables
Dieu a donné l'eau au Sahara

1- أفيزاك من الذين اهتموا بمطلة الصحراء. وهو الذي أنجز دراسة جغرافية عام 1836 عن الجنوب الجزائري.

Par l'intermédiaire de celui qui gouverne actuellement

وقال الفرنسيون أنه باكتشاف الماء تكون البداية القوية لإقامة إدارة فرنسية بالصحراء بدايتها ورقلة ذات الصلة بيسكرة وستكون ورقلة سوقا تجارية هامة للأوروبيين والعرب والميزابيين والسود اليهود¹.

- رحلة إسماعيل بن أحمد بوضربة (توفي عام 1875)² بتكليف من الحاكم العام روندون عام 1858-1859 لاكتشاف المنطقة الممتدة من ورقلة إلى غاث. وقد دونت رحلته واستفاد منها كثير من المغامرين الذين جاءوا بعده.

- رحلة الحاج البشير (ولد عام 1814) أملاها على ضابط فرنسي عام 1867 وقد استفاد الفرنسيون مما تضمنته من معلومات عن الصحراء وعن سكانها، وعن أولاد سيدي الشيخ

1- لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه في: محاضرات في تاريخ الجزائر، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة 1999، ص-ص. 184-199

2- هو ابن أحمد بوضربة الذي عينته السلطة الفرنسية أول رئيس لبلدية الجزائر العاصمة. وهو من عائلة تجنس أغلب أفرادها بالجنسية الفرنسية، ولعبوا دورا هاما في سياسة الإدماج. لمزيد من المعلومات يراجع أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 6، ص-ص. 228-230. وجزء 7، ص-ص. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998

3 - نتائج الرحلة إلى الجنوب

مما سبق ذكره يحق القول إن الرحلات:

- متعددة الجوانب؛ داخلية وخارجية، واقعية وخيالية، علمية وتجارية.
- كان دافع الرحلة من قبل المسلمين هو المفاضلة بين العلم عن المال، على خلاف دافع الرحلة من قبل الأوروبيين.
- أنتجت هذه الرحلات ما يعرف في الدراسات الحديثة بأدب الرحلة.
- يعد أدب الرحلة مخزونا تراثيا هاما، ومصدرا رئيسا في تاريخ الجزائر.
- فأدب الرحلة هو عجائب الأخبار وغرائب الآثار.
- تمثل الرحلة إلى الجنوب الجزائري جانبا من الصراع بين إفريقيا والغرب
- كان دافع الرحلة وواقعها علميا ودينيا وتجاريا ونفسيا
- كان للأسطورة الإفريقية والسحر فيها دافع قوي ليقوم الرحالة المغامرون الأوروبيون بالاحتكاك به وفهمه
- وظف الأوروبيون الرحلات توظيفا سياسيا، إذ أن التوسع السياسي كان بعد معرفة المناطق المراد التوسع فيها.
- نتج عن الرحلات استخدام طرق مواصلات امتدت إلى جنوب الصحراء، وإبرام اتفاقيات مع أهم الأطراف في غرداية وغدامس.

السياسة الإدارية الاستعمارية

في الصحراء الجزائرية

الأستاذ قاصري محمد السعيد

تمهيد.

من المتعارف عليه أنه بسقوط العاصمة الجزائرية، ونفي الداي حسين ظهر فراغ إداري كبير في العاصمة، كان لابد أن يُملى من طرف سلطات الاحتلال سواء بإدارة فرنسية أو إدارة وطنية أو بإدارة أخرى. وبخصوص إدارة الجزائر فإن الفترة الممتدة من سنة 1830 إلى سنة 1834 تعتبر لدى العديد من الباحثين فترة تردد فرنسا حول البقاء في الجزائر من عدمه، ولكن الحقيقة عكس ذلك فالتردد كان قائما فعلا ولكن حول نوعية نظام الحكم الذي سيسود في الجزائر؛ هل سيكون عسكريا أم مدنيا ؟ وهذا التردد كان محكوما إلى عاملين رئيسيين هما:

1. تجنب المعارضة الدولية وخاصة من طرف بريطانيا.

2. احتواء المعارضة الفرنسية وخاصة المناهضة للنظام الملكي.

ولكن من ناحية الممارسات الواقعية فإن فرنسا كانت تؤكد إصرارها على الاحتفاظ بالجزائر في المرسوم الصادر في سنة 1834م. المرسوم الذي اعتبر الجزائر امتدادا طبيعيا لفرنسا. وبهذا الخصوص ظهرت العديد من التصريحات والآراء والتي من بينها:

تصريح " شانزي " ((إن أرض الجزائر تشكل جزء لا يتجزأ من فرنسا الأم وعليها أن تعيش نفس الحياة التي تحياها... مبادرة وتنفيذ في الجزائر حزم ومراقبة

في باريس)).¹ في حين يصف لنا كريميو في تصريحه طبيعة نظام الحكم الذي سيسود في الجزائر في قوله: ((في ظرف ثلاثة أشهر قدمت إلى اللجنة 27 مرسوما وإلى حكومة الدفاع الوطني 30 مرسوما وقد أقامت هذه المراسيم الحكم المدني عوضا عن الحكم العسكري باتخاذ إجراءات حاسمة، وإن لم تغير في البداية مركز السلطة مرة واحدة، ثم عن طريق التحويلات المتتابعة محققة هكذا تقريرا يوما بعد يوم الاندماج الذي طالما طوّل به)).²

في حين يختتم "جول فيري" رئيس اللجنة المكلفة بالتحقيق حول تنظيم الجزائر تقريره بما يلي:

((لابد من الاعتراف بأن نظام الاندماج التشريعي هو في حالة تفتت وتذاع في جميع النواحي ... إن الجزائر قد بدأت تشعر بالعياء الكبير من جراء محاسن قوانيننا المدنية وضمانة الإجراءات: الاندماج ترجمته ضريبة ثقيلة تؤخذ لصالح رجال الأعمال وموظفي الوزارات ورجال القانون)).³ ولتوضيح الصورة أكثر حول نظام الحكم الذي اقترحه الحاكم العام في الجزائر أحيل القارئ الكريم إلى الملحق رقم 01.⁴ الذي تضمن وجهة نظر الحاكم العام في حكم الجزائر.

ومنذ ذلك الحين بدأت السلطات الفرنسية في تنفيذ سياستها الإدارية بالجزائر، فقد وافقت على خلق منصب الحاكم العام، ودرست علاقة سلطاته بالحكومة المركزية في باريس، كما وافقت على إنشاء مجلس بلدي في مدينة

1- زوزو، عبد الحميد: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 - 1900)،

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص، 165.

2- المرجع نفسه، ص، 165.

3- المرجع نفسه، ص، 166.

4 - المرجع نفسه، ص، 167.

الجزائر مكونا من رئيس وأربعة مساعدين منهم يهودي ومسلم على الأقل، ومن جهة أخرى أعطت صلاحيات إدخال أعضاء جزائريين إلى المجلس البلدي المقترح متى رأى ذلك مناسبا.

ولم تكن اللجنة بهذه الاقتراحات بل راحت توصي بضرورة مد النفوذ الاستعماري إلى كامل التراب الجزائري وقد أكدت ذلك في أحد تقاريرها:

((أن على فرنسا أن تحتفظ بالجزائر وأن لا تبقى في المدن الساحلية فقط، بل الواجب عليها جعل تلك المدن مراكز أمامية لإمداد الجيش بضرورات حملات عسكرية توسعية داخل البلاد لإخضاع كامل البلاد للسيطرة الفرنسية)).¹ وعلى اثر هذا التصور سأحاول ضمن هذا الجزء من الفصل الثاني توضيح بعض الملامح الرئيسية من السياسة الإدارية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، وقبل توضيح ذلك أرى أنه من الضرورة بمكان الإشارة وباختصار إلى السياسة الإدارية التي تم تطبيقها في الجزء الشمالي من البلاد قبل احتلالهم للصحراء الجزائرية، لكي يتسنى لنا إظهار إن كان هناك اختلاف في هذه السياسة أم لا². وهذا الجزء جاء متضمنا للعناصر الآتية :

1. ملامح السياسة الإدارية الاستعمارية في شمال البلاد.
2. المكاتب العربية ودورها في الإدارة الاستعمارية .
3. التنظيم الاستعماري الإداري للصحراء الجزائرية.
4. ملاحق

1- سعد الله، أبو القاسم : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص، 109.

1 - ملامح السياسة الإدارية الاستعمارية في شمال البلاد

كما سبق وأشارت فإن السلطات الاستعمارية أقرت منذ 1834 بجعل الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وأصبحت منذ هذا التاريخ تُعرف باسم الممتلكات الفرنسية في إفريقيا. وقصد التحكم الجيد في هذه الممتلكات أنشأت فرنسا منصب الحاكم العسكري العام وهو مسئول أمام وزير الحرب في الحكومة الفرنسية الذي يعطيه تعليمات الحكومة، ولكنه لا يمثل الوزير بل الحكومة الفرنسية في الجزائر. ودور الحاكم العام هنا هو الإشراف على السياسة القائمة على المستويين العسكري والمدني أي أنه يتصرف في كل ما يتعلق بالعمليات العسكرية، وقراراته يؤيدها وزير الحربية وللحاكم العام التفويض في المعاهدات والموافقة عليها، أما النائب العام فمهمته تنظيم أمور القضاء في حين أن المقتصد يُشرف على شؤون المالية والضرائب والقمارق والإدارة المدنية.¹ كما أن الحاكم العام في الجزائر وضع تحت تصرفه ثلاثة فواد للنواحي الثلاث الآتية :

1. الناحية الوسطى ومقرها الجزائر العاصمة.

2. الناحية الغربية ومقرها وهران .

3. الناحية الشرقية ومقرها قسنطينة .

وكل قائد ناحية مسئول عن قيادة ناحيته التي هي الأخرى مقسمة إلى مجموعة أقسام يخضع كل منها لضابط يأتمر بأوامره مجموعة من الموظفين الجزائريين بألقاب إدارية قديمة مثل: الخليفة، الشيخ، القايد، الآغا. وهذه النواحي والأقسام

1- أندري نوشي، وآخرون : الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابع ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص، 324.

كانت تُسير بواسطة المكاتب العربية¹، التي كان لها دور كبير في تنظيم الإدارة الفرنسية بالجزائر. ونظرا لدورها الحيوي في هذا الشأن رأيت ضرورة الوقوف عندها وبشكل مختصر، فما هو مفهومها؟ وما هو دورها؟ وهل كان لها دور رئيسي في التنظيم الإداري الاستعماري للصحراء الجزائرية؟.

2 - المكاتب العربية ودورها في الإدارة الاستعمارية

جاء في تعريف "دوماس" للمكتب العربي ما يلي: ((بأنه المؤسسة التي يتمثل موضوعها في ضمان التهدة، تهدئة القبائل بصفة دائمة وذلك بإدارة عادلة ومنظمة وكذلك نهيأة السبل لاستيطاننا ولتجارتنا عن طريق استتباب الأمن العام، وحماية كل المصالح الشرعية، وزيادة الرخاء لدى الأهالي، وعلى عمال هذه المؤسسة أن يميلوا أكثر فأكثر إلى البحث عن الحل السلمي لكل المشاكل التي كانت تتطلب في أحيان كثيرة استخدام القوة، والعمل للتغلب على جميع العراقيل التي يواجهها بما يجتمع في غاية الاختلاف عن مجتمعاتنا بعاداته ودينه، وعن طريق دراسة البلاد وتقييم جميع المصالح التي تحرك السكان العرب...))².

1-صالح، فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر في عهد الفينيقين إلى خروج الفرنسيين (814

ق.م - 1962)، دار العلوم للنشر والتوزيع الجزائر، 2002، ص، 195 .

2- زوزو، عبد الحميد : المرجع السابق، ص، 169.

في حين عرّف " فرديناند هيقونيت " المكتب العربي بما يلي: ((المكتب العربي هو حلقة الوصل ما بين الجنس الأوربي الذي استوطن بالقطر الجزائري منذ عام 1830م والجنس الأهلي الذي يقطن البلاد من قبل ولا يزال إلى الآن...)).¹

وعن كيفية تسيير الأهالي والتحكم في شؤونهم يرى " شارل ريشار " صاحب كتاب الحكومة العربية ((إن ممارسة التأثير على المسؤولين الأهالي مليئة بالمصاعب الجمة بالنظر إلى عجرفة بعضهم وتحلي البعض الآخر بالمراوغة والتملص، وأن الوسيلة الوحيدة لقهرهم في البداية وتسييرهم بعد ذلك بنوع من السهولة هي معرفة مكانهم خباياهم المخرجة لمركزهم، وإشعارهم خلال المحادثات السرية معهم بأن ما من شيء قد يؤدي إلى شنقهم. يمتنهي البساطة بمجرد الكشف عنها، فإذا بالمتعجرفين منهم على غاية من المرونة لا نظير لها وإذا بالمراوغين لشعورهم بالخطر مدركون لا طائل من وراء سلوك ثعبان الماء. ومن هنا يجب أن تتكرر مثل هذه المحادثات السرية مع الأشخاص الهامين الذين يرتجى منهم شيء...)).²

تعود نشأة المكاتب العربية إلى سنة 1833 عندما أحدث الدوق "دو روفيقو" مكتباً سماه بالمكتب العربي، وصار فيما بعد يعرف بمصلحة الشؤون العربية التي أسندت إدارتها إلى النقيب "لا مورسير" فيما بين 1833 - 1834. وفي شهر أفريل 1837 أعيد تأسيس إدارة الشؤون العربية التي أسندت رئاستها إلى الرائد "بيليسية" الذي استمر في إدارتها إلى غاية 1839 أين استقال من منصبه. ومع بحىء الجنرال "بيجو" حدث هناك تطور في مسألة الإدارة الاستعمارية، وقصد

1- صالح، فركوس : المرجع السابق، ص 199.

2- زوزو، عبد الحميد : المرجع السابق، ص، 170.

بسط سيطرته على كامل القطر الجزائري أعاد تأسيس إدارة الشؤون العربية في تاريخ 1841/08/16. وعيّن الضابط "دوماس" رئيسا لها.

ومنذ ذلك الحين ظلت السلطات الاستعمارية تتخبط في مسألة إدارة الشؤون الأهلية إلى غاية صدور مرسوم وزاري مؤرخ في 1844/02/01 الذي أقر بإنشاء المكاتب العربية بصفة رسمية وأصبحت من أهم المؤسسات في الإدارة الفرنسية بالجزائر.¹

إن ظهور المكاتب العربية يعتبر نقطة تحول كبيرة في مسار الإدارة الفرنسية بالجزائر وذلك من خلال الأهداف الجريفة التي سطرها لنفسها، ويمكن حصر بعضها في النقاط الآتية:²

1. التمكين للاستعمار والعمل على إخضاع القبائل للسلطة الاستعمارية.
2. مراقبة تحركات القبائل وحراسة المشبوه منهم.
3. مراقبة الزوايا والقادة الروحيين.
4. مساعدة القادة العسكريين بالبلاد في إدارة الأهالي وتنفيذ أوامره مع توجيه السياسة الاستعمارية.
5. التمهيد لطرق الاحتلال والاتصال والتجارة الاستعمارية عن طريق إقرار الأمن والاستقرار.
6. استخلاص الضريبة.
7. التقليص من نفوذ رؤساء الأسر الكبيرة.
8. تولي مهمة القضاء والفصل في الخصومات.

1- أندري نوشي، وآخرون : المرجع السابق، ص، 324.

2- صال، فركوس : المرجع السابق، ص، 199.

ولقد ظل العمل جار بالمكاتب العربية إلى غاية سنة 1870 أين تم إصدار قرار 24 أكتوبر الذي نص على ما يلي :

- إلغاء النظام العسكري والمكاتب العربية وامتيازات رؤساء الأهالي.
- إنشاء محاكم الجنايات.
- تجنيس اليهود

3 - التنظيم الإداري الاستعماري في الصحراء الجزائرية

في هذه الأثناء لم تكن الصحراء الجزائرية بمعزل عن ما يدور من تنظيم استعماري للقسم الشمالي من البلاد، ولكن نظرا لخصوصيات المنطقة الصحراوية فإنها ذهبت ضحية للنظام الاستعماري العسكري الجائر. وتحقيق الجيوش الفرنسية للعديد من الانتصارات في الجنوب؛ ورغم المقاومة البطولية التي قام بها السكان فإن هذا لم يثن السلطات الاستعمارية على وضع تنظيم إداري استعماري للمنطقة. والملاحظ هنا أن السلطات الاستعمارية زاجت بين العمل العسكري والإداري والدعائي والتنصيري... الخ. ولاشك أن ما سبق ذكره في الجزأين السابقين قد أعطى صورة واضحة عن مدى ترابط وتداخل وتنوع وتزامن السياسة الفرنسية المتبعة في الصحراء الجزائرية، عدا السياسة الإدارية التي سأتعرض لها في النقاط الآتية:

خلال الفترة الممتدة من سنة 1855-1859 تكون السلطات الفرنسية قد تمكنت من إدارة البلاد بأبناء البلاد أنفسهم، وهذا النظام الإداري تم إسناده إلى من هم أدرى بشؤون العرب والمسلمين على غرار ما قام به " ليون روش" مع الأمير عبد القادر، ومن بين هؤلاء العالمين بالشؤون الجزائرية الجنرال "ديفو" الذي كان له الدور الكبير في تحقيق بعض التقدم في النظام الإداري بالجنوب. يبدو ذلك من خلال العديد من المراسلات التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل والشيخ

والمرابطين قصد استمالتهم ووضعهم في خدمة المصالح الفرنسية، ولا يمكننا هنا حصر كل هذه المراسلات وإنما أكتفي بما أشار إليه الدكتور أحمد عمراوي في إحدى دراساته، مع بعض الإضافات والمناقشات الموجهة لهذه المراسلات، ومن بين هذه المراسلات أذكر نموذجين رئيسيين كما يلي :

01- النموذج الأول :

عبارة عن مراسلة بعثها إلى كافة أعراس أوراس وهي مترجمة ضمن الملحق رقم 02 ومن خلال قراءتها يتضح لنا ما يلي:¹

1. سيطرة اللغة الدارجة والعامية، إما لكي يتسنى فهمها جيدا أو لأن كاتبها غير ملم بقواعد اللغة العربية، خاصة وأن أهل واد سوف لهم باع كبير في فصاحة ألسنتهم.

2. التناقض الكبير الذي تضمنته خاصة إذا قارنا ذلك بما قامت بها سلطات الاحتلال من أعمال بشعة وبين ما جاء على لسان " ديفو " الذي حاول تحسين صورة فرنسا لدى السّوافة.

3. محاولة الطعن في رموز الجهاد الجزائري وخاصة شخصية سي الصادق؛ هذا الأخير الذي كان من المحاربين والمعارضين للاحتلال، وهو الشيء نفسه الذي قام به " روش " عندما حاول الطعن في شخص الأمير عبد القادر.

4. محاولة تقديم نفسه -ديفو - على أساس أنه مفتي وعامل بالشؤون الفقهية وذلك من خلال حكمه على سي الصادق بالكفر والزندقة.

5. التهديد والوعيد وهو هنا يستند إلى المصير الذي لاقته واحة الزعاطشة والنوار الذين وقفوا في وجه فرنسا؛ الشيء الذي يزيد من كثرة المتناقضات في

1- أحمد، عمراوي : بحوث تاريخية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 2001، ص-ص،

هذه الرسالة. وفي الوقت نفسه نجده يتعهد المخلصين منهم والموالين لفرنسا بالعديد من الامتيازات والوعود المزوجة بالطرافة.

في حين نجد أن المراسلة الثانية التي بعث بها إلى سكان واد سوف في سنة 1858 تتعلق بالجانب التجاري وهي مدرجة ضمن الملحق رقم 03.¹ ومن خلالها تبين لنا ما يلي :

1. أن الفضل - حسب ديفو - في استتباب الأمن بالمناطق الصحراوية يعود إلى فرنسا، وهذا كذب محض أراد من خلاله إيهام السكان قصد تمجير مشاريع فرنسا التوسعية.

2. التأكيد على تغريم كل من يخالف السلطات الفرنسية أو يتعرض لمصالحها بسوء، وخاصة طرق القوافل التجارية.

3. التأكيد عل إظهار محبة وعطف فرنسا على الجزائريين، وهو الشيء الذي يتناقض تماما وتصرفاتها الماضية معهم.

4. الإشادة بالأطراف الجزائرية التي قدمت خدماتها لصالح الطرف الفرنسي، وإبراز المكانة التي حظيت بها من لدن السلطات الفرنسية.

5. محاولة ربط سكان الوادي بحاكم بسكرة العسكري؛ في حالة تقادم شكوى أو احتجاج ضد بعض الأطراف الفرنسية المتعاملة مع السكان أو من المواطنين أنفسهم.

6. التهديد بالانتقام من الذين يعرقلون سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، الشيء الذي ينفي النوايا الحسنة والمغشوشة في تعامل فرنسا مع السكان.

1- أمحمد، عميراي: المرجع السابق، ص، 150.

وبالإضافة إلى هذه المراسلات التي تبرز في كثير من الأحيان بعض أوجه السياسة الإدارية في التعامل مع سكان الصحراء. ونظرا لصعوبة هذه الأخيرة في مسالكها المجهولة وحرارتها المرتفعة ومقاومة سكانها الباسلة، قامت السلطات الفرنسية قصد التحكم الجيد في مصيرها بتقسيمها إلى عدة دوائر عسكرية وسأكتفي بذكر ثلاثة نماذج من هذه الدوائر مع التطرق إلى بعض المناطق التابعة لهذه الدوائر في ما يلي:¹

01 - دائرة باتنة العسكرية ومن بين قبائل الأعراش التابعة لها:

• لحالحة.

• أولاد موسى بن عبد الله.

• بني بوسليمان.

• أولاد عيشة.

• الرحاحفة.

• أولاد رابح.

• أولاد بلاح.

• تاخريت.

• الحدادة.

02 - دائرة بسكرة العسكرية ومن بين قبائل الأعراش التابعة لها:

• أولاد قاسم.

• أهل جاز الله.

• تكوت.

1 - جزوزر، عبد الحميد : المرجع السابق، ص - ص، 190 - 191 .

• المرادسة.

• أولاد سليمان بوحزمة.

• أولاد عبد الرحمان.

• أولاد سالم بن عباس.

• أولاد سعدية.

• السراحنة وأولاد سيدي محمد.

03 - دائرة خنشلة العسكرية ومن بين قبائل الأعراش التابعة لها:

• تاووزيات (شرفة) .

• ملاقو .

أما نظام المجالس البلدية فهو يختلف في تشكيلته من بلدية لأخرى، والظاهر أن كل الصلاحيات في يد الفرنسيين، وهم يتكونون عادة من العسكريين وبرتب مختلفة. ونلمس ذلك من خلال مجلس بلدية الشعبة العسكرية التابع لباتنة وهو يوجد ضمن الملحق رقم 04.¹

وبالإضافة إلى هذه المجالس هناك مجالس أخرى محلية تم وضعها خصيصا لإدارة شؤون الجزائريين أنفسهم بأنفسهم، مثل مجلس الجماعة بخنشلة الموجود ضمن الملحق رقم 05.² والملاحظ عنه أنه يخلو في تشكيلته من العناصر الفرنسية عكس المجلس السابق، إلا أن وجود بعض الألقاب كالشيخ والرئيس والأغا يورحي بوجود نوع من التعاون التام بين هذا المجلس والسلطات الفرنسية التي سبق لها وأن

1- روزو، عبد الحميد: المرجع السابق، ص، 179.

2- المرجع نفسه، 181.

تعاملت مع هذه الشخصيات بشكل كبير، نظرا للحظوة التي لاقتها عند السلطات الفرنسية. مقابل أن تكون واسطة بينهم وبين السكان المحليين.

هذا ولقد ظلت السلطات الفرنسية تمارس كل وسائلها الوحشية ضد سكان الصحراء، ورغم ذلك فإنها وجدت صعوبة كبيرة في تنظيم وحكم هذه المنطقة عكس المنطقة الشمالية. الأمر الذي دفع بدعاة التوسع الفرنسي في الصحراء إلى طرح المسألة على البرلمان الفرنسي وهو ما تم فعلا؛ ونظرا لذلك أعدت الحكومة الفرنسية ورغم التكاليف الباهضة مشروع قانون تنظيم الصحراء وعرض على البرلمان في دورته الربيعية لسنة 1902؛ فصادق عليه مع بعض التعديلات في الوقت الذي عارضه مجلس الشيوخ في العديد من النقاط. وطلب أن يتم عرضه على الهيئات المنتخبة في إدارة الاحتلال بالجزائر، وهي المجلس الأعلى للحكومة والمندوبات المالية والمجالس العامة للعمليات. ولكن المستوطنين الأوروبيين والفرنسيين قدموا بعض ملاحظاتهم حوله والتي من بينها:

1. التخوف من أن يؤدي هذا التنظيم الجديد للمناطق الجنوبية إذا ما جمعت في يد واحدة إلى تهديد الإدارة المدنية في المناطق الشمالية، وهو ما قد يؤدي تصفيتنا لصالح الحكم العسكري.

2. محاصرته لحركة الاستيطان وغلق أبواب الجنوب أمام الهجرة الأوروبية.

3. التخوف من حرمان الخزينة العامة للعمليات من المداخل المعتبرة التي تجيئها برسم الضرائب العربية والضرائب غير المباشرة خاصة من الهضاب العليا.

تحمل الخزينة العامة لتفقات الجيوش العسكرية المتمركزة في الجنوب خاصة بعد أن أصبحت هذه الأخيرة تتمتع باستقلال مالي منذ سنة 1900.

ولقد تم فعلا ترضية هؤلاء المستوطنين لأن الجنوب لن يوضع تحت سلطة حاكم عسكري واحد وإنما سيقسم إلى أربعة أقاليم كبرى، وكل إقليم يحكمه

قائد عسكري تحت المراقبة والإشراف المباشر للوالي العام في جميع الشؤون المدنية وعن طريق قائد الفيلق رقم 19 المتمركز في الجزائر بالنسبة للشؤون العسكرية. كما أعطيت ضمانات بخصوص حركة الاستيطان فالحدود الشمالية للأقاليم الجنوبية ستكون الحدود الجنوبية لمناطق الحكم العسكري في الشمال؛ أي جنوب دائرة مغنية العسكرية وملحق العريشة وسعيدة ودائرة تبارت العسكرية وملحق آفلو ودائرة خنشلة وتبسة العسكريتين.

في جلسة الحريف لسنة 1902 صادق مجلس الشيوخ على مشروع القانون الذي أقره البرلمان في شهر مارس دون تعديل وأصبح ساري المفعول منذ 1902/12/24 تحت اسم تنظيم أقاليم الجنوب؛ وإحداث ميزانية خاصة لهذه المناطق، كما صدرت مراسيم عدة تضبط وتنظم سير شؤون الأقاليم الجديدة منها:

المرسوم الخاص بتحديد صلاحيات الوالي العام وتنظيم إدارة الأقاليم الجنوبية الذي صدر في 1905/08/14م، والذي اعتبر الجزء الجنوبي من البلاد منطقة حكم عسكري مقسمة إلى أربعة أقاليم على النحو الآتي:

1. إقليم عين الصفراء.
 2. إقليم الواحات.
 3. إقليم غرداية.
 4. إقليم تفرت. وعلى رأس كل إقليم قائد عسكري معين بمرسوم وباقتراح من وزير الداخلية والحرية بعد ترشيحه من طرف الوالي العام.¹
- وهناك وثيقة ممضاة من طرف الوالي العام " لافريال " توضح لنا بشكل جيد نموذج من قرارات التنظيم الإداري لإقليم الجنوب الغربي الجزائري وهي مدرجة

أجمال، قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1993، ص، 148.

ضمن الملحق رقم 106¹ كما قام " لا بيرين " بدوره بتنظيم الفرق الصحراوية للقيام بعمليات التوسع وفقا لطبيعة المنطقة، فأنشأ الإقليم الصحراوي الذي سوف يتفصل عن الشمال ابتداء من 1902/12/31م. ليكون حرا في تنفيذ وإنجاز مشاريعه، كما عهدت الأقاليم الهامة والإستراتيجية في الصحراء والوحدات الغربية إلى ضباط الشؤون الأهلية تحت سلطة القائد الأعلى المتصل مباشرة بالوالي؛ ونظمت ثلاث سرايا صحراوية جديدة في جويلية 1902م، لتعوض الوحدات التقليدية.

أما من حيث النتائج التي ترتبت عن هذه السياسة فهي لا تكاد توصف؛ لأنها اتسمت بنوع من الغموض والتعتيم وأقل ما يقال عنها أن السلطات الاستعمارية مارست كل أنواع الأساليب الوحشية تجاه سكان الصحراء وخاصة أولئك الذين وقفوا ضد سياسة التوسع الفرنسي، كما أن المصالح التجارية قد تعطلت وأصبحت تحت سيطرة الفرنسيين والموالين لهم، كما تقلصت تجارة القوافل واستبدلت بتجارة قارة تعتمد على الدكاكين والمغازات المتمركزة في شمال الصحراء، وعلى إثر ذلك تدهورت الحالة الاجتماعية والصحية للمواطنين بشكل كبير جدا، ويبدو ذلك من خلال تناقص عدد المواليد وارتفاع عدد الوفيات.

هذا بالإضافة إلى الهجرة الجماعية التي كانت وجهتها كل من تونس والمغرب وبعض الدول الإفريقية. الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه أمام سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، ولقد ضل العمل جار بهذا التنظيم العسكري إلى غاية مطلع النصف الأول من القرن العشرين.

1- إبراهيم، مياسي: توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881 -

1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص - ص، 113 - 114

الملاحق

الملحق رقم 01.

((... اعلّموا يا أهل الجزائر. أنا حضرة الكبير نور الكبير حام دولة الجزائر الآن أريد في إشغال العرب مثا البرية أن نظل في أمورهم ونبلل بمجهودي فيهم ونصلح حالهم وتكون المحبة بيننا وكذلك أريد الخير والعافية ولهذا نأمر أولاً: في شأن فسيان الكبير المسمى آغة العرب واسمه يظهر لكم ما هو مكلف في أموركم، فهذا الفسيان الكبير الذي هو تحت أمرنا يكون اشغالكم على يديه وهو الناظر عليهم ويعمل جهده وطاقته لتنظيم سلطنة الفرائصية ولأجل العافية ولطاعة الأمور التي تخرج من عندنا والشكاوات وكذلك المكاتب لتفصيل الدعاوى الخ لم وصلوا إلى فيلقهم ويعتهم لنا عاجلاً وان كنت حاجة خفيفة أو مستعجلة فالفسيان المذكور هو المأمور بها، وان كانت دعوة كبير لا بد أن يخبرنا بها ويستأمرنا عليها. لامر الثاني لازم بأن هذا المتكلف بدعوة العرب يوصل الأخبار لل كبار إذا طلبوهم منه ويأخذ بخاطرهم في المطلوب. الأمر الثالث الفسيان المذكور هو متكلف بأمر البادية من سوى عسه العسكر، كلما ذكرنا ليس عنده منع في أمور خدمة الجيندرامية. الأمر الرابع لكن هذا الأغة يكون مكلف بكل ما امرناه من عقاب وكذلك هناك من العسه الخارجة وهذا حين ليس يلزم عسكر كثير، وإذا كان يلزم عسكر كثير يوقع الحكم في يد الذي هو مكلف به، الأمر الخامس ليس يلزم عسكر كثير، وإذا كان يلزم عسكر كثير يوقع الحكم في يد الذي هو مكلف به، الأمر الخامس لازم للأغة من أربع وعشرون ساعة إلى الرابعة وعشرون ساعة ان يخبرنا ويكتبنا بما وقع عنده وبالخير الذي كان عنده. الأمر السادس ويكون عنده في عون خدمته زوج فسيانات وزوج طرجانات الذين تعينهم له. أمر سابع هذا الأغة وحده متكلف في أمور الصبايحية والذي عصا الأمر

فيركب ويركبوا معه الصباية ويتنصر معهم في أمور البادية، وإذا حدثت دعوة كبير وأمرناهم فيدخلوا تحت يد فسيان آخر أكبر)).

كتبت في الجزائر بتاريخ 28 يوليو عام 1834.

الملحق رقم 02

رسالة إلى كافة أعراش أوراس عام 1858م.

((من المعظم الأرفع سعادة الجنرال ديزفو الحاكم الكبير بياتنة ونواحيها إلى كافة أعراش أوراس خصوصا أهل أحمر خده وبني بوسليمان وأهل واد عسرة وأولاد داود السلام عليكم يليه إعلامكم أن الدولة الفرنسية العالية قد عاملتكم بالعدل والإحسان في جميع مشاربكم كما جعلت العافية في بر الجزائر وسعت في زيادة أرزاق الناس وهذا من الأمور التي لم تحدث قبل استلاءها على هذا البر والخال أنكم عالمون أن الدولة العالية المذكورة مجتهدة كل يوم بإبطال المظالم التي كانت قبلها مع نصرها للضعيف حتى أوصلته حقه وقد اشتغلت بحفر العيون وبناء القناطر ليسهل حواز ما صعب قبل استلاءها وغصلاح الطرق وغيرهم الحاصل بذلت كل الجهد في مكافات الناس بالخير لتحرضهم على الخدمة في هذه المصالح ولتعلموا أننا جعلنا القدر العظيم لدينكم وامتدت عليه حمايتنا حتى بينا الجوامع لعبادة ما أمر به وصرنا معونة في حفظ الزوي والمدارس لقراءة العلوم العربية كما أن عساكرنا لم يتعد أحدهم الحدود مثلما كان في زمن الترك بل كل من يملك منكم شيء يعلم أن رزقه له ولم يقدر واحد يأخذه له ولما كان ذلك ولأي شيء أهلتهم ما ذكر من دينكم وارزاقكم واتبعتم ما كذب عليكم سي الصادق أو ما علمتم ان سي الصادق ملك قلبه الطمع وفي زعمه أن خيار المسلمين قد فعل فعلا مكروها في دينكم حتى حكمت عليه العلماء بالكفر عند تحليله الاجتماع مع النساء بالخوان في القصر كما جعل الصراط وال أمره إلى ادعى أنه رأي المصطفى

و... ما فعلكم ليس صدرت منه هذه الأفعال مع أن في شريعتكم الاجتماع بالنساء مع الرجال ونظر الرجال لمن حرام بالاتفاق وإن الصراط الذي جعله سي الصادق لأعين الناس قد أخفاه الله لا محالة وأخبره على يوم القيامة وتأخيره لليوم المذكور دليل على أن العباد لم يستعملوه في هذه الدنيا. أيحس لسي الصادق أن يجعل نفسه في مرتبة الرب سبحانه بل إتباعا لشريعتكم ودينكم وباتفاق أئمة مذهبكم من صدرت منه هذه الأبواب مثل سي الصادق يقتل شرعا. وأما ما أحاط به من قطاع الطرق الذين جعل منهم كبراء حزبه مثل ابن البخاري وابن كريع فهم يدلونكم وأن سي الصادق يسعى في خرايكم حيث قرب الله من يقطع الطرق لنهب أموال الناس هذا كله ولم يظهر لكم كذب سي الصادق المذكور حين قال لكم أن الأعراس كلها والصحراء يقومون للجهاد وقد شاهدتم العكس وأن غزواتكم في طاعتنا تابعين صفوف عساكرنا في القديوم لهذا الكاذب. وقد أخبركم أن الملايكة يحاربون معكم وإن الأحجار والأرض ينصرونكم على الفرائسيص وأصحابه فإن كان ما أخبركم به حقا فسألوا بخاريكم ليعلموكم بما حرهم وما رأوه عند الهجوم عليهم. وكما أخبركم هذا الكاذب أن الفرائسيص لم يكن له عساكر وأنهم عالمون بما يأتي كل يوم من العساكر فحلتنا فأعلموا أن الدولة الفرائسية أظهرت لكل الناس إن لم يقدر أحد يعاندها وكل الأعراس الكائنين ببر الجزائر حتى لتفترت وسوف تحققوا سطوة سلاحنا والحال أنكم مقتكرون ما حل بالزعامة وغدعان القبائل القاطنين بخرجة طاعتنا في العلم الماضي وقبل استيلائنا على هذا البر لم يخدموا للدول الأسلفة قبلنا وعن كانت حنافة وشفقة للدولة الفرائسية على الناس فهذا دليل على قوتها لأن الغالب محله الضعيف محله الغدر ولعلوا الآن أن الدولة الفرائسية تغزو وتمش آملنا على كل من ندع صحيح لا محالة وإن الغدر بعيدا علينا فمن لم تفقه فيه

نصيحتنا منكم التي ينصح بها الأب ابنه ومن لم يقترعوا فيه ويتبع خبرا به عند إقامته مع المنافقين ما يلوم غلا نفسه ولا يلوم سي الصادق فيما يتزل على رأسه من المموم واما نحن نبقوا حينئذ سالمين من الذنوب قبل الله تعالى. حرر في 25 جمادى الأولى سنة 1275هـ.

الملحق رقم 03

رسالة ديفو إلى سكان واد سوف عام 1858م.

((من المعظم... ديفو... لكافة ناس واد سوف.. يليه إعلامكم به انه منذ خدم سوف واذعن لطاعة الدولة المنصورة الفرنسية نزلت عليكم النعمة الجميلة والعافية فانقطعت من بن دشركم الأفتان حيث كانت في ساير الأوان وانحلت لكم الأسواق لبيع تجارتكم كما صارت الحماية التامة والعافية العامة لقواقلكم في الطرق التي في حكمنا حتى أن القليلي منكم يجد الحماية المذكورة مع عدلنا إن احتاج إليه في أي موضع وجدتم أن بعض الاشرار تعدوا الحدود وهدموا هذه القوايد عندكم خدعهم في قتل الشيخ عونين سنان في ظلام الليل كما انفق وانقطع حاج حسن ولم يظهر لنا قتاله مع أن الشيخ عون المذكور أعلاه كان خديمنا () وابنا حقا ولعلموا أن الذين يخفون الاشياء مذل هذه الجرائم يصيرون لا محالة شركاء المجرمين مع جلبهم أيهم كثير الأحوال والأفتان غير ان الدولة الفرنسية لم تعاقب المحسنين في جرة المجرمين وحاشاها ان يصدر منها مثل هذا لأنها منية على دولة العدل أما ما صدر منكم أولا من القبايح فجعلنا العقوبة على أولاد أحمد يدفع عشرين ألف فرنك لنفقة أهل الشيخ عون ويجعل اللزمة عليهم في كل عام كما احلنا مدة عام لظهور قتال الحاج حسن وإن لم يتصلوا بأيدينا بعد تمام العام سنجعل خطية هائلة على ناس الواد ولا يخافكم أننا اخترنا خمسة عشرة رجلا من دشر مختلفة قد كان مرد فعل قبيح ولينتهوا بها نحن أخذناها معنا

على باتنة وينتوون هناك مراهقين على ان ينقطع ذكر المخرج من الوطن وبالواجب عليكم أن تعلموا ان العاقبة والإذعان لطاعتنا هما سبب ربحكم ونمو رزقكم وان العصيان لأوامرنا والفساد في وطننا يجلب لكم ما تكرهه الأنفس بالواجب عليكم أن تنصتوا لنصايح سي علي بن فرحات بن سعد الداودي لكونه عادلا وشجاعا وخديعا صادقا ونحن نعزه معزة تامة حيث لم يقض شيئا غلا بأمرنا ونهينا. والحال أنكم عالمون بمن وقعت عليه مضرة فليشكي لحاكم بسكرة وهو يوصله بحقه إن كان له حق ولابد منكم كبيرا او صغيرا ان تكونوا ببال من الشيخ عون لأن اهله صار الى ان تحت حماية الدولة الافرانسوية وأن ابنه محمد صار ابنا لنا كما نكون نحن ببال من أهل الحاج حسن. يا عجا الى ان منذ اربع سنين لم يصدر منا كلام اللوم لكم مثل هذه المرة لآكن عن شاء الله حين ناتيكم مرة أخرى لم يكن لنا شيئا مما يكلفنا بمعاقبة احدكم وحيث ننعم بالسراح على مراهينكم ونحسبكم إذ ذاك مثل ما حسبتم أولا ولابد تقرى هذه البرية ثم تعلق في كل دشرة ليعلم الكل منكم ما وقع وليتعرف كل واحد بالسيرة الحميدة لآكن إذا حصل لكم الشر في التي فما يصدر منكم من الفعايل الردية ما تلومون إلا انفسكم حيث نصحتكم عن لم تستمعوا للنصيحتي.

حرر في 25 رجب سنة 1274هـ.

الملحق رقم 04

مجلس بلدية الشعبة العسكرية لباتنة 1875-1868م.

في 20 نوفمبر 1868 كان أعضاء مجلس الشعبة العسكرية يتكون مما يلي:

1. باري لواء، قائد الشعبة العسكرية ورئيسا.
2. دويل نقيب، القائد الأعلى لدائرة بسكرة العسكرية (مستشار).
3. فان، رئيس الهندسة العسكرية.
4. باري، مقتصد عسكري بالنيابة.

5. دو مياش؛ رئيس المكتب العربي بالشعبة العسكرية.
6. سي إسماعيل بن مصولي علي قائد الحفنة دائرة باتنة.
7. سي بن هني قائد الصحارة (دائرة بسكرة).
8. سي بوضياف بن محمد قائد أولاد داوود (دائرة باتنة).
9. سي محمد الصغير بن قانة قائد الزيان (دائرة بسكرة).

الملحق رقم 05

مجلس الجماعة الخنشلة سنة 1903م.

جماعة دوار جبل شرشار، الرئيس القائد سي الأزهر بن أحمد بن ناصر و12
كبارا هم شيوخ القبائل:

1. دوار مشونش: الرئيس: الشيخ سي بوبكر بن موهوب بن شنوف و9
كبار (يعين الكاتب من بين هؤلاء الكبار).
2. دوار تاجموت: شيخ، رئيس و9 كبار.
- دوار كيمول: شيخ، رئيس، و14 كبار.
- دوار أولاش: شيخ، رئيس و14 كبار.
- دوار غسيرة: شيخ، رئيس و12 كبار.
- دوار مقادة: آغا، رئيس، و11 كبار.
3. دوار تامروت: آغا، رئيس و9 كبار.

الملحق رقم 06

نموذج من التنظيم الإداري لإقليم الجنوب الغربي الجزائري.

البند الأول: في انتظار النهائي للإقليم لا بد من إنشاء إدارة ملحقة للشؤون الأهلية ومتصلة بقائد ناحية الجزائر بالنسبة لمنطقة توات وإلى الناحية الوهرانية بالنسبة لمنطقتي زوزفانة ومنطقة الساورة

البند الثاني: إنشاء ملحقات في عين صالح وفي إيغلي تتضمن تعيين:

1. ضابط للشؤون الأهلية برتبة نقيب.

2. نائب برتبة نقيب أو ملازم.

3. مترجم.

4. حوجة.

5. كاتب.

البند الثالث: القادة (القياد) لإدارة شؤون الأهالي يعينون من طرف رئيس الملحق.

البند الرابع: يكلف جنرالات ناحية الجزائر ووهران بتنفيذ هذا القرار.
إمضاء الوالي العام "لافيار"

العروة الوثقى: صوت إسلامي في باريس.

الدكتور أحمد صاري

مقدمة:

في نهاية القرن التاسع عشر لاح في باريس نور إسلامي فأشع بنوره على المشرق والمغرب وكان له الأثر الكبير في العالم الإسلامي. هذا النور المنبعث هو إشعاع تلك الجريدة التي وإن لم تعمر طويلا، إلا أنها أحدثت في النفوس ثورة لم تحدثها صحيفة من قبلها ولا من بعدها، إنها جريدة العروة الوثقى. وتجربة هذه الجريدة تبين أن قيمة أية جريدة أو مجلة لا ترجع بالضرورة إلى طول الفترة التي عاشتها بقدر ما ترجع إلى قيمة المواضيع التي تنطرق إليها، وقيمة المشرفين عليها، إذ كثيرة هي الصحف التي تستمر لفترة طويلة دون أن تعرف انتشارا أو ترك أثرا، أو تحدث تغييرا. فقد تستمر في الصدور لفترة طويلة دون أن يسمع صوتها خارج حدود البلد التي تصدر به، وقليلة هي الصحف التي تعمر لفترة قصيرة جدا، ولكنها تحدث في النفوس ما لم تحدثه بمجهودات مصلح، وتتمكن من تغيير ما عجزت عن تغييره قوة المدافع أو شدة القوانين وقسوها.

وما لا شك فيه أن صحيفة العروة الوثقى التي صدرت لمدة ثمانية أشهر فقط، قد أحدثت أثرا كبيرا على مستقبل الشعوب العربية الإسلامية، وتركت بصماتها على معظم تلك الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار. ونظرا للأهمية التي تكتسيها والمكانة التي تبوأها هذه الصحيفة، والدور الخطير الذي لعبته في

التاريخ العربي — الإسلامي المعاصر، فقد طالعتنا مجلة المستقبل¹، منذ أكثر من عشر سنوات بخبر مفاده أن جماعة من العرب تعتزم إعادة إصدارها باللغتين العربية والإنجليزية بمدينة جنيف السويسرية، بدء من أول مارس 1981. ونحن لا نعرف هل تحقق مشروع هؤلاء أم لا؟ وفي حالة ما إذا تحقق فهل تستمر الجريدة فهل استمرت الجريدة في الصدور أم توقفت؟

على أية حال تبقى هذه مجرد تساؤلات عن المصير الذي آلت إليه الجريدة قى ثوبها الجديد. وحتى في حالة إحيائها فلا نعتقد إنها ستلقى نفس الصدى أو تؤدي نفس الدور الذي كان لسابقتها نظراً لمكانة الشخصيات التي كانت تحررها. فمن يا ترى بإمكانه أن يعوض جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده؟ زد على ذلك أن لكل فترة تاريخية ظروفها ومميزاتها الخاصة بها. فقد صدرت منذ ذلك الحين الكثير من الصحف في المهجر، لكنها لم تلقى الصدى الذي لقيته العروة الوثقى. وما دام أن تاريخ هذه الجريدة قد ارتبط ارتباطاً متيناً باسم مؤسسها السيد جمال الدين الأفغاني² والإمام محمد عبده، ولذلك فمن الضروري الرجوع قليلاً إلى الوراء لتعرف بإيجاز عن مسيرتهما قبل إصدارهما لهذه الجريدة.

1 المستقبل العربي، العدد 219، ماي 1981. وأنظر أيضاً مقال ليوسف إبراهيم يزبك في العدد 218، أبريل 1981، ص ص 66—67 "العروة الوثقى تعود إلى باريس: الإسلام حق والحرية حق والجهاد واجب مقدس".

2 لقد أثار البعض قضية أصل الأفغاني فحاولوا تأكيد أصله الفارسي وأنه كتم ذلك لأسباب عديدة، ونحن لا يهمنا هنا أصله بقدر ما يهمنا دوره في تأسيس العروة الوثقى موضوع مقالنا هذا. أنظر: جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني التعريف به وبمآثره. ألفه بالفارسية ابن أخيه ميرزا لطف الله خان الأسد آبادي. ترجمه وقدم له وعلق عليه د. عيد المنعم محمد حسنين، ط1. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973. 235 ص. =

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده:

ليس غرضنا هنا الترجمة لحياة كل من الثائر جمال الدين الأفغاني (1839-1897)¹ والمصلح محمد عبده (1849-1905)²، فهناك دراسات عديدة

=Homa Pakdaman, Djamel- El-Din Assad Abadi dit Afghani, G.P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1969.

1 ما زال الأفغاني يجلب إليه الانتباه، لذلك تعددت وتنوعت الدراسات المسطرة حول شخصيته. بالإضافة إلى المرجعين السابقين راجع: محمد عبده، الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باقة (الجزائر)، بدون تاريخ، ص ص. 08-31؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ط1، الجزء الثاني، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، 1903، ص ص70-84 محمد المحزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، مكتبة الحياة، بيروت، 1931؛ أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ط الأولى 1948)، موفم للنشر، الجزائر، 1990. ص ص. 75-154؛ عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني، "سلسلة أقرأ رقم 68"، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ؛ محمود أبو رية، جمال الدين الحسيني الأفغاني (1839-1897)، سلسلة نوايغ الفكر العربي (29)، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1971، 118 ص؛ قلعجي قدري، جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق، دار العلم للملايين، بيروت، 1959، 112 ص؛ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق محمد عمارة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968.

Elie Kedourie: «Nouvelle lumière sur Afghani et Abduh». In. Orient, pp. 37-57 et 83-106

؛ Henri Laoust, Les schismes en Islam, sned, Alger, 1965, pp. 339-345.

حول محمد عبده أنظر: جرجي زيدان، المصدر السابق، الجزء الأول، ط1، منشورات دار 2 مكتبة الحياة، بيروت، 1902، ص ص 380-391؛ محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ محمد عبده، ثلاثة أجزاء، مطبعة المنار، القاهرة، 1931؛ أحمد أمين، المرجع السابق، ص ص 357-429؛ سليمان دنيا، الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين، القاهرة، 158؛

وبلغات مختلفة تناولت مختلف جوانب حياتهما التي طبعت حركة التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهما أبرز من مثلا هذا الاتجاه الإصلاح¹. إلا أنه يبدو لنا من الضروري التعرف عن ظروف التقاءهما ومسيرهما فيما بعد، وهي الفترة التي مهدت لظهور جريدة العروة الوثقى.

كان أول لقاء لمحمد عبده بالأفغاني سنة 1871، إثر زيارة هذا الأخير لمصر قادما إليها من الأستانة التي خرج منها مضطرا بعد الحادثة التي وقعت له مع

عثمان أمين، رائد الفكر المصري محمد عبده، مكتبة الأنجلو-المصرية، 1965؛ الأعمال M. Abdou، الكاملة لمحمد عبده، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972، Rissalat al tawhid (exposé de la religion musulmane). Traduit par B. Michel et Mustapha Abderrazek, pp. 01-47 « La vie du cheikh Mohamed Abdou », Ed. Enag, Alger, 1989; H. Laoust, op. cit. pp. 339-345; E. Kedourie, art. cité

I حول تيار التجديد في هذه الفترة أنظر: أحمد أمين، المرجع السابق ؛ ستودارد لورثروب، حاضرم العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، المطبعة السلفية، القاهرة، 1925 ؛ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت، 1968 ؛ تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، تعريب عباس محمود، القاهرة، 1935 ؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798—1914)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1978 ؛ محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود العقاد، القاهرة، 1931.

H. Laoust, op. cit. pp. 321-381; Ali Merad: « Origines et voies du réformisme en Islam ». In. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales (Alger), tome XVIII, 1960-1961, pp. 359-399 . Id.: « Islah ». In. Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd. t. IV, 1978, pp. 146-170 ; Id., l'Islam Contemporain, coll. (Que sais-je?), Puf, Paris, 1984.

شيخ الإسلام هناك¹. وكان محمد عبده شديد الإعجاب بشخصية جمال الدين الأفغاني، نظراً لما سمع عنه. وازداد هذا الإعجاب أكثر في أول لقاء جمعهما. ويظهر ذلك جلياً من خلال شهادة محمد عبده حيث يقول: "فلما سمعت بحجيء السيد جمال الدين إلى مصر، دعوت الشيخ حسن الطويل (أستاذ محمد عبده) لزيارته معي. ذهبنا إليه في المساء، فألقيناه بتعشى. فسلمنا عليه وسلم علينا. ودعانا إلى الطعام. فاعتذرنا وشكرنا. وبعد أن تناول الطعام اتجه إلينا، وسألنا عن معنى بعض آيات من القرآن الكريم، وما قاله المفسرون والصوفية فيها فأثرنا أن نستمع إليه. فأخذ يفسرها أمامنا تفسيراً ملأ قلبي إعجاباً، وشغفتني به جداً، لأن التصوف والتفسير، هما "قرة عيني، ومفتاح السعادة"².

وبعصر التي بقي بها الأفغاني لمدة ثماني سنوات (1871-1879)، وهي أطول فترة يستقر فيها ببلد خارج أفغانستان، شجع تلاميذه ومن بينهم محمد عبده وسعد زغلول وآخرون على الكتابة ودفعهم إلى الاتصال بالصحف. وهناك من يعتقد أنه لما أحس الإنجليز بعرقلة لسياساتهم بمصر — وكانوا آنذاك يخططون للاستيلاء عليها — أوغروا صدر الخديوي توفيق خليفة إسماعيل باشا وأوغزوا إليه

1 في شهر رمضان من سنة 1287 هـ طلب مدير دار الفنون من السيد جمال الدين الأفغاني أن يلقي محاضرة بحث فيها على الصناعة. وفي كلامه شبه الأفغاني المعيشة الإنسانية ببدن حي، وذكر أن كل صناعة بمثابة عضو من ذلك البدن. وأضاف أن هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة. ومن هنا هاجمه شيخ الإسلام — حسن أفندي — متهما إياه بتشبيه النبوة بالصنعة، مبرهنًا على أنه ذكر ذلك في خطاب يتعلق بالصناعات، عندها أوعز إلى الرعايا بالمساجد بتنفيذ ما ذهب إليه الأفغاني، وعلى أثر هذه الزوبعة خرج الأفغاني من الأستانة مغضوباً عليه.

2 محمد عبده، الثائر الإسلامي ... ص ص 11-12.

بإخراج الأفغاني من مصر¹، وكان ذلك في سبتمبر سنة 1879. وأثناء فترة تواجده بالهند (1879-1882) توالى الأحداث على مصر، حيث تمكنت إنجلترا بعد القضاء على الثورة العربية من احتلالها. ولما كانت حكومة الهند البريطانية تخشى من تحركاته، فقد وضعته تحت الإقامة الجبرية إلى غاية نهاية سنة 1882 حيث سمحت له بمغادرة الهند إلى أوروبا. وأثناء مروره بمصر كتب من بور سعيد إلى صديقه محمد عبده، الذي كان منفيًا آنذاك من مصر إلى بيروت بعدما أقيم بالمشاركة في الثورة العربية.

بعد فترة قصيرة قضاها الأفغاني بلندن توجه إلى باريس في بداية 1883. وكان له هناك نشاط صحفي كبير، إذ كتب الكثير من المقالات في عدة صحف عربية وفرنسية، منها صحيفة أبو نضارة لصاحبها يعقوب صنوع² والبصر لصاحبها خليل غانم³. كما كتب في بعض الجرائد الفرنسية منها الجورنال دي ديبا (Journal des Débats) ولانترونزيجون (l'Intransigeant) لمديره هنري ريشفور (Henri Rochfort)*، وكتب أيضًا في مجلة باريس (Paris). وفي بداية إقامته بباريس دخل الأفغاني في نقاش مع الفيلسوف الفرنسي أرست رينان

1 E. G. Browne, The Persian révolution of 1905-1909, London University Press, 1910. cité dans Rissalat al-Tawhid, p. 26.

2 اتصل يعقوب صنوع بالأفغاني بعد بعيته إلى مصر. ويقال أنه هو الذي أوعز إليه بإصدار جريدة ساخرة هي أبو نضارة (مارس 1877) لانتقاد سياسة الخديوي إسماعيل، مما دفع هذا الأخير إلى نفيه. عندئذ اتجه إلى باريس وأعاد إصدار جريدته، راجع: فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913.

3 خليل غانم لبناني ماروني وعضو بجمعية "تركيا الفتاة". كان نائبًا عن بيروت، ونظرًا لمعارضته لنظام الحكم فقد توجه إلى باريس أين اشتغل في الصحافة، راجع ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص ص 264-265.

Ernest Renan¹ الذي كان قد ألقى ، في شهر مارس 1883، محاضرة حول "الإسلام والعلم" ونشرت بعد ذلك في الجورنال دي ديا (30 مارس 1883). وملخص هذه المحاضرة أن الكثير من العلوم التي تنسب إلى العرب أصحابها ليسوا بعرب، فهم إما فرس أو روم أو من أجناس أخرى. وفي رأيه أيضا أن الإسلام لا يشجع على العلم والبحث وإنما هو عائق أمام كل من يسعى إلى التوسع في هذا المجال، ولذلك فهضة البلدان الإسلامية لن تكون بإتباع الإسلام وإنما بالابتعاد عنه. وكان رد الأفغاني باللغة الفرنسية، وفي نفس الجريدة في يوم 18 ماي 1883. وهو رد في غاية الاعتدال، عكس ما يؤكده بعض الباحثين العرب الذين أكدوا بأن الأفغاني قد فند في رده مزاعم رينان. وهذا يعود بدون شك أما إلى عدم إطلاعهم على هذا الرد أو التسرع في الحكم، أو لنقل الواحد عن الآخر دون تمحيص. فالأفغاني لم يعترض على المفكر رينان إلا في وصفه للإسلام بهذه الصفة دون الأديان الأخرى، مع العلم أنها كلها معادية للعلم حسب رأيه. وهذا مما أدى ببعض الباحثين المسلمين² إلى التشكيك في صحة هذا المقال متهمين رينان

1 أرنست رينان (Ernest Renan 1823—1892) مفكر فرنسي اهتم في بداية حياته بالدراسات الدينية ثم تحول عنها إلى دراسة اللغات السامية وتاريخ الأديان. تحصل على الدكتوراه عام 1852 حول موضوع ابن رشد والرشدية (نقله إلى العربية عادل زعير، القاهرة، 1957). وفي سنة 1862 أصبح أستاذا بالكوليج دو فرانس (Collège de France). من أهم مؤلفاته: مستقبل العلم (189)، تاريخ أصول المسيحية: عدة أجزاء (1863—1881)، وتاريخ شعب إسرائيل.

2 من بين هؤلاء محمد حميد الله في مقال له تحت عنوان: « Ernest Renan and Jamal al-Dine al Afghani ». In. Islamic Reviewm, fax. 5-6, mai-juin, 1958, pp.33-35.

بالتزوير، خاصة وأنه صاحب سوابق في هذا الميدان¹. ومبرر هؤلاء المعارضين يتمثل في عدم عثورهم على النص الأصلي لرد الأفغاني الذي يكون قد كتبه باللغة العربية ثم تُرجم إلى الفرنسية، لكون الأفغاني لم يكن يحسن اللغة الفرنسية بصفة جيدة تسمح له بكتابة مقال كهذا. أما المبرر الثاني، في رأيهم، فهو كيف لمسلم متدين ومتحمس للإسلام مثل الأفغاني التصريح بمثل هذا الكلام، خاصة وهو الذي هاجم السيد أحمد خان² عندما افترط في استعمال العقل في المسائل الدينية.

1 في محاضرة له حول "الإسلام والعلم" حاول رينان أن يبين معارضة الإسلام للعلم، وذكر كبرهان على ذلك وثيقة أرسلها قاضي الموصل (العراق) إلى الجنرال أوستان ليار (Austin Layard). وفيها يرفض القاضي سحب رينان — تقدم معلومات له حول الحالة العامة والديمقراطية والتجارية للمدينة معللا ذلك بدعوى عدم جدواها، وأنها مضرّة بالدين، ناصحا إياه بالابتعاد عن هذه الأمور. غير أن الشاعر التركي نامق كمال قد فند ادعاءات رينان وشكك في صحة هذه الرسالة؛ وذهب في نفس الاتجاه لويس ماسينيون مؤكدا بأن رينان قد يكون هو كاتب تلك الرسالة التي استشهد بها. حول هذا انظر

Louis Massignon: « La lettre du Cadi de Mossoul a Layard, critique par Namek-Kemal d'une source citée par Renan ». In. Revue des Etudes Islamiques, vol. I, Cahier 11, 1927, pp. 297-301.

2 السيد أحمد خان (1817—1898) من رواد الإصلاح في شبه القارة الهندية ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر. من أهم منجزاته جامعة عليكرة (1878). كان يطمح إلى تفسير القرآن بما يتوافق مع العقل والوقت الحاضر. للمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية أنظر: أحمد أمين، المرجع السابق، ص ص 155—177؛ جرجي زيدان، المصدر السابق، ج 2 ص ص 84—93

H. Laoust, op. cit. pp. 359-361; CH. w. Troll: « Sayyid Ahmed Khan (1817-1898) et le renouveau de la théologie musulmane au XIX siècle ». In. Ibla (Tunis), n°138, 1976, pp. 205-241.

على أية حال بعد عام من وجوده بباريس كتب الأفغاني إلى محمد عبده يطلب منه الالتحاق به. وقد استجاب هذا الأخير، حسب البعض، لهذا النداء بسرعة كبيرة، خاصة وأن هذه الفرصة ستمكنه من التعرف على أوروبا التي تأثر بمبادئها منذ شبابه، إذ كان كثيراً ما يستشهد بها في محاضراته¹. وبذلك التقى الصديقين من جديد بباريس في بداية سنة 1884² وكان لهما الإنجاز الكبير، وهو إصدار جريدة العروة الوثقى التي عرفت شهرة واسعة ورواجاً كبيراً في العالم العربي — الإسلامي.

ثانياً: تأسيس العروة الوثقى:

في بداية سنة 1884 تمكن كل من الأفغاني وعبده من تأسيس الجريدة العربية العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الأول منها في 13 مارس. ويجدر بنا أن نتساءل هنا عن الأسباب التي دفعت بالأفغاني إلى اختيار العاصمة الفرنسية لتجسيد هذا المشروع وعن عدم عرقلة السلطات الفرنسية له، ثم عن علاقة الأفغاني وعبده بهذه السلطات. ثم نتساءل بعد ذلك عن الطرق التي كانت تتول بها هذه الجريدة. في اعتقادنا أن اختيار باريس مكاناً لإصدار العروة الوثقى يرجع إلى عدة أسباب منها أولاً طبيعة العلاقات التي كانت تربط الأفغاني بكل من فرنسا وبريطانيا وإلى التنافس الاستعماري ما بينهما على مناطق النفوذ في البلدان العربية التي كانت خاضعة للنفوذ العثماني³. فقد احتلت فرنسا تونس سنة 1881

1 Rissalat al-Tawhid, op. cit. p. 34.

2 Ibid., p. 34.

3 لقد كانت فرنسا تطمح هي الأخرى في أن يكون لها مكاناً لانفصام مصر، وذلك منذ فتح قناة السويس بواسطة الفرنسي دي ليسبس (1869). ولذلك احتدم الصراع بينها وبين إنجلترا. وبالرغم من احتلالها لتونس (1881) إلا أنها عارضت احتلال إنجلترا =

ولم نسمع مثلاً احتجاج الأفغاني ومحمد عبده، سواء أثناء الاحتلال أو بعده، بالرغم من أن كلمتهما كانت مسموعة آنذاك. في حين أنهما كانا كثيرًا الانتقاد سواء للتدخل الإنجليزي في شئون مصر أو لاحتلالها فيما بعد، كما كانا معارضين بصفة عامة للسياسة الاستعمارية الإنجليزية. ثم أن مصلحة هاتين الدولتين من جهة أخرى وسعيهما لبسط نفوذهما بأقل ثمن كانت تتطلب البحث عن شخصيات لها نفوذ وتأثير على الرأي العام. وقد وجدت فرنسا في صمت الأفغاني وعبده عن سياستها الاستعمارية وسيلتها في ذلك، وقد جاءت مقالات العروة الوثقى لتؤكد هذا الاتجاه. لكل هذه الأسباب يبدو أن فرنسا لم تعرقل إصدار هذه الجريدة وسهلت بالعكس من ذلك من مهمة الأفغاني وعبده.

أما السبب الثاني فيرجع في رأينا إلى الموقع الجغرافي والوزن الثقافي لباريس. فهذه العاصمة بحكم موقعها وسط أوروبا وإطلالها على الشرق والغرب وسهولة الاتصال بينها وبين جيرانها، كل هذا يكون قد دفع الأفغاني إلى اختيارها لإصدار هذه الجريدة. بالإضافة إلى ذلك أنه بعد خروج الأفغاني من مصر، التي كان بإمكانها، لو توفرت بعض الشروط، أن تكون منطلقاً لنشر أفكاره، لم يجد بلداً مناسباً لنشر دعوته. فالهند يتحكم فيها الإنجليز والآستانة لا تسمح ظروفها بالتعبير الحر، أما بقية البلدان الإسلامية فإما أنها كانت مستبدة الحكم أو واقعة تحت السيطرة الاستعمارية. بقي احتمال اختيار العاصمة الإنجليزية لتحقيق مشروعه، غير أن علاقاته مع الإنجليز أخذت في التدهور أكثر فأكثر، خاصة بعد

= لمصر (1882)، وبقيت على ذلك حتى سنة 1904 حيث تم عقد معاهدة ما بين الطرفين تتخلى إنجلترا بموجبها عن معارضتها لاستيلاء فرنسا على المغرب الأقصى مقابل اعتراف فرنسا بحق إنجلترا في مصر. راجع في هذا الصدد محمد خير فارس، المسألة المغربية (1900—1912)، معهد الدراسات العربية، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1961.

استيلاءهم على مصر. لذلك فلم يكن ممكناً أن يقبل الأفغاني بإصدار جريدته في لندن مقابل السكوت عن سياسة الإنجليز الاستعمارية. كما أن الإنجليز لن يسمحوا له بتحقيق مشروع يتعارض مع أهدافهم الاستعمارية.

أما العامل الثقافي فيمكن إجماله في أن باريس كانت تتبوأ في نهاية القرن التاسع عشر مكانة ثقافية بارزة في أوروبا. ذلك أنها كانت ملتقى للمناقشات العلمية والفلسفية والأدبية، وبرز بها خلال تلك الفترة مثقفون كانت لهم شهرة علمية كبيرة مثل فيكتور هيجو (1802-1885) وإيميل زولا (1840-1902) وارنست رينان وغيرهم.

بقي أن نتساءل عن الغرض من إصدار العروة الوثقى. حسب ما جاء في افتتاحية العدد الأول من هذه الجريدة¹ أن البعض من جماعة المسلمين (؟) رأت بعد ما حل بالبلدان الإسلامية من استعمار ضرورة توحيد الكلمة للنظر في شؤون المسلمين والتعريف بأفكارهم في مختلف أنحاء البلدان الإسلامية والتعاون مع الأوربيين الذين ينشدون العدالة "فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشرهم وتذهب مذهبهم". وفي وقت لاحق يكشف محمد عبده² عن الجهة التي كانت وراء مشروع إصدار هذه الجريدة فيقول: "ولما كلفته (الأفغاني) جمعية العروة الوثقى أن ينشأ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية أيدها الله، سألتني أن أقوم على تحريرها، فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً".

1 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ص ص 46-47. وسيكون اعتمادنا طوال هذا البحث على هذه الطبعة.

2 محمد عبده، الفائز الإسلامي ... ص 27.

بالرغم من هذا التوضيح الذي قدمه عبده، إلا أن أسئلة عديدة أخرى تبقى مطروحة حول جمعية العروة الوثقى "السرية" هذه. فما زال الغموض يكتنفها ويحوم حولها. خاصة وأن هذه الجمعية هي التي كانت تتولى تمويل الجريدة، هذا إذا أخذنا طبعاً برأي بعض المعاصرين والمؤرخين. فتلميذ الإمام محمد عبده، مصطفى عبد الرزاق يذكر في مقدمته للعروة الوثقى¹ انه: "كانت تتولى الإنفاق عليها جمعية اسمها جمعية العروة الوثقى ذات فروع في الهند ومصر وغيرها من أقطار الشرق الإسلامي". ومن جهته يذكر أحمد أمين² كيفية التبرع لجمعية العروة الوثقى فيقول انه في آخر كل اجتماع لفروع هذه الجمعية التي كانت منتشرة في جميع "الأقطار الإسلامية" "يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كل ما تيسر خفية، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر. ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها بالجمان". ولم تقنع هذه الإجابة أحد الباحثين وهي هوما بكدمان Homa Pakdaman في كتابها جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني، واعتقدت بأن هناك أيادي خفية كانت تمول هذه الجريدة، من أجل تحقيق بعض مصالحها الشخصية. ومن بين هؤلاء الحديوي إسماعيل الذي كان يطمح في الرجوع على عرش مصر بعد عزله من طرف السلطان العثماني³. وحتى إذا ما سلمنا بأن جمعية العروة الوثقى هي التي كانت تمول جريدة العروة الوثقى والمشرفين عليها، فأمر هذه الجمعية في حد ذاته يدعو إلى التساؤل. فهل تكون قد

1 العروة الوثقى، 24.

2 المرجع السابق، ص 103-104.

3 Cf. Homa Pakdaman, op. cit. pp. 96-100.

تأسست قبل قدوم الأفغاني إلى باريس أو بعد ذلك؟ وإذا كانت قد تأسست قبل سنة 1883 فأين ومن طرف من؟

من خلال مطالعتنا لافتتاحية العروة الوثقى¹ نفهم أن جمعية العروة الوثقى أسست قبل قدوم الأفغاني إلى أوزبا. في حين يرى البعض الآخر² أن مهمة الأفغاني وعنده في باريس كانت تتمثل في إنشاء هذه الجمعية. ويرى باحث آخر³ أن هذين المصلحين كان يتمثل في تنظيم عمل هذه الجمعية السرية وتأسيس الجريدة التي تحمل نفس الاسم.

على أية حال بعد أن قُيأت الظروف للأفغاني وعنده اصدر أول عدد للعروة الوثقى بتاريخ 05 جمادى الأولى سنة 1301 هـ الموافق لـ 13 مارس 1884. وكانت تتولى طباعة الجريدة المطبعة التي تقع في 26 شارع مارتل، والتي تُصدر أيضا جريدة البصير لخليل غانم. وعن إدارة العروة الوثقى، فهي حسب أحمد أمين⁴: "غرفة صغيرة في سطح منزل في باريس، وهي مكان التحرير وملتقى الأتباع ومجمع الأفكار". والكاتب لم يذكر هنا مكان تواجد هذه الإدارة. وفيما يتعلق بتسمية الجريدة بالعروة الوثقى فهذه التسمية مأخوذة من القرآن الكريم. فقد جاءت هاتان الكلمتان في سورة البقرة الآية 256 "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم". فالقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى التمسك بالإيمان المشبه بالعروة الوثقى، وهو أقوى رابطة تجمع بين المسلمين. ولذلك

1 العروة الوثقى، ص 46.

2 Rissalat al-Tawhid, p. 34.

3 Ali Merad: « L'enseignement politique de Muhammed Abduh aux Algériens (1903) ». In. Orient, n° 28, 4 trim. 1963, p. 84.

4 المرجع السابق، ص 38.

فعلينهم أن يشدوا بهذا الرباط الصلب للنجاح في الدنيا والآخرة¹. وهذا ليس بالشيء الغريب عند الأفغاني وعبد الله اللذان كانا يسعىان إلى ربط الشعوب والأمم الإسلامية برباط الوحدة وهو رباط الجامعة الإسلامية.

ثالثا: أهداف العروة الوثقى:

لقد كشفت الجريدة عن أهدافها في افتتاحية عددها الأول، فبعد تطرقها إلى الأوضاع التي أصبحت عليها البلدان الإسلامية، مبينة أسباب تخلفها والظلم الذي لحق بها، وما نتج عن ذلك من استعمار وتشتت، أوضحت الغرض من صدورها فيما يلي:

أولاً: تنبيه الشرقيين إلى واجباتهم التي تغلوا عنها، وكانت سبباً في تخلفهم وسقوطهم في أيدي أعدائهم، وإرشادهم إلى الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فاتهم في الماضي، وتجنب ما قد يحل بهم في المستقبل. ويستلزم ذلك البحث في الأسباب والعلل التي أوصلتهم إلى ما هم عليه.

ثانياً: الكشف عن الأوهام التي أخذت بعقولهم والتي زرعت فيهم داء اليأس والخمول، ودفعهم إلى التمسك بالأمل في النجاح بعد أن يمسوا من المستقبل.

1 جاء في تفسير الطبري " فقد استمسك بالعروة الوثقى " فقد عسك واعتمس بالإيمان، الذي هو أوثق ما تمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه: " لا انفصام لها " لا انكسار لها ولا انقطاع (مختصر تفسير الطبري، ط2، مكتبة رحاب، الجزائر، 1987، ص 82، راجع أيضاً القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الثالث، المجلد الثاني، ص 47-48).

ثالثاً: للوصول إلى منزلة من القوة والعظمة فلا بد من التمسك بالأصول التي كان عليها الآباء والأجداد. وهي المبادئ التي تمسكت بها أقوى الدول الأوربية ذات الجاه والهيبة. وعلى الإنسان الشرقي أن يسلك مسلك هذه الدول.

رابعاً: تقوم الجريدة برد التهم التي توجه للمسلمين والشرقيين عموماً ورد المزاعم التي مفادها أن سبب تخلفهم يعود إلى تمسكهم بأصولهم، وأهم لن يتقدموا ما لم يتخلوا عن هذه الأصول من دين وتاريخ... الخ.

خامساً: والجريدة تريد أيضاً أن تكون إخبارية، فتعمل على إيصال الأخبار التي تهم الشرقيين وإفادتهم أيضاً بما يتداول من أخبار في شأنهم.

سادساً: تقوم الجريدة بربط الصلات وتقويتها بين الأمم الإسلامية وتقوية المحبة بين أفرادها، وتأييد السياسة العادلة للدول اتجاه الشرقيين¹.

وإذا كانت هذه هي أهداف العروة الوثقى فإن أغلب مقالاتها جاءت لتفضح الإنجليز وتدعو الشعوب الإسلامية إلى الثورة عليهم. ولذلك فمن الخطأ الاعتقاد بأن العروة الوثقى "حاربت الاستعمار بجميع أشكاله" كما يبدو لبعض غير المطلعين على مقالاتها، أو الذين يحلو لهم التعميم². كما أنها لم تحارب "الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله" كما يؤكد على ذلك أحمد أمين³. إن العروة الوثقى لم تول أي اهتمام للجزائر وتونس مثلاً اللتان كانتا ترضخان للاستعمار الفرنسي؛ الأولى منذ سنة 1830 والثانية منذ 1881. فالمتمعن في مواضيع الجريدة يلاحظ أنها تتفادى الخوض في مواضيع المستعمرات الفرنسية. فهي لم تشر لهذه

1 العروة الوثقى، ص ص 47-48.

2 أنظر مثلاً محمد عبد الرحيم الزيتي: "جمال الدين الأفغاني، رائد التنوير". الموافقات، العدد الثاني، 1993، ص 98.

3 المرجع السابق، ص 388.

المستعمرات إلا مرة واحدة، وذلك في مقال تحت عنوان "الفرنسيون في التونكين"¹ لتخبر قراءها بانتصار الفرنسيين على الصينيين واحتلالهم لهذه المنطقة التي تشكل مع منطقتي الانام والكوشنشين ما يعرف اليوم بالفييتنام. وتبين اللامبالاة هذه أكثر من خلال المواضيع التي تناولتها الجريدة. وهذا التوجه مقصود من طرف المشرفين عليها وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقا.

رابعا: مواضيع العروة الوثقى:

يمكن أن نقسم مواضيع الجريدة إلى قسمين، قسم الأخبار وقسم المقالات. فالقسم الأول مواضيعه قصيرة، مقارنة مع قسم المقالات، ولكنها كثيرة أيضا، وهي لا تكاد تخرج عن موضوع السياسة البريطانية في الشرق، ذلك أن اغلب الأخبار تدور حول "علاقة الإنجليز بمصر" و"علاقتهم بالهند والسودان". أما قسم المقالات فقد تطرقت مواضيعه إلى مختلف المحاور "الفضائل والردائل، الشرف، التعصب ... ولكنها ركزت أيضا على بعض المسائل كـ"تحالف المسلمين وعلاج ذلك" والوحدة الإسلامية". وقد شغل موضوع تحالف الشعوب الإسلامية حيزا كبيرا من اهتمام الأفعاني وعبدته. وإذا كان هذا الموضوع قد استحوذ على اهتمام الصحافة العربية ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أنه برز بصفة أكثر في العروة الوثقى. وفي هذا يقول علي مراد²: "لقد كانت مسألة تحالف الشعوب الإسلامية بالنسبة لأوروبا (ولأمريكا) حاضرة بكثرة في الصحافة الإصلاحية لنهاية القرن التاسع عشر وبشكل عام في المنشورات المتبنية للأفكار الحديثة، وكان هذا من المواضيع الدائمة للمجريدة العربية العروة الوثقى". وقد

1 العروة الوثقى، ص 229.

2 L'Islam contemporain, p. 33. cf. également chap: IV, pp.33-34 « Le thème du retard islamique ».

امتازت مواضيع الجريدة بالحرارة والثورية على تخلف الأمم الإسلامية وجهل شعوبها واستبداد حكامها واستحواذ الاستعمار وسيطرته عليها. فقد اختلفت عن الصحف العربية الأخرى في لهجتها، ويعود سبب ذلك إلى مزاج جمال الدين الأفغاني وطبيعته الثورية التي أعطت هذا الحماس للجريدة.

وقد طغت شخصية الأفغاني الذي كان مديراً سياسياً على خط سير الجريدة وحتى على شخصية محمد عبده المحرر الرئيسي. ذلك أن المتتبع لكتابات محمد عبده في صحيفة الوقائع المصرية، وحتى في الصحف الأخرى، سواء قبل تجربته في باريس أو بعدها، وكتاباته في العروة الوثقى يلاحظ الفرق الكبير بينهما. ويرجع ذلك إلى التأثير الكبير الذي أحدثه الأفغاني على عبده. ويرى أحمد أمين¹ ذلك فيقول: "ثم أننا نلاحظ أن "الشيخ" متى اتصل بالأستاذ فنار من ناره وناثر من ثوراته، وعاطفي من حرارة وجدانه، فإذا انفصل عنه عاد إلى حكم العقل والمنطق وزالت ثورته وخفت حدته". وإلى جانب الأفغاني وعبده وهما المحرران الرئيسيان للعروة الوثقى كان لهما بعض المساعدين منهم ميرزا محمد باقر²، الذي كان حسب أحمد أمين³ يعرب للعروة الوثقى من الصحف الأجنبية ما يهيم الشرق، وإبراهيم المويلحي⁴ وأنيس شاهدي اللذان تذكرهما هوما بكدمان¹.

1 المرجع السابق، ص 388—389.

2 ميرزا محمد باقر صوفي إيراني تأثر بتعاليم الأفغاني. وبالرغم من عدم استقراره على دين معين إلا أنه رجع في الأخير إلى الدين الإسلامي.

3 نفس المرجع، ص 103.

4 إبراهيم المويلحي (1846—1906) صحفي وكاتب مصري أصدر صحيفة نزهة الأفكار. ولما كان هو الكاتب الخاص للحدادي إسماعيل فقد لحق به بعد عزله عن العرش وأستقر معه بإيطاليا، وهناك أصدر جريدة الخلافة (1879) باللغتين العربية والتركية لمهاجمة السلطان =

خامسا: أثر العروة الوثقى:

على الرغم من قصر عمر العروة الوثقى، حيث أنها لم تعمر سوى ثمانية أشهر، إلا أن أثرها كان كبيرا على العالم الإسلامي. فقد كان لها دورا كبيرا على ظهور وتطور الحركات السياسية والدينية فيما بعد. ذلك أن الكثير من الحركات الوطنية بالشرق والمغرب وحتى باخند قد تأثرت بأفكارها في مقاومتها للاستعمار أو في دعوتها لتوحيد المسلمين وتحديد الفكر الديني. وهي وإن لم تحقق أهدافها، كما كان يريد لها الأفغاني، وهي التمرد والثورة على الإنجليز والحكام المسلمين المستبدين وتحقيق الوحدة الإسلامية، إلا أنها حققت الهدف الأول رويدا رويدا. فلم تتحرر الشعوب الإسلامية من الإنجليز — فحسب — بل تحررت من بقية المستعمرين من فرنسيين وإيطاليين وهولنديين.

ويجمع أغلب من اهتموا بالعروة الوثقى على أنها أحدثت ثورة لم تحدثها جريدة قبلها ولا بعدها. فيرى كارل بروكلمان² أن هذه الجريدة " كانت عظيمة الأثر إلى أبعد الحدود". ويرى محررها محمد عبده³ " أنها أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذها قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة المقصد في تحريرها". ونضيف هنا مع

عبد الحميد الثاني، وذلك بإيعاز من الخديوي المخلوع إسماعيل. غير أنه تقرب فيما بعد من السلطان عبد الحميد وأصبح من مادحيه. راجع ترجمته في كتاب جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، الجزء الثاني، ص 137-144.

1 H. Pakdaman, op. cit, p. 96-97.

2 كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1974، ص 618.

3 محمد عبده، التأثير الإسلامي... ص 27.

الشيخ محمد عبده أن من الأسباب الأخرى لنجاح العروة الوثقى هو سمعة القائمين عليها. فيمكن أن نقول أنه لولا وجود الأفغاني وعبده على رأسها لما عرفت النجاح الكبير الذي عرفته. كيف لا وهما كان يمثلان في ذلك الوقت التيار الإصلاحى احسن تمثيل. حتى أن شهرتهما تعدت حدود العالم الإسلامى. أما أحمد أمين¹ فيقول عن الجريدة: "ماتت جريدة العروة الوثقى، ولكن لم تمت أثرها، فقد أحييت روح كثير من المتورين في العالم الشرقي، وأيقظتهم من سباتهم وبصّرهم بسوء حالهم مع الاحتلال ... فإن قلنا أنها أول شراره في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي لم نبعد". وتحليل علمي أكثر دقة وموضوعية يرى الباحث والأستاذ علي مراد²، الذي أولى اهتماما كبيرا للحركات الإصلاحية³ "أن هذه الجريدة المستوحاة مبادئها من الجامعة الإسلامية والمعادية للإمبريالية قد شكلت فترة هامة في تاريخ الفكر الإسلامى الحديث".

وتتجلى أهمية العروة الوثقى أيضا في الاهتمام الذي يوليه لها الكتاب في معرض حديثهم، وفي إعادة طبعها عدة مرات⁴. ويتضح تأثيرها كذلك من خلال توزيعها آنذاك على العالم الإسلامى، وإن كان هناك اختلال فيما كان يوزع من

1 المرجع السابق، ص 120.

2 L'Islam contemporain, p. 34 (note n°1)

3 مع العلم أن لهذا الباحث مؤلفات ومقالات عديدة حول الإصلاح والحركات الإصلاحية في الإسلام. إضافة إلى ما ذكرنا له من أعمال أنظر أيضا

Le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. Ed. Mouton, Paris-La Haye, 1967, 472 p.; Ibn Badis Commentateur du Coran, P. Geuthner, Paris, 1971, 267p.

4 منذ طبعها الأولى سنة 1910 ببيروت، عرفت العروة الوثقى طبعات أخرى ط2، مصر 1958، ط3، بيروت 1983.

نسخ بمصر مثلاً وبقية الأقطار. ومع ذلك فهي تصل تقريباً إلى كل البلدان الإسلامية. وحسب بعض الإحصاءات فإن أعداد الجريدة كانت توزع كالتالي: مصر (501)، بيروت (114)، دمشق (20)، شمال إفريقيا (20)، طرابلس الغرب (11)، بغداد (07)، مكة (05). كما كانت توزع نسخ أخرى بالباب العالي (الآستانة)، وبالهند وإيران. ويبلغ عدد قراءها ما يقارب 900 قارئاً¹. وعلى الرغم من الصعوبات التي تعيق الباحث في تحديد مجال انتشار العروة الوثقى نظراً للحصار الذي كان مضروباً عليها، وصعوبة تحديد العدد الإجمالي لقرائها والقنوات الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء القراء، إلا أننا نستطيع أن نؤكد على أن عدد قراء الجريدة يفوق بكثير العدد المذكور آنفاً. فالشيء المعروف — حتى الآن — هو أن النسخة الواحدة من جريدة معينة يقرأها أكثر من قارئ واحد، هذا في عصر كثرت فيه الجرائد وتنوعت وسائل الإعلام الأخرى، فما بالك بذلك العصر — أي نهاية القرن التاسع عشر —. فلذلك لا نبالغ إذا قلنا أنه بإمكاننا مضاعفة عدد 900 قارئ عشر مرات على الأقل إن لم نقل أكثر للوصول إلى الرقم الحقيقي لعدد قراء الجريدة. هذا دون أن ننسى أن أعداداً أخرى من العروة الوثقى كانت توزع على الجاليات الإسلامية في أوروبا.

سادساً: توقف العروة الوثقى:

كان للهجوم الخطير الذي شنته العروة الوثقى على السياسة الاستعمارية البريطانية قد لقي صدى له في مستعمراتها، ولذلك رأى ساسة هذا البلد ضرورة التفاهم مع الساهرين عليها. من أجل ذلك سافر محمد عبده إلى لندن وتباحث مع المسؤولين الإنجليز حول علاقتهما وعن مسألتني مصر والسودان، إلا أن هذه

¹ H. Pakdaman, op. cit. p. 101.

للمباحثات لم تفض إلى نتيجة. وعندئذ بذل الإنجليز كل جهودهم للحد من انتشار هذه الجريدة. بمساعرتهم بمصر والهند. فالإنجليز الذين كانوا وراء إبعاد الأفغاني من مصر (1879) والتضييق عليه في الهند، لم يرتاحوا للهجة العروة الوثقى ولا للموضوعات التي كانت تناقشها، والتي كانت أغلبها موجهة ضد سياستهم الاستعمارية. ولذلك ضيقوا عليها الخناق وضربوا عليها حصارا في كل من مصر والهند. فقد ذكر محمد عبده¹ في هذا الصدد الموانع التي اعترضت إصدار الجريدة، بحيث منعت من الوصول إلى الهند، وتم التضييق على من تصلهم. ومما يؤيد وجهة النظر هذه ما جاء في إحدى مقالات العروة الوثقى فتحت عنوان: "منع العروة الوثقى في مصر والهند وفرض غرامة على قراءها"². انه "انعقد مجلس الوزراء المصري في القاهرة، واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية، قاضيا عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية، وتراقب جولاتها في تلك الديار. فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها". إضافة إلى تشديد الخناق على العروة الوثقى من قبل الإنجليز فقد لاقى الجريدة صعوبات مالية خانقة ساهمت هي الأخرى في توقفها. ذلك أن الجريدة لم تكن لها مداخيل مالية قارة من مبيعاتها لأنها كانت توزع مجانا، وهذا حسب ما جاء في افتتاحيتها: "وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانا بذون مقابل ليتداولها الأمير والحقير، والغني والفقير، ومن لم

1 الثائر الإسلامي... ص 27.

2 العروة الوثقى، ص 321.

يصل إلينا اسمه، فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة...¹. ويضيف علي مراد² عامل ثالث قد يكون هو الآخر قد تسبب في توقف العروة الوثقى. فهو لا يفسر توقفها بالضغوط الإنجليزية ولا بالصعوبات المالية فقط، بل يفسرها أيضا باختلاف المزاج ما بين الأفغاني وعبد، وباختلاف نظرتهم للإصلاح³. ذلك أن محمد عبده المسالم والمتأثر بالتعاليم الصوفية قد انقاد وراء الأفغاني نتيجة لما لاقاه من المسئولين المصريين من مهانة بعد فشل الثورة العربية، وهو الشيء الذي دفعه أيضا للمشاركة في إنشاء العروة الوثقى وتحرير مقالاتها الشديدة اللهجة على الإنجليز ومحميهم من المسئولين المصريين. غير أنه بمرور الوقت تبين له عقم هذه السياسة وفشلها وضرورة العودة إلى التدرج في الإصلاح، وهو المبدأ الذي آمن به طوال حياته. ولذلك فهذا العامل قد ساهم في توقف العروة الوثقى ودفع محمد عبده إلى الانفصال عن أستاذه الأفغاني. وتبين ذلك من خلال مسيرة عبده فيما بعد، إذ أنه بمجرد توقف الجريدة عن الصدور في 16 أكتوبر 1884 عاد إلى بيروت أين عين أستاذا بالمدرسة السلطانية، وتوجهت جهوده في هذه الفترة (1885-1888) إلى التعليم والتأليف، فبدأ بجمع المادة لكتابه رسالة التوحيد (1897) وشرح لتلاميذه نهج البلاغة وأخذ بتفسير القرآن الكريم، وعندما سمحت له السلطات المصرية بالعودة إلى مصر رجع إليها وتقلد مناصب عليا عديدة أهمها مفتي الديار المصرية (1899). وبقي في هذا المنصب إلى أن وافته المنية سنة

1 المرجع نفسه، ص 48.

2 « L'enseignement politique ... », art. cité, pp. 86-89.

3 أنظر محمد طهاري، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب - الدار التونسية للنشر، الجزائر، 1984، ص 177.

1905. أما السيد جمال الدين الأفغاني فقد بقي بأوروبا متجولاً بين باريس ولندن حتى سنة 1885، ثم سافر إلى فارس وروسيا (1885-1889) ومنها إلى عاد إلى لندن أين حرب الصحافة مرة ثانية بمساهمته في إصدار جريدة تحمل اسم ضياء الحافقين، تصدر باللغتين العربية والإنجليزية، ثم كانت محطته الأخيرة بالآستانة (1891-1897) أين قضى بها آخر أيام حياته.

خاتمة.

إن الكلام اليوم عن العروة الوثقى ليس مجرد التنويه بمآثرها وبما تركته من أثر على مستقبل الشعوب الإسلامية فحسب ، بل لأنها تذكرنا بواقعنا الأليم. فالبلدان الإسلامية وإن كانت قد تخلصت من الاستعمار وقيوده، وهي إحدى الأهداف التي كانت تصبو إليها جريدة العروة الوثقى، إلى أنها لم تحقق أهدافها الأخرى المتمثلة أساساً في إخراج الأمة الإسلامية من التخلف الذي تعاني منه منذ قرون، والانقسام الحاصل فيما بينها، والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى الدخول في صراع بين دولة وأخرى. أما مسألة الوحدة الإسلامية، التي طالما نادت بها العروة الوثقى، فقد أضحت سرايا، ما لم تزول أسباب التناحر والشقاق بين شعوب هذه الأمة. لقد كان من أهداف العروة الوثقى رسم خطة للأمم الإسلامية وإرشادها إلى الطريق الصحيح للتخلص من التخلف الحضاري والمادي، وهما هي هذه الأمم، وبعد قرن من الزمن تعيش نفس التخلف. وكان من أهدافها حث الأمم الإسلامية وشعوبها على ضرورة الوحدة وتوطيد الروابط فيما بينها، حتى لا تصبح فريسة سهلة المنال لأعدائها، فهذا هو اليوم حالة هذه الشعوب أسوأ مما كانت عليه في تلك الفترة من الانقسام والتشتت. وهي ليست منقسمة فحسب، بل توظف لخدمة المصالح الإمبريالية، مما أدى بها إلى الدخول في حروب فيما بينها. ونتيجة ذلك أنه بدل أن تستغل طاقاتها الضخمة لخدمة مصالح شعوبها

نجدها تبرزها في الإنفاق المسرف على التسليح لحماية حدودها من جيرانها "المسلمين" أو توظيفها لأغراض أخرى لا تخدم البتة مصالح شعوبها.

لقد نادى العروة الوثقى بضرورة الاتحاد بين الأمم الإسلامية وحتميته في إطار الجامعة الإسلامية، إلا أنه لم يمض وقت طويل من ذلك حتى زال رمز من رموز هذه الوحدة وهو الخلافة الإسلامية "العثمانية". وإن كان هدف الجامعة الإسلامية قد تحقق جزئياً بإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، إلا أن هذا المؤتمر عجز عن تحقيق الأهداف المرجوة من وراء إنشائه. فإذا كانت هذه المنظمة لم تستطع من توقيف الصراع بين الدول الإسلامية وحل خلافاتها أو الحد منها، فكيف لها أن تحقق الهدف الأكبر وهو توثيق الروابط وعرى الوحدة بين الأمم الإسلامية. أكثر من ذلك كيف لها أن تواجه العالم الخارجي والتكتلات الدولية المختلفة التي برزت في السنوات الأخيرة.

إن الوضع العالمي الجديد يفرض على الأمم الإسلامية أن تفكر جيداً في مستقبلها، وذلك بتوحيد صفوفها ورضها للوقوف في وجه أعدائها المتربصين بها وإفشال خططهم وأطماعهم الاستعمارية التي ليست ثوباً جديداً، وبقينا أنه لا يمكنها من تحقيق ذلك إلا بالوحدة التي كانت تنشدها العروة الوثقى.

مراكز الثقافة العربية في الجزائر بين المقاومة والتكيف

(1830-1900)

الأستاذ الطاهر عمري

تقديم:

يحتاج تناولنا لموضوع مراكز الثقافة العربية في الجزائر إلى تناول الجانب الاجتماعي والاقتصادي خلال العهد العثماني، الذي يعد الإطار الذي يتحدد داخله الجانب الثقافي. ويكفي أن نبين في هذا الصدد أن البنية السكانية للمغرب عموماً، تشكلت بتمازج العنصرين: البربري والعربي، وساعد الاشتراك في نمط المعيشة (الرعي والزراعة) وكذا العادات والتقاليد على دعم هذا التمازج وضمان استمراره عبر التاريخ. وقد تأثرت القبيلة في المغرب عموماً، وفي الجزائر على وجه الخصوص بما طبعها به الإسلام من قيم تربوية استمرت إلى يومنا هذا.

وهذه المعطيات ظلت - في نظرنا - قائمة وليس هناك من سبب علمي يجعلنا نعتقد أن ما اكتسبه المغرب عبر التاريخ من بنية سكانية، وقيم ثقافية وعادات قد تغير، في مضمونه على الأقل، إلى نهاية الحكم العثماني بالجزائر. بل إن ما أكدنا عليه هو أن مصير المغرب صار مرتبطاً بالإسلام، وصار من المتعذر - في نظرنا - فهم المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في هذه المنطقة من العالم الإسلامي وبطريقة علمية، دون أخذ الانتماء العربي الإسلامي في الاعتبار ودون تقدير لبنية المجتمع التي تتركز أساساً إلى هذا الانتماء، وهذه هي الخلفية الأساسية التي يستند إليها بحثنا للجوانب الثقافية في المجتمع الجزائري خلال الفترة التي نتناولها بالبحث.

وكانت مراكز الثقافة العربية في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني تتمثل فيما يُعبر عنه "بالإسلام المؤسساتي"، وهو الذي كان موجوداً في المدن « إذ نجد في

هذه الأخيرة مؤسسات دينية ذات طابع رسمي تابعة للدولة. وكان علماء المدن الجزائرية في كل من العاصمة وتلمسان وقسنطينة يتميزون عن العلماء في الأرياف.. «⁽¹⁾. ولم تكن المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تنفصل عن المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة. ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم « أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها المعاصر »⁽²⁾. وظاهرة التعليم بالزوايا لم تكن خاصة بالريف، لأن المدن أيضا كانت تتوفر على زوايا تقوم بدور في نشر التعليم، بجميع مستوياته. ومن هذه الزوايا التي لعبت دورا هاما في هذا المجال، زاوية الفكون في قسنطينة، وزاوية مازونة⁽³⁾ وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي بجاية.

ولاحظنا خلال تناول هذا الجانب أن معظم هذه الزوايا بالمدن كانت معطلة عن التعليم، وذلك نظرا لوجود الكتاتيب من جهة، والمساجد المتخصصة من جهة أخرى. وكثرت في مقابل ذلك الأضرحة والقباب، والزوايا التي كانت تؤدي دورا اجتماعيا، كإيواء الفقراء والعجزة والغرباء والمهاجرين إليها من المجرمين، والسياسيين الذين يطاردتهم الحكام، واستقبال التلاميذ الذين يزاولون دراستهم في المساجد المجاورة⁽³⁾.

أما المساجد فكانت العناية بها واضحة في المجتمع الجزائري. فلا تجد حيا في المدينة إلا وله مسجد خاص به. وكان المسجد ملتقى للعبادة، ومكان اجتماع أعيان المدينة، ومحور نشاط الحياة العلمية والاجتماعية. وكان يمثل روح الحي في المدينة،

(1) Adala (M.), "La place de la culture musulmane dans la vie socio-politique de l'Algérie, Inspirations doctrinales et idéologiques (16-20 s.)", Thèse doctorat d'état, Université Montpellier. 1992, p.220.

(2) سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، م.و.ك، الجزائر 1985، ص.223.

(*) يذكر البوعبدلي أن مدرسة مازونة استمرت في أداء دورها التعليمي إلى بدايات الحرب العالمية الثانية.

(3) سعد الله (أبو القاسم)، المرجع السابق، ج1، ص.268.

وحوله كانت تنتشر السكنات والأسواق والكتاتيب. وكان أعيان الحي يساهمون بالتبرعات لبناء المساجد، لأن الدولة لم تكن تتحمل مسؤولية ذلك⁽¹⁾. أما عن علاقة الحكام العثمانيين، سواء كانوا بايات أو دايات، بالمراكز الثقافية، فإن هؤلاء كانوا « يتبرعون وينون المساجد وينسبونها لأنفسهم، ويساهمون في توسيعها وترتيبها »⁽²⁾.

أما بالنسبة لمراكز الثقافة في الأرياف خلال العهد العثماني فركز في تحليلنا هنا على الطرق الصوفية والزوايا وتأثيرها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. لأن الثقافة- في نظرنا- ليست فعلا معزولا عن مختلف أنشطة الحياة الأخرى.

ولم تكن مدينة الجزائر قبل العهد العثماني إلا مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية ولم تعرف أبدا كمرکز ثقافي مثلما كانت كل من بجاية وتلمسان فهي لم تنل ما نالته من أهمية إلا بعد التواجد العثماني بها إذ أصبحت تعرف بدار السلطان والمركز السياسي في البلاد فأحرزت على حظوة كبيرة ووفد إليها السكان في أعداد وفيرة قادمين من مختلف الجهات خصوصا من تلمسان وقسنطينة. كما تناولنا مدينة قسنطينة التي كان لها رصيد ثقافي هام في ميدان الموسيقى الأندلسية يعود الفضل فيه إلى المدينتين الآنف ذكرهما من حيث نوع هذه الموسيقى وتطورها خاصة بعد أن هجرهما عدد كبير من الأهالي الوافدين على الجزائر إثر المحجمات الأسبانية⁽³⁾. ويرتبط بهذا الموضوع المتعلق بمراكز الثقافة العربية خلال العهد العثماني تناول سياسة التعليم في الجزائر ووسائله خلال العهد خلال هذه المرحلة، والاستفسار عن تعليم المرأة وعن الجانب السوسولوجي المرتبط بالعملية التعليمية كالمستوى الاجتماعي

(1) نفسه، ج. 1، ص ص 244_245

(2) Sari (D.), Les villes précoloniales de l'Algérie occidentale (Nédoma, Mazona, Kalaâ), 2 Ed., Alger 1978, p.47

3 السليمان (أحمد)، تاريخ مدينة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 67

للمتعلمين ومصير الحاصلين على الشهادات ونوعية الوظائف التي يحصلون عليها بواسطة الوظيف.. الخ وهناك جانب آخر يتعلق بمراكز الثقافة الشفوية وغط الحياة العقلية لأن اعتقادنا أن نشر وتعميم الموضوعات التكنولوجية بشكل شعبي تنكّل به وسائل تمثل في الأدب الشعبي المنقول بطريقة شفوية ولأنه - في رأينا - ينبغي العناية في البحوث الأكاديمية التاريخية بالقيام بالتحقيقات الميدانية في المجال السوسولوجي تخص الجماعات التي لم تعرف القراءة والكتابة مطلقاً حتى لا يقع الباحث أسير نظرة خاصة بثقافة طبقية مكتوبة¹. ولكن كل هذه الموضوعات لا تدخل في المجال الرمزي الذي حددناه لبحتنا ولذلك سنقتصر في هذا المقال على تناول في مواجهة الاحتلال الفرنسي، وسوف نتعرض خلاله إلى عمليات التنصير التي كانت تهدف إلى إضعاف مكانة المراكز الثقافية العربية في الجزائر وتناول مصير التعليم ومحاولات إدخال أنماط استعمارية في ميدان التعليم بداية من سنة 1836. كما سنتعرض إلى مقاومة المراكز الثقافية في المدن خصوصاً بواسطة العملية السلبية المتمثلة في المحرقة ومواقف النخبة المثقفة مثل حمدان خوجة وبوضربة. وتتناول مقاومة المراكز الثقافية في الريف ممثلة في الطرق الصوفية والمرابطين وعلاقة كل ذلك بالثقافة الشفوية التي ظلت تمثل اللا شعور السياسي للجزائريين.

١. موقف الاستعمار من مراكز الثقافة العربية في الجزائر

إن خلاصة القول في هذا المحور هو أن الجزائر في سنة 1848 اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وبالتالي فإن شؤون العبادة والتعليم صارت تابعة للوزارات المعنية، وملحقة مباشرة بفرنسا². وسوف يكون هذا الوضع القانوني الجديد تأثير على

1 انظر بهذا الصدد: أركون (محمد)، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، الطبعة الثالثة، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت 1998، ص. 96.

2 Agéron (ch,R), Histoire de l'Algérie contemporaine, série Que sais-je? PUF, Paris 1974, p.25

الجانب التعليمي فيما بعد، خصوصا بعد الاستيلاء على الأوقاف واستفحال نشاط الجمعيات التنصيرية بالجزائر. وما يمكن ملاحظته بهذا الصدد هو أن البنية الثقافية-الروحية في الجزائر بدأت تتأثر بتوغل الاستعمار، خاصة وأن المؤسسات التابعة له بدأت تعمل على تكوين نخبة مفرنسة بعيدة عن الثقافية الأصلية، وستعمل هذه النخبة -فيما بعد- على تكريس الواقع الاستعماري وتسهيل عملية اختراق المجتمع الجزائري¹، وفصله عن محيطه الأصلي، وإعطائه توجهها أوربيا "تكون قبلته باريس"². ولكن هذا الهدف ظل في هذه المرحلة مطلبا بعيدا، لأن الجزائريين مازالوا ينتظرون خروج المستعمر من بلادهم³، ولأن الاستعمار في هذه المرحلة كان مشغولا- كليا- بضرورات الحرب والغزو، ولم يتفرغ بعد لتحليل الأمور تحليلا قائما على المنطق. ولذلك فإنه لم يكن لدى هذا الأخير وقت كاف لمراجعة تصرفاته التي كانت تثير سخط الجزائريين وخاصة ما تعلق منها بالجانب الثقافي-الروحي⁴، وهذا ما جعله يتعرض إلى مقاومة قوية من طرف المراكز الثقافية العربية التي كانت لا تزال قائمة وقوية، خلال هذه المرحلة، بالمدن والأرياف رغم محاولة تكيف هذه المراكز مع الوضع الاستعماري الجديد.

1 ابن النعمان (أحمد)، "العلاقة الجدلية بين الاستعمار الثقافي والشخصية الجزائرية"، مجلة الثقافة

الجزائرية، عدد: 49، يناير-فبراير 1979، ص. 19

2 Bousquet (G.H), L'Islam maghrébin, Ed. la Maison des livres, Alger 1954, p.216

3 سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992، ج. 1،

ص. 84

4 Dépont (a.) et copolani (x.), Les confréries religieuses musulmanes, Alger 1897, p.231.

2. المراكز التعليمية البديلة

نؤكد منذ بداية هذا العنصر على أن منظري الاستعمار على مختلف مشاربهم، وفي هذه المرحلة على الأقل، كانوا يتناولون ملف التعليم من زاوية أيديولوجية وسياسية، ومعنى ذلك أنهم كانوا يهدفون إلى استعمال التعليم في الجزائر لمحاربة العائق المتمثل في الثقافة الأصلية، والوصول بعد ذلك إلى فرض السلطة على المجتمع الجزائري. يقول بوايه في هذا الموضوع: «إن مسألة التعليم بالجزائر ظلت تُطرح من زاوية الإشكال المذهبي، وذلك نظراً للأسئلة المطروحة والتي تجعل الأمر يفرق في الغموض، ذلك أن الأمر كان يتعلق بالتوجه الثقافي المستقبلي للجزائر: هل ستكون فرنسية تماماً أم عربية إسلامية، أم ستكون نصف عربية ونصف فرنسية؟ وبناءً على هذا الاختيار المذهبي يأتي التوجه في السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر»¹. وبدل أن يعمل منظرو الاستعمار، ومنفذو سياسته إلى مراجعة تصرفاتهم بشأن المساجد والزوايا التي كانت تمثل مراكز التعليم الإسلامي التي انطلقت منها - كما ذكرنا - جميع المقاومات الثقافية والمسلحة، بدل ذلك فإنهم ركزوا على تنفيذ خطة جديدة تتمثل في محاربة روح الثورة في المساجد والزوايا بواسطة التعليم.

3. التعليم الاستعماري ضد الزوايا

كتبت المجلة الشرقية في أسلوب عدائي، سنة 1852 مقالا يذكر أن «التعليم يمنحنا وسيلة رائعة ضد تأثير شيوخ الزوايا والمشعوذين، من معلمي القرآن الذين وقفوا بصفة دائمة في وجه الطموحات الفرنسية»². وهكذا بدأت الصدمة الاستعمارية^(*)، بعد عقدين من الزمان تتكشف عن توجه واضح نحو استيلاء ثقافي

1 Boyer, L'évolution de l'Algérie moderne, Paris 1960, pp.349-350

2 Angelani Delorme, Revue Orientale, Octobre 1852

(*) جللنا في بحثنا للماحستير كيف أن الاستعمار كان يمثل صدمة للمجتمع للجزائري تزامنت مع إشكالية فهم بين الطرفين وأدت في النهاية إلى تخطيط البنى الأصلية لهذا المجتمع مع =

عام. وكان هذا التوجه مرفوقاً بالتعليم في المدارس الرسمية، التي كان عدد روادها قليلاً إلى غاية الخمسينات من القرن التاسع عشر. كما كان تعليم اللغة العربية بها يواجه صعوبة كبيرة¹. وقد وصف آجرون التأخر الثقافي، في الجزائر بين 1846 و 1848 "بالضمّ"، وفي هذه الفترة ضاع التعليم العربي بالنسبة لجيل كامل تقريباً². وخاصة بعد اختيار النظام التعليمي المتمثل في المدارس القرآنية، التي كان يعوزها الدعم المادي بعد مصادرة الأوقاف من طرف الإدارة الاستعمارية في الجزائر³. ونذكر هنا قرار سنة 1849 الذي ورد في نصه أنه مدامت اللغة الفرنسية هي لغة السلطة الحاكمة «فإن الأمور التي ينبغي أن يهتم بها قبل كل شيء، هي السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دراجة وعامة بين الجزائريين، الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين»⁴.

ويظهر أن منظري الاستعمار اعتقدوا أن ضعف التعليم في الجزائر حجب عن الجزائريين محاسن الحضارة الغربية، وحسب بعض التقارير فإن هذا الجهل بمزايا الحضارة الغربية «هو الذي جعل الجزائريين ينخرطون في موجات من التعصب الديني» وأكد نفس التقرير أن «وسيلة امتصاص التعصب وسوء الفهم هو نشر

«نهايات القرن التاسع عشر الميلادي. انظر: الطاهر عمري، دور بني المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (1830-1900)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة 1999.

1 صاري (الجيلالي) وقداش (محفوظ)، المقاومة السياسية: الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987، ص. 264.

2 نفسه، ص. 225-226.

3 Laroui, L'Histoire du Maghreb, Maspéro-Paris 1976, p.317

4 ابن نعمان، المقال السابق، ص. 119.

التعليم»¹. وهذه المعايير - في نظرنا - تُعدُّ بالنسبة لمنظري الاستعمار مرحلة من مراحل " الفهم " حول موضوع تعليم الجزائريين. وقد بدأت تظهر في التقارير اللاحقة، سنة 1847، أي بعد نهاية تجربة الأمير عبد القادر، ملاحظات أقرب إلى تصوير الواقع، إذ ركزت جميعها على نقطة أساسية وهي ارتباط التعليم العربي في الجزائر بالقرآن الكريم من حيث محتواه وأهدافه.

وحق الذين كانوا من المتحمسين لفكرة علمنة التعليم في فرنسا، تنبّهوا إلى أهمية هذه للمعيار التي وقفوا عليها، والتي مفادها «أن التعليم العربي في الجزائر مازال يقوم على قواعد دينية محضة. إذ أن البرامج الدراسية تتمحور حول القرآن. إذ يعتقد المسلمون أنه ليس هناك نور معرفي إلا ما يصدر عن القرآن وتفسيره. وهذا ما يصعب وجود تعليم فرنسي في الجزائر، بعيدا عن الدين، ويجعل كل محاولة في هذا الاتجاه عملا فاشلا...»². إن هذه الملاحظة الواردة في كثير من التقارير الرسمية تحيلنا إلى إشكالية الفهم لدى منظري الاستعمار، وصعوبة تصورهم للبنى التي كان يقوم عليها المجتمع الجزائري قبل الاحتلال. لقد ظن منظرو الاستعمار - في البداية - أن التعليم العربي غير موجود أصلا في الجزائر. ومما يؤكد وجود ذلك التصور لديهم هو مصادرهم للأوقاف التي كانت تشرف على هذا النوع من التعليم .

4. تجاهل دور الدين

ركّز دوما Daumas في تقاريره العسكرية على الخطأ الأكبر لدى منظري الاستعمار والمتمثل في «تجاهل دور الدين في التعليم العربي، حيث اعتبره بعض رجال السياسة أمرا ثانويا»³، مثلما هو الحال في فرنسا في هذه المرحلة. ولكن بعد سنوات من توغل الاستعمار في البلاد قدم رواد الغزو صورة أقرب إلى تصوير الواقع بالنسبة

1Turin (Yvonne), Affrontements culturels dans l'Algérie contemporaine : écoles, médecines, religions, ENAL, Alger1983 , p.18

2 Ibid., pp.116-117

3 Ibid., p.118

إلى التعليم العربي في الجزائر إذ لاحظ هؤلاء «أن التعليم الابتدائي في الجزائر كان أكثر انتشاراً مما نعتقد. وقد أكدت علاقاتنا مع الأهالي في المقاطعات الثلاث أن متوسط الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة كان -على أقل تقدير- مساوياً لعدد المتعلمين في أريافنا بفرنسا» أي تقريباً 40% كما كتب دوما. كما كانت عديد من الزوايا والمدارس التابعة لما توفر التعليم الثانوي والعالي أيضاً وكان المجتهدون من الطلبة يقصدون فاس وتونس والقاهرة لإكمال تعليمهم¹.

إن هذا الترابط بين العلم والدين في المجتمع الجزائري جعل كل تطور باتجاه ثقافة المستعمر أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. وقد أكد على ذلك دوسال De salles، الذي خلف بودو على قسنطينة، إذ لاحظ أن «مجهودات التعليم الفرنسي بالجزائر لم تسجل أي نجاح، وأرجع ذلك إلى سبب واحد هو أن الدين والعلم في نظر الأهالي يشكلان شيئاً واحداً»²، ويظهر أنه كان من الصعب على العقلية الغربية العلمانية للغزاة الفرنسيين أن تفهم هذا الارتباط بين الدين والثقافة بالجزائر، ذلك أن هذه العقلية العلمانية لم تكن مهياً لاستيعاب نظرة دينية عن العالم، والقليل فقط بين العسكريين الفرنسيين هم الذين تنبهوا لهذه النقطة، وكان منهم ريشارد Richard، المسؤول الأسبق لمكتب أوريانسفيل، الذي كتب سنة 1853 يقول: «إن الاختلاف في الدين والعادات والتقاليد هي عوامل أدت إلى ابتعاد الشعب العربي عنا، ووقوفه في الصف المعادي لنا»³.

لقد كان على منظري الاستعمار أن يفكروا في ردم الهوة بين السلطة الاستعمارية والمجتمع الجزائري. وفي هذا الإطار تقدّم مكتب شؤون الأهالي في مدينة القالة سنة 1846، باقتراح يقضي بتكفل الاستعمار بمسألة تأطير المجتمع وتكوين

1 Pervillé, Les étudiants algériens de l'université française, Casbah ed. Alger 1997, p.16

2 Turin, Op. Cit., 118

3 Ibid., pp.140-141

الإنسان في الجزائر «حتى يصل إلى المستوى الذي يؤهله لأن يعرفنا على غير أساس القرآن أو خطب الأئمة المتعصبين»¹. ورغم أن هذا "الاكتشاف" كان - في نظرنا - قليل الأهمية إلا أنه كان يمثل بالنسبة لمنظري الاستعمار مرحلة من مراحل فهمهم لواقع المجتمع الجزائري. ذلك أنهم أدركوا أن قراراتهم لا تقع على أرض خالية، وإنما كانت هناك ثقافة أصلية تقاوم توغلهم في المجتمع، إذ أن الجزائريين ظلوا إلى غاية 1850، على الأقل، مقتنعين «أن أي اندماج في ثقافة المستعمر يعدّ ضرباً من الخيانة»².

5. قرارات في مجال التعليم

قامت الإدارة الاستعمارية، في إطار التعديلات التي كان يقوم بها الاستعمار بناء على اكتشافه الجديد المتمثل في ارتباط العلم بالدين في الجزائر، بإصدار جملة من القرارات خلال الخمسينات من القرن التاسع عشر، تقضي بتأسيس مدارس فرنسية- إسلامية، في كل من قسنطينة والمدينة أو البليدة، بالنسبة لمنطقة الجزائر العاصمة، وتلمسان ومستغانم بالنسبة إلى منطقة وهران. وهذه المدارس كانت تحمل - بالنسبة للاستعمار - أملاً واسعاً في منافسة الثقافة العربية الإسلامية التي تشرف عليها المساجد والزوايا في الداخل، وتروج لها المؤسسات التعليمية الإسلامية في كل من المغرب وتونس، «و بذلك يضعف تأثير الزوايا المعادية للاستعمار، وتنتهي الأذهان لاستقبال الحضارة الغربية...»³. غير أن الاستعمار، مع نهاية الخمسينات من القرن التاسع عشر، وصل إلى انسداد تام في مجال التعليم. إذ صار مؤكداً، بعد خمس وعشرين سنة من المجهودات في هذا الميدان، أن كلا من الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الفرنسية الاستعمارية كانت ترفض كلاهما الأخرى، وذلك لكون

1 Ibid., p.207

2 Ibid., p.250

3 Ibid., p.185

«الفرنسيين كانوا مقتنعين بعدم جدوى تجديد التعليم العربي، وفي المقابل كان الجزائريون يعتبرون كل تساهل مع التعليم الفرنسي نوعاً من الخيانة»¹. كما سبق أن ذكرنا، وهنا ظهرت فكرة أخرى تدعو إلى إضعاف التعليم العربي بإفراغه من روحه المتمثلة في القرآن الكريم. فقد ورد سنة 1860 تقرير لرئيس مكتب ذراع الميزان جاء فيه: «عما أن تعليم الأهالي يعتمد أساساً على القرآن الذي يغذي روح التعصب، فإنه ليس من مصلحتنا أن ندخل هذا العنصر في تعليمنا»².

6. المدارس في عهد نابليون الثالث

بما أن عقد الستينات يتزامن مع وجود الإمبراطورية الثانية، التي تميزت بتعاطفها مع العرب في الجزائر فإنه من المهم لموضوعنا أن نلقي نظرة حول سياسة نابليون الثالث التعليمية. لقد تم تحت الإمبراطورية الثانية إعادة فتح المجال أمام التعليم العربي الإسلامي، الذي حطمته الحرب والمصادرات وهجرة العلماء. وقد ظهر تشجيع التعليم العربي في عهد نابليون الثالث في صورة تشجيع المدارس القرآنية، في المناطق العسكرية، إذ وصلت إلى 2000 مدرسة سنة 1863. وتم كذلك تأسيس مدارس ابتدائية عربية-فرنسية، في بعض المدن القبائل، وكانت هذه المدارس تدرس اللغة العربية صباحاً والفرنسية مساءً، غير أنها كانت تواجه صعوبات مقصودة من طرف المجالس البلدية، التي يسيطر عليها المعمرون.

كما تم، في عهد نابليون الثالث، فتح المدارس البلدية لأبناء الجزائريين، ولكن هؤلاء لم يكونوا يقبلون بكثرة على هذه المدارس لأسباب سوف نذكرها فيما بعد، ولذلك فقد اتجهت فكرة منظري الاستعمار إلى تنظيم التعليم الثانوي أولاً، وكان الهدف من وراء ذلك هو تخريج عناصر مثقفة تؤثر على الجماهير. وهكذا تقرر إنشاء الثانوية العربية - الفرنسية في الجزائر العاصمة سنة 1857، وتقرر إنشاء

1 Ibid., p.250

2 Ibid., p. 208

أخرى في قسنطينة وثالثة في وهران وكذا إنشاء ثلاث مدارس حديثة لتخريج الموظفين في المناصب العليا. غير أن هذه المبادرات التي قامت بها الإمبراطورية الثانية لقيت معارضة شديدة من طرف المعمرين «بدعوى أنها تعطي التلاميذ المسلمين تعليماً خاصاً، والحقيقة أن المعمرين كانوا يرون في هذا الاهتمام بتعليم الجزائريين تعاطفاً ظاهراً مع العرب»¹ كانوا يستذكرونه على نابليون الثالث.

ومع هذا فإن سياسة نابليون الثالث المتساعحة مع التعليم العربي ينبغي أن لا تحجب عنا إدراك الفارق الكبير بين وضع المدارس القرآنية مع بدايات الاستعمار، وما آلت هذه المدارس خلال الستينيات من القرن التاسع عشر. فالتعليم القرآني - مثلاً - بدأ ينخفض بشكل محسوس، إذ تناقص عدد الكتاتيب في الريف الجزائري سنة 1863². وقد سجل بليليسييه دي رينو سنة 1861، استمرار النظام التعليمي القديم رغم الحالة السيئة التي وصل إليها، وقد ظل هذا النوع من التعليم يعمل بالتوازي مع النظام التعليمي الاستعماري. ولعل السبب الذي أدّى إلى استمرار التعليم العربي الإسلامي، إلى جانب المقاومة الثقافية للمساجد والزوايا، «هو تخوف الاستعمار من الكلفة المالية لتعميم التعليم الفرنسي وما ينعكس من ذلك على الجانب السياسي، ذلك أن عداوة الجزائريين للاستعمار - في نظر منظريه - كانت تتناسب طردياً مع مستوى تعليمهم. وهذا ما أدى إلى المحافظة، نوعاً ما، على التعليم العربي الإسلامي واستحالة تخطيطه الكامل.

7. مدارس المعلمين

إن الدافع الذي حدا بالإدارة الاستعمارية إلى فتح الباب للمدارس الرسمية - في نظرنا - هو دافع اجتماعي وسياسي وليس دافعاً ثقافياً، إذ كان الغرض من ذلك

¹ Agéron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Que sais-je?, pp.35-36

² صاري وقداش، المرجع السابق، ص. 235

بالدرجة الأولى هو تخريج العدد الكافي من الإطارات في مناصب العبادة والمحاكم الشرعية. ولكن هذا النوع من التعليم سجل سنة 1865 قلة عدد المعلمين، ولذلك فقد أنشئت مدارس متخصصة لغرض تكوينهم، ركزت أساسا على توفير شروط ضرورية لأجل إعداد إطارات تعرف الوسط الجزائري جيدا¹. وقد جاء في الجريدة الرسمية 1865 في هذا الصدد ما يلي: « إن عيوب مناهج التعليم، وخاصة صعوبة توظيف معلمين قادرين، هي عقبة في وجه تنمية نفوذه على الجيل الصاعد»².

وأكد مدرّسو تكوين المعلمين على ضرورة تخرج معلمين متمكنين من استعمال اللغة العربية " الدارجة "، ولهم معرفة كافية بعادات وتقاليد المجتمع الجزائري، ولديهم المهارة لتكييف محتويات البرامج الدراسية حسب العادات والأفكار في الجزائر وذلك من أجل تسهيل التأثير عليهم. وقد سجل في هذه السنة (1865) تأسيس مدارس فرنسية إسلامية جديدة، سواء في المراكز الإستراتيجية، مثل سعيدة وزمورة وندرومة، أو في المراكز الريفية مثل أولاد فارس ومجاجة والأصنام³.

أما التعليم الثانوي الفرنسي -الإسلامي فقد واجه في بداياته خصوصا، مشاكل كثيرة، وكان إلى سنة 1865 يقتصر على ثانوية واحدة بالجزائر العاصمة ثم افتتحت أخرى بقسنطينة في نفس السنة، أما الثانوية الثالثة التي تقرر إنشاؤها في وهران، فلم تفتح إلا في سنة 1870. وقد ظلت هذه المدارس الاستعمارية، إلى وقت متأخر، تشكو قلة روادها من التلاميذ الجزائريين، ويرجع السبب في ذلك إلى تخوف العائلات الجزائرية من انحلال سلوك أبنائها في الوسط الاستعماري الجديد. وقد عبر عن ذلك أحد القياد الجزائريين سنة 1856، بقوله: « كيف تريدون أن تبعث نحن

1 نفسه، ص. 332

2 نفسه، ص. 227

3 نفسه، ص. 332

أهل وهران، بأنثائنا إلى الجزائر، فالمسافة طويلة، ولا نستطيع أن نتصل بهم مرارا للإشراف على تربيتهم، وليتمسكوا بمبادئ الشريعة، فكل تخرج يصبح منقطعا عنا. فهو يتعاطى الخمر والزنى، وهذا يمس بشرفنا وتعاليمنا»¹.

ويمكن أن نذكر -أيضا- من الأسباب التي جعلت الجزائريين يلزمون موقف الخذر من المدارس الفرنسية الاستعمارية في هذه المرحلة، رغم ندرتها واقتصارها على الصفوة المختارة من أبناء المقررين للإدارة أن هؤلاء كانوا يربطون بين هذا النوع من التعليم، وبين عمليات التصدير، التي كانت مترامنة مع هذه المرحلة². وحتى ما كان يتحصل عليه بعض الجزائريين من الوظائف التي تخولها لهم الشهادات المحصل عليها من المدارس الفرنسية، فإنها كانت وظائف تهدف أساسا، إلى إدماعهم في النظام الاستعماري. وقد كان الجزائريون الحاصلون على هذه الوظائف، المتمثلة، إلى غاية نهاية الإمبراطورية الثانية في الجيش والإدارة، يشعرون بالتمزق بين انتمائهم للمجتمع الجزائري ومصالح النظام الذي يستعملهم. وقد عبر الملازم ابن علي الشريف، سنة 1866، عن هذا الشعور بقوله: «كان مواطنونا ينظرون إلينا بنوع من الريبة والخذر. وكان الفرنسيون لا يقبلوننا كانوا يرفضون ترقيتنا فوق رتبة الملازم، وكانت قلوبنا، بين الريبة والاحتقار محملي بالخزن والمرارة»³.

لقد ظل الجزائريون متخوفين من التعليم الفرنسي، لأنه -في نظرهم - كان استعماريا من ناحية أهدافه وبرامجه ومن ناحية الآثار المترتبة على سلوك أبنائهم، وكذا من ناحية الوظائف المحصل عليها بعد التخرج، فهذا النوع من التعليم كان في

1 نفسه، ص. 332.

2 Lacheraf (Mostapha), L'Algérie nation et société, Maspéro-Paris 1976, p.314

3 قداش وصاري، المقاومة السياسية، ص. 227.

جميع الحالات يهدف إلى فرض سلطة "الكفار"، وسوف تستمر هذه الفكرة زمنا طويلا بعد الإمبراطورية الثانية.

ولم يكن عداء المعمرين هو السبب الوحيد الذي أدى إلى فشل السياسة التعليمية للبابليون الثالث، لأن الجزائريين أنفسهم كانوا يرون في هذه السياسة التعليمية محاولة لتوغل الثقافة الاستعمارية، التي تهدف إلى انتزاعهم من محيطهم الثقافي والاجتماعي. ومن بين الشهادات القوية التي احتفظت بها وثائق الاستعمار، في هذا الصدد وذكرها إيفون تيران في كتابها شهادة كاريث حاكم مدينة بجاية، إذ يذكر هذا الأخير أن سكان هذه المدينة طلبوا مقابلته ولم يحدثوه عن الخراب الذي لحق بأملآكهم على يد الاستعمار ولا عن البؤس الذي كانوا يعانونه، وإنما طلبوا منه أن يعيد بناء مسجدهم وأن يرسم مدرستهم القرآنية ويدفع للمعلم الأجرة التي عجزوا هم عن دفعها. لقد كان ذلك سنة 1850، عندما بدأ منظرو الاستعمار يدركون خطورة المسألة الثقافية في الجزائر، والتي طالما أهملوها، ولم ينتبهوا إلى الآثار التي خلفوها بتحطيمهم للأوقاف.

و قد علقت إيفون تيران على هذه الشهادة التي أوردها كاريث بقولها: «إن الصراع بين المستعمر ومن وقع عليه الاستعمار، لا يدور فقط حول القوت اليومي، ولكن ومع ذلك كلما انعدم هذا القوت لدى مجموعة كبيرة من الناس كلما زادت قيمة العناصر الثقافية التي تضمن شيئا آخر أكثر من مجرد البقاء المادي، وتحول دون الفناء النهائي للأمة وومن هنا تظهر يُعرف في العالم بالنورات الثقافية»¹. وسنلاحظ أن ثورة 1871 التي كانت في أصلها ثورة اجتماعية اقتصادية، ذات طابع ثقافي تمثل في دور الطريقة الرحمانية، هذه الثورة سوف تؤدي إلى انعطاف هام في موقف المجتمع الجزائري من التعليم عموما .

8. دوافع إقبال الجزائريين على المدارس الفرنسية

إن ثورة 1871، أفرغت جميع المدارس العربية-الفرنسية من روادها، وقد أخذ ذلك صورة المقاومة للتعليم الفرنسي، التي استمرت إلى غاية 1880. وكان من نتائج هذه المقاومة التي قادتها الإطارات الثقافية للمجتمع الجزائري من القضاة والأئمة وشيوخ الزوايا، أن الرفض المدرسي قد عمّ في كل من المدينة ومستغانم والبليدة وتلمسان وقسنطينة والأغواط وبوسعادة والجلفة¹. ولكن هذه الثورة كانت لها نتائج وخيمة على المدارس المرتبطة بالزوايا، إذ أغلقتها السلطات العسكرية، ولم يسمح بالبقاء سوى لبعض منها بين القبائل².

وزاد من حدة المشكل الثقافي بالجزائر، إضافة إلى تسلط المعمرين على شؤون التعليم، عدم وجود جامعة عربية، في حجم الزيتونة بتونس أو القرويين بالمغرب الأقصى، اللتين قامتا بدور هام في التحصين الثقافي في هذين البلدين. وقد ساعد هذا الفراغ في الجزائر على تعرض الثقافة العربية الإسلامية فيها إلى خطر التشويه والذويان³، خصوصاً وأن الاستعمار اعتبر هذه الثقافة أجنبية في الجزائر⁴.

و قد لاحظ المؤرخون، في هذا الميدان أن الإدارة الاستعمارية بين 1875 و1880، حاولت بإلحاح كبير أن تمنح الثقافة الأوربية للجزائريين⁵، كما سجلوا صدور قرار 1880 القاضي بإنشاء المعاهد التعليمية العليا بالجزائر وهي التي صارت

1 Ibid., p. 297

2 Agéron, Histoire de l'Algérie contemporaine, (1871-1954), 3e Ed., PUF- Paris 1969, p.16

3 سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص. 56

4 نفسه، ص. 57

5 Turin, Op.Cit., p.200

مثلة، بعد حوالي ثلاثين سنة، في جامعة الجزائر¹. وبما أن طبيعة موضوعنا تقتضي ربط التعليم ببنية المجتمع الجزائري، فإن هذا الاختيار المنهجي يدعونا إلى تقييم مراحل مجهودات التعليم الفرنسي قبل 1880.

9. مراحل السياسة التعليمية بالجزائر

يقدم لنا جفولون تقيما بهذا الشأن بقوله: «إنه إلى غاية 1883، كانت جميع تدخلات الاستعمار تهدف إلى تحطيم الجهاز التربوي والديني الأصلي، أو على الأقل إضعاف القاعدة المادية والاجتماعية التي كان يستند إليها، أما محاولات تأسيس التعليم الفرنسي في الجزائر، فقد كانت قبل هذه المرحلة غماز بطابعها المحلي والمتردد، وذلك مدة نصف قرن من الزمان من دخول الاستعمار»². وما يميز هذا التحليل هو أنه يربط بين توغل بنى التعليم الاستعماري في المجتمع الجزائري وبين تحطيم البنى الأصلية لهذا المجتمع. إذ يصرح نفس الباحث أن تعثر محاولات التعليم الفرنسي في الجزائر ترجع إلى كون هيكله هذا النوع من التعليم تعتمد أساسا على تحطيم الهياكل الاجتماعية التي يستند إليها الجهاز التعليمي الأصلي. ولكن هذا التحطيم كان يحتاج على الأقل إلى نصف قرن للإجهاز على الطرق الصوفية التي كانت بعد سقوط النظام السياسي العثماني ودولة الأمير عبد القادر تواصل المقاومة كتنظيم ذي طابع ديني وثقافي وسياسي وعسكري. ولكن فشل الثورات الكبرى الأخيرة أنهى السيادة السياسية والعسكرية للطرق الصوفية، وسمح باختيار جزئي

1 سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط. 2، ش. و. ن. ت.، الجزائر 1981، ص. وانظر أيضاً:

Revue Africaine, n°60, 1919, P. 311

2 Djeghloul(A.), "M'Hamed ben Rahal et la question de l'instruction des algériens", In: Huit études sur l'Algérie, Cours photocopiés, p.64

لدورها التربوي، وهذا الانحياز الكمي والكيفي هو الذي جعل في الإمكان توغل التعليم الفرنسي في المجتمع الجزائري.¹

10. مراكز التعليم الاستعماري بعد 1880

ظهر انعطاف واضح في السياسة التعليمية للاستعمار وكذا في إقبال الجزائريين على هذا النوع من التعليم بحلول سنة 1880. فقد اكتشف منظرو الاستعمار ومنفذو سياسته في هذه المرحلة أن محاولات إيصال الاستعماري إلى المجتمع الجزائري باءت بالفشل، وظهر أن مجهودات التبشير بالثقافة الاستعمارية لم يكن له أثر في الوصول إلى عمق المجتمع الجزائري. « إنها - تقول تيران - المفاجأة الكبرى للمرحلة الأولى من الاستعمار التي جعلت المستعمر يتساءل حول الجوانب البيداغوجية للتعليم الفرنسي »². وهذا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن من أسباب تعطل التعليم الفرنسي في الجزائر خلال هذه المرحلة، هو غياب مشروع تعليمي واضح ومتناسك. ويرجع هذا النقص أساسا إلى الجدل الذي كان قائماً في فرنسا ذاتها حول إيجاد قانون خاص بالمدرسة. وكان يجب الانتظار إلى سنة 1881، لكي ينجح المفهوم الجمهوري للمدرسة التي تمثل الخدمة العمومية، الانجانية والإلزامية والعلمانية³ كما بلوره الوزير جول فيري^(*).

أما بالنسبة إلى المجتمع الجزائري فقد أدت عمليات القمع التي أعقبت ثورة 1871، كما ذكرنا، إلى تفكيك البنى الاجتماعية وأدت هجرة السكان إلى وجود

1 Ibid. p.64

2 Turin, Op.Cit., p.414

3 Colonna(F.), Les instituteurs algériens(1883-1939),p.

(*) جول فيري(1832-1893) رجل ميساسي فرنسي اعتبر أحد مؤسسي الشخصية الفرنسية، ولد في سان دني في من عائلة من الأعيان ومارس المحاماة ثم دخل معترك السياسة. دافع أمام البرلمان الفرنسي سنة 1882 عن المدرسة الانجانية والإلزامية والعلمانية المؤسسة بقوانين 1881-1882 التي كانت في رأيه كفيلة بتأسيس وعي جمهوري وتكوين المواطن الفرنسي.

جو عام من عدم الاستقرار، وبذلك صار مستحيلا القيام بأي عمل ثقافي كما أدى القمع كذلك إلى القضاء على ما بقي آنذاك من مراكز تعليم الثقافة العربية الإسلامية المتمثلة في الزوايا التي كانت تقوم بدور الثانويات الدينية. ووصل الأمر بعد كل ذلك إلى حدوث فراغ ثقافي في المجتمع الجزائري، واستمر هذا الفراغ طويلا في تاريخ الجزائر¹.

كما أدى انتصار المبادئ الجمهورية في فرنسا، سنة 1870، إلى سيطرة المعمرين في الجزائر، الذين كانوا مدعّمين من جماعات الضغط في باريس. وهذا النظام الجديد أهمل المبادرات التي قامت بها الإمبراطورية الثانية في ميدان التعليم وأغلق جميع المدارس والثانويات العربية الفرنسية بين 1870 و1882، وكل ذلك بإيعاز من المعمرين الذين كانوا يعارضون كل مبادرة للتعليم الجزائريين². وهذا الفراغ هو الذي «جعل المجتمع الجزائري يشعر بالحاجة إلى الثقافة وخصوصا الحاجة إلى التعليم»³. وهنا شرع الجزائريون يفكرون بجديّة في تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية، رغم أنهم ظلوا متمسكين بلغتهم العربية.

11. بدايات التناقض في الثقافة الجزائرية

يمكن أن نلاحظ خلال هذه المرحلة "نقطة الانعطاف" في الثقافة الجزائرية؛ إذ بدأ يظهر عليها التناقض «وبرزت عند الجزائريين فكرة تعتبر الفرنسية لغة المصالح الدنيوية، أما اللغة العربية فكانت تعتبرها لغة السمو الروحي»⁴. وهو -في رأينا- فصل واضح بين الدين الذي كان مندمجا في بني المجتمع الجزائري، وبين الجانب المادي، الذي تمثله الثقافة الفرنسية، العلمانية.

1 Ihaddaden, Histoire de la presse indigène, ENAL, Alger 1993, p.112

2 Pervillé, Op. Cit., p.17

3 Lacheraf, Op. Cit., p.315

4 Lacheraf, Op. Cit., p.315

و لم يكن اللجوء إلى المدارس الفرنسية هو الخيار الوحيد أمام الجزائريين ذلك أنه منذ 1880 بدأت الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر تفقد بريقها، ولم تنفع لإنقاذها بعض المحاولات الفردية التي قام بها أمثال الشيخ محمد اطفيش، ومن ثمة وجد بعض الطلبة الجزائريين أنفسهم مرغمين على التوجه نحو الجامعات الإسلامية كالكرويين، وفاس والزيتونة والأزهر¹. وسوف يكون لهذه النخبة دور واضح في الوطنية الجزائرية مع بدايات القرن العشرين.

12. قانون جول فيري

مدّت السلطات العليا في باريس قانون 1883 ليشمل الجزائر بعد أن أرسى في فرنسا القواعد الأولى لنظام تعليمي أرتبط باسم الوزير جول فيري، وكان يحمل شعار: علمنة- مجانية - إلزامية. وكان هذا النظام التعليمي المطبق في الجزائر يهدف إلى أن يكون سلاحا ثقافيا ضد اللغة العربية والدين الإسلامي. ويمثل بالنسبة للاستعمار وسيلة استكمال فرض السلطة على المجتمع الجزائري واستكمال التجذر عن طريق الغزو الفكري².

وقد صارت المدرسة الفرنسية، منذ 1890 مفتوحة للعدد الأول من أبناء الجزائريين، ولم يعد هؤلاء يخشون على أبنائهم أن يصبحوا ملحدين، وانتهى الوقت الذي كان فيه العلماء يصدرون فتاوى الردة بشأن من يعملون أبناءهم بالمدارس الفرنسية³. وزاد من عدم تردد الجزائريين في الإقبال على التعليم الفرنسي، أن حكومة ألبرت جريفى عاملت شؤون الدين الإسلامي بقسوة إلى غاية 1891، إذ أمرت بغلاق كثير من المدارس التابعة للزوايا تحت ضغط البرلمان الفرنسي وبإيعاز من

1 Djeghloul, " La formation des intellectuels algériens modernes", In: Lettres, intellectuels et militants en Algérie, Cours polycopiés, pp.3-23

2 ibid., p.3-23

3 Stora & Daoud, F. Abbas, Ferhat Abbas: une autre Algérie, Casbah Ed., Alger 1995, p.23

المعمرين في الجزائر. وكان على المدارس التي يُسمح لها بالبقاء أن تغلق أبوابها خلال ساعات عمل المدارس الابتدائية الفرنسية، كما منعت الإدارة الاستعمارية في الجزائر جمع الإعانات لصالح المدارس القرآنية¹. وقاومت السلطات الاستعمارية في المدن التعليم بالمساجد والزوايا وعوضته بالتعليم الرسمي، وأحدثت لذلك كما ذكرنا- مدارس ثلاث بقسنطينة والمدينة وقلمسان، ثم حوّلت مدرسة المدية إلى العاصمة. وكان مجموع هذه المدارس الثلاث سنة 1872 ثمانمائة واثان وأربعون تلميذاً (842) تخرج منهم في السنة نفسها أربعة عشر تلميذاً. وهذه إحصائيات رسمية صرحت بها لجنة مجلس الشيوخ التي أوفدتها الحكومة الفرنسية، سنة 1892 برئاسة الوزير جول فيري². وقد أعيد تنظيم هذه المدارس، سنة 1895، لتخريج الإطارات اللازمة لجهاز القضاء والشؤون الإسلامية، التي سيطرت عليها الإدارة الاستعمارية.

إن العناية التي تقف عليها في نهاية هذا المقال تتمثل في كون المراكز التعليمية العربية في الجزائر قد تحطمت مع نهايات القرن التاسع عشر وبدأت تترك مكانها لمراكز تعليمية استعمارية. كما بدأت الإدارة الاستعمارية ومنظروها خلال هذه المرحلة يشعرون بالخطر الذي يشكله تعليم الجزائريين على سلطة الاستعمار خصوصاً. وهنا بدأ التحفظ من قبول الجزائريين في المدارس الفرنسية وفي الوقت نفسه بدأ الجزائريون يشعرون بضرورة أبنائهم في المدارس الرسمية³ وهذه المفارقة هي التي سيتأسس عليها النضال السياسي للنخبة الجزائرية منذ بدايات القرن العشرين.

1 Agéron, Histoire de l'Algérie contemporaine (1871-1954), pp.171-172

2 البوعبدلي (المهدي)، « جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر »، الأصالة، الجزائر؛

عدد: 54-55، 1975، ص. 73.

3 Turin, Op.Cit., p.167

13. أثر مراكز التعليم الاستعماري على الثقافة العربية

إن «الثقافة، أية ثقافة، هي في جوهرها عملية سياسية»¹ ولذا فإن الثقافة الاستعمارية بالجزائر - في رأينا - لم تكن في يوم من الأيام مستقلة، ولا متعالية عن الصراعات السياسية والاجتماعية، بل لقد كانت في نظرنا - دائما - الميدان الرئيسي الذي تجري فيه هذه الصراعات وتعبّر عن نفسها. وذلك أن «الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى وأحيانا الوحيدة المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية، بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية، أو تريد الحفاظ عليها»². ومن هنا فإن العلاقة بين التعليم في المدارس الفرنسية والأيدولوجية الاستعمارية، التي سوف تستمر طويلا في تاريخ الجزائر المستعمرة، هي من الأمور التي ينبغي أن لا نغفلها.. وبما أن تكوين الأيدولوجيا، أية أيدولوجيا «لا يمكن أن يتم بمثل السرعة التي يتم بها إنشاء إمارة أو تأسيس دولة» إذ «إن التحول الأيدولوجي على مستوى الدولة والمجتمع يتطلب وقتا أطوال فهو لا يتم إلا عبر أجيال»³، فإننا سنتابع تبلور هذه الأيدولوجية وأشكال المقاومة التي تعرضت لها خلال ذلك. ولكن ينبغي الإشارة إلى أن الأيدولوجيا الاستعمارية كما نوظفها هنا، هي كما عرفها ماركس "نوع من التقدم الوهمي عن الحقيقة"⁴ والأيدولوجيا بهذا المعنى تمثل وعيا "زائفا"، أو أنها الصورة التي أرادت السلطة الاستعمارية أن تكونها عن وضعها كسلطة وعن المجتمع الجزائري بصورة عامة.

1 محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي: محدداته وتحدياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، ص.6

2 نفسه، ص.7

3 نفسه، ص.298

4 حسن ملح، التفكير العلمي والمنهجية، منشورات دحلب، الجزائر 1993، ص.421

و. بما أن البنية الاجتماعية لها وجود حقيقي، وليس مجرد تصور نظري، فإن تفاعلها مع الأحداث يجعل منها "مصدرا لفهم العلاقات المشاهدة"¹ الناتجة عن هذه الجدلية بين تبلور الأيديولوجيا الاستعمارية، ونفي الأصلية للمجتمع الجزائري عن طريق مراكز التعليم التي أسسها بدلاً عن مراكز الثقافة العربية الإسلامية. وإذا كان توغل الاستعمار بجهازه التعليمي قد حمل إلى المجتمع الجزائري عناصر الحداثة التي سوف يكون لها دورها عندما تتوفر الظروف لتطورها، فإنه "قد حطم المجتمع القديم، مما أثر على التوازن الاجتماعي والثقافي، وكرامة الجزائريين"²

إن التعليم الاستعماري، في الجزائر، كان عليه أن يؤدي دورا هاما في الغزو الفكري والروحي. إذ كان عليه، من ناحية، أن يمنح الشرعية للغزو العسكري، ويضمن من ناحية أخرى، استمرار النتائج السياسية لهذا الغزو، والمتمثلة في فرض السلطة على المجتمع الجزائري. وكما قال أوامال وأن "افتتاح مدرسة وسط الأهالي هو أكثر جدوى في تهدئة البلاد من فيلق كامل من الجيش"³

14. تأثير المعلمين

قد كانت الدفعة الأولى من الأساتذة والمعلمين، الذين إستقدمهم جول فيري إلى الجزائر، يؤدون واجبه التعليمي في الجزائر بحماس تبشيري، كان له أثر لا يمكن إنكاره وقد كان أبناء الأعيان الذين يرتادون هذه المدارس الفرنسية يعتبرون كأهم رهائن الرأي⁴ لدى هؤلاء الأساتذة والمعلمين. لقد كان هؤلاء ينقلون معطيات الثقافة الغربية التي كانت في تجدد مستمر، إذ كان العلمانيون منهم على السواء يؤمنون بالتقدم وأنوار الحضارة الغربية، التي كانت في نظرهم تمثل الحضارة الأرقى،

1 Piaget, le structuralisme, série "Que sais-je", PUF, Paris 1974, p.94

2 Harbi(M.), L'Algérie et son destin, Arcantère Ed. . Paris 1982, p.26

3 Pervillé, Op. Cit., pp. 113-114

4 Sahli (M-C), Décoloniser l'histoire, Maspéro-Paris 1967, pp.113-114

كما أن كل ما هو خارج عنها كان يمثل لديهم ظلمات البربرية¹. ويظهر أن أغلب المعلمين والأساتذة الفرنسيين خصوصاً كانوا يؤدون خدمة للاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تتمثل في غزو الجزائريين فكرياً وروحياً بواسطة المدرسة². غير أن المجتمع الجزائري لم يكن يقبل بسهولة هذا التوجه الاستعماري، ذلك أن التعليم العربي الإسلامي القائم على تكرار القرآن، كان يجعل كل المتأثرين به يعتقدون أنه ليس هناك علما خارج المصدر الإلهي المتمثل في القرآن الكريم وخارج العلوم المساعدة على فهمه وتفسيره وتطبيقه، أما غير هذا فلا أهمية له. كما أن «الروميين» (=الفرنسيين) قاصرون في مجال الدين، ولذلك فإنهم يستحقون اللوم، لا أن يُقتدى بهم³. وهذا التصور الديني لدى الجزائريين -في نظرنا- هو الذي جعلهم يقاومون الأيديولوجية التي كانت تهررها المدارس الاستعمارية، وتجلى ذلك في "الرفض المدرسي" وهو نوع من المقاومة لثقافة الآخر التي تبرر فرض السلطة على المجتمع الجزائري .

1 Pervillé, Op. cit., p.16

2 Agéron, Histoire de l'Algérie contemporaine(que sais-je ?), p.69

3 Pervillé, Op. cit., p.16

البعد الثقافي لثورة التحرير من خلال مواثيق ونصوص الثورة

الدكتور إسماعيل سامعي

توطئة :

من نافلة القول في البدء أن نحدد المقصود بالبعد الثقافي لثورة التحرير، وهو تحديد فكر الإنسان وتحديث المجتمع الأصيل المتفتح الذي كان الشيخ عبد الحميد بن باديس قد أجمله في العبارات الآتية: "كن عصريا في فكرك وفي فلاحتك وفي عمادك ورقيقك"¹.

فالمواثيق والنصوص هي الوسائل التي ربطت أفراد المجتمع ربطا معنويا وماديا، والثورة في معناها العام المعبر هي التغيير الشامل في الذهنيات والسلوكات وهو الأمر الذي يحتاج إلى جهد ووقت .

ويمكن هنا طرح بعض الأسئلة كإشكالية لهذا الموضوع : ما هي الجوانب الثقافية فيها (بيان أول نوفمبر - ميثاق الصومام وطرابلس - بيانات قيادة الثورة والحكومة المؤقتة)؟ وما تقيمنا لها في ضوء التحولات التي حدثت منذ 1954 ؟ وهل طبقت الأبعاد الثقافية المحددة على المستويين السلوكي والعملي؟ وأخيرا وهو الأهم في ذلك كله هل قام السياسيون وحدهم بصياغة هذه المواثيق والنصوص، أم المثقفون، أم اشترك معا في صياغتها؟ وما نتائج ذلك ؟

1- الشهاب عدد 49 السنة الثانية 23 أوت 1926

تركى رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1969) ص: 253.

البعد الثقافي ----- د. إسماعيل سامعي

فمن الواجب علينا نحن الجزائريون التعمق في دراسة هذه المواثيق والنصوص، والارتقاء بها إلى مستوى عظمة ثورة التحرير الكبرى (54-62)، والتي تعد من أعظم الأحداث التاريخية في حياة الأمة الجزائرية؛ من أجل تحقيق الأهداف الكبرى للأمة منها على الخصوص :

1- تمكين الأجيال الصاعدة من الإطلاع عليها .

2- الوقوف على توضيحات الشعب الجزائري خلال فترة الاستعمار لاسيما الثمن الباهض الذي دفعه - مليون ونصف شهيد - في ثورته الأخيرة.

- الرد الموضوعي والعلمي على الذين حاولوا ومحاولون تزيف معاني الثورة وبطولات الشعب .

4 - تحصين الأجيال الصاعدة ضد فيروسات التزيف والتدجيل .

5 - إحباط محاولات الغزو الفكري عن طريق إحداث الفراغ الروحي والفكري ثم ملئه.

6 - مواجهة تحديات العصر الاقتصادية، والعلمية، والعسكرية في سياق ما يسمى اليوم بالعمولة وديمقراطية الحياة السياسية .

7- المحافظة على أساليب، ووسائل الثورة وتطويرها، واستخدامها في معركة البناء الحضاري. وقد وضع بيان أول نوفمبر الهدف من ذلك، ومما جاء فيه : " فإذا كان هدف أي حركة ثورية في الواقع هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل"1

1 -بيان أول نوفمبر 1959 .، النصوص الأساسية للثورة 1954 - 1962، وزارة

الإعلام والثقافة ص:7

العناصر الثقافية :

سأركز هنا على إبراز العناصر الآتية : الشخصية الوطنية في هذه المواثيق
لاسيما اللغة، والإسلام، والأصالة، والتفتح، أو الحداثة، والتحرر من التبعية
الأجنبية، والتنمية الوطنية .

الشخصية الوطنية :

لا ريب أن التناقضات التي كانت قائمة بين تشكيلات الحركة الوطنية، قد
لعبت دورا في صياغة هذه المواثيق وتضمينها مفاهيم أديولوجيتها منها : الوطنية،
والقومية، والشعب، والأمة، وكلها مفاهيم حديثة غربية هي نتاج مراحل تاريخية
مرت بها أوروبا في العصور الوسطى، وبلورتها صراعات العصر الحديث، واعتقد
أن الذين حرروا أول وثيقة للثورة (بيان أول نوفمبر) كانوا واعين بمدلول هذه
المفاهيم وتأثيرها، فانتقوا منها ما ينسجم مع الأصالة والحداثة : ((أيها الشعب
الجزائري)) واستخدام كلمة : (الشعب) بدل (الأمة) له علاقة بالإطار الواسع
هو الأمة العربية والإسلامية : (إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية ذات السيادة
ضمن المبادئ الإسلامية)¹، فالشعب، والدولة، والديمقراطية، والاجتماعية
والمبادئ الإسلامية، كلها مفاهيم كان الاستعمار عمل طيلة وجوده على محوها
من ثقافة الشعب، وتشويهها في أذهان الجزائريين²، وتجد هذه المفاهيم جذورها
في انقسام المجتمع إبان الاستعمار، وفي ضوء الحركة الوطنية وجدت ثلاث

1 - بيان أول نوفمبر، ص 7 - 8

2 - حيث صارت السياسة تعني الكذب (البولتيك) والدولة تعني (البابلك) أي الذي
لايخدمه — بالمفهوم العام العامي —، ولا ينبغي للجزائري أن يندمج فيها، والشعبية تعني
المتخلفين، والأغلبية الأمية والجاهلة — أحياء شعبية — تعبير شعبي — شعر شعبي؛ فكل ما هو بعيد
عن النظام، والدولة، والعلم فهو شعبي.

طبقات اجتماعية هي : الطبقة الوسطى (البرجوازية)، والتي كانت تسعى إلى حماية مكاسبها، وكان المعبر عنها حركة النواب، والطبقة العاملة (البروليتاريا)، والتي مثلها حزب الشعب، وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وطبقة ثالثة شعبية مهمشة، في ضواحي المدن، والقرى، والبوادي، وهي التي كانت عاملا حاسما في المسار الثوري¹.

والحقيقة أن تصورات هذه المفاهيم يأتي في سياق رد فعل الجزائريين على الوجود الاستعماري الغاشم، ومقاومته، وذلك بالانفصال عن ثقافته، فالثورات التي قامت ضده منذ دخوله أطلق عليها اسم المقاومات، وعند قيام الثورة التحريرية الكبرى وإنشاء أول صحيفة إعلامية أطلق عليها اسم : "المقاومة الجزائرية - لسان حال جبهة التحرير الوطني-)، وذلك قبل أن تختفي وتحل محلها " المجاهد" 2 وقد جاء في العدد الأول منها تحت عنوان (الثورة تسيير ..): " في مثل هذا اليوم من سنة 1954 اندلعت حركة المقاومة الجزائرية...3 وقد استخدمت في مثل هذه المقالات عبارة " العظمى" نعتا لثورة، ولست أدري لماذا اختفت بعد استرجاع الاستقلال لتفتح المجال لعبارات الثورة وحرب التحرير، والكبرى.

إن هذه المفاهيم تدخل في تكوين الشخصية باعتبار أن الثقافة " علاقة متبادلة، أي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في

1 - حربي محمد، الثورة الجزائرية سنوات الحفاص. ترجمة نجيب عباد وصالح المثلوثي (الجزائر: موفم لنشر) ص 1069

2 - المقاومة الجزائرية بيان حال جبهة التحرير الوطني ظهر أول عدد منها يوم الخميس 1 نوفمبر 1956 بشار المجلد 1 لها وزارة الإعلام الجزائر 1984

3 - نفسه

المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد" 1، وقد اكتفى ميثاق أو مقررات الصومام بالإشارة العامة إلى الجانب الروحي للشخصية الجزائرية، والذي كان من شأنه أن قوى اللحمة بين أفراد الشعب، ودعم كفاحه 2.

وهذه المفاهيم بلورتها موانيق ونصوص الثورة فيما بعد؛ فقد جاء في ميثاق طرابلس: "إننا ننتمي حقا إلى الحضارة الإسلامية التي أثرت في تاريخ البشرية تأثيرا عميقا ومستمرا 3

وفي الميثاق الوطني لسنة 1976 تبلورت بوضوح مفاهيم القومية، والوطنية وانتماء الشعب للأمة الإسلامية 4.

الإسلام: مقوم أساسي للشخصية الوطنية وعنصر هام في هوية الجزائري، فبيان أول نوفمبر جعل الإسلام الإطار العام لكل فعل تحرري أو بنائي تشيدي، ويلاحظ أن صحيفة المقاومة لسان حال جبهة التحرير الوطني في معظم أعدادها 19 كانت تخصص صفحة قارة بعنوان: "صفحات خالدة من الإسلام" ذكرت مواقف تاريخية وانتصارات خالدة لتكون قدوة للشعب في كفاحه ضد الاستعمار منها: "بين بدر 642 م وفتح نوفمبر 1954م، وهي مقارنة جد هامة جسء في توطئة الصفحة: "وما الاستعمار في الحقيقة والواقع إلا صخرة كبيرة جائئة في طريق التقدم والرقى في جميع ميادين الحياة، ولذلك نسمع الأمة تدعو أبطالها المكافحين "بمجاهدين"، وتسمي كفاحهم التحرري "جهادا"، فلا نكون إذا نحن

1- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، (ط4، بيروت: دار الفكر،

1984)، ص، 43.

2-التنصوص الأساسية بجبهة التحرير الوطني، ص، 32.

3- برنامج طرابلس، التنصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص، 81.

4- الميثاق الوطني 1976 ص: 23

حاولنا أن نقارن بين بدء هذه الثورة أعني يوم أول نوفمبر 1954، وبين بدء الثورة الإسلامية العظمى، بدر الكبرى مقارنة موجزة في المقدمات، والنتائج¹.

ثم تتعرض هذه الصفحة إلى مواقف أخرى من التاريخ الإسلامي، مثل أسماء بنت أبي بكر أول مجاهدة، وخالد بن الوليد، ووفتحات خالدة من الإسلام: السلام والإسلام، والحنساء، وخولة بنت الأزور، والبطل الخالد، والإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس في ذكره السابعة عشرة؛ لكن هذه المقالات تختفي باختفاء المقاومة، وتأسيس صحيفة "المجاهد اللسان المركزي لجهة التحرير الوطني" عام 1957، وتظهر بعض مصطلحات المعسكر الشرقي مثل الاشتراكية، والثورة من الشعب وإلى الشعب، والحركة العمالية، والثورة، والتضال العالمي، ويستقط فيها التاريخ المجري، الذي كان يكتب في أعلى مربع الصفحة الأول في المقاومة، كما تخلو النصوص الصادرة عن مجلس الثورة، ولجنة التنسيق والتنفيذ، والحكومة المؤقتة من الإشارة إلى دور الإسلام في نجاح الثورة، رغم أن أول بيان للحكومة المؤقتة أشار بوضوح إلى انتماء الجزائر العربي والإسلامي، وإلى الميراث البديع من الحضارة العربية الإسلامية².

والسؤال هل عكس ميثاق الصومام تصور بيان أول نوفمبر للدور الإسلام في تحديد مفهوم الثقافة الوطنية؟ إن ميثاق الصومام لم يستخدم بوضوح مفاهيم بيان أول نوفمبر، فاكتمى بصيغ الآخر المقدس في نفسه عندما تحدث عن الإسلام، قال: "و الديانة الإسلامية قد انتهكت حرمتها، ومسخ وجهها السمع

1 - صحيفة المقاومة، العدد 2 بتاريخ 15 نوفمبر 1956، 12 ربيع الثاني 1376 ص 02

2 - أول تصريح للحكومة المؤقتة عن منهاجها السياسي، المجاهد، العدد، 30، الصادر بتاريخ 10/1958، ص.6.

بتسخير القائمين عليها، واستجارهم من طرف الإدارة الاستعمارية¹، وهو نفس الخطاب الذي نسمعه في السنوات الأخيرة من ساسة العالم، وتنقلسه الصحف، ووسائل الإعلام.

اللغة العربية :

اللغة عنصر هام في تكوين الشخصية الوطنية ومقوم أساسي لها، وكانت من أوائل الرموز التي استهدفتها الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر عام 1930. حيث ضمت العشرات من ذوي الأقلام، والثقافة، والأدب إلى جانب القسيسين ورجال الدين والتقنيين والمهندسين بالإضافة إلى وسائل الدعاية والنشر الحديثة، حيث نصبت أول مطبعة فوق أرض الجزائر يوم 27 جوان 1830 في أعالي العاصمة والتي حملت اسم (غوتنبرغ) ثم دعت بمطبعة "المرابط"، والعاصمة لم تسقط بعد 2، ثم دعت الحملة بالقوانين المدنية، والاقتصادية المحفزة، وإذا تجاوزنا جهود الجزائريين إبان الحركة الوطنية لاسيما جهود جمعية العلماء المسلمين في هذا المجال، فإن موائيق ونصوص الثورة لم يغب عنها هذه الحقائق لذلك لم يخلو أي ميثاق من الحديث، والإشارة إلى موضوعي اللغة، والإسلام، ومكانتهما في تاريخ الأمة والشعب.

فإن أول نوفمبر أشار بوضوح إلى الإسلام كإطار أساس للكفاح المسلح رغم أن البيان كان بيانا إعلاميا أكثر منه وثيقة إيديولوجية، لكنه لم يتحدث عن اللغة العربية كوعاء للثقافة، وأداة للتواصل، لكن وثيقة الصومام تحدثت عن خنق الاستعمار للغة العربية التي هي اللغة القومية، لغة الأغلبية الساحقة من السكان،

1 - ميثاق الصومام، النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني 49,50

2- سيف الإسلام، الزبير، تاريخ الصحافة في الجزائر (الجزائر: المؤسسة الوطنية

للكتاب، 1985) ج1، ص: 15، 8,6

وأشار إلى تشييت شمل الأساتذة، والطلاب، وباغتصاب الأوقاف 1، وقد تحدث الميثاق عنها من زوايا ثلاثة هي:

الزاوية التاريخية

زاوية القومية دون تحديد لمعناها.

زاوية لغة الأغلبية الساحقة من السكان، ولست أدري ما المقصود بذلك؟ الأغلبية المسلمة دون الأقلية الأوربية؟ أم أقلية من الجزائريين أنفسهم.

إن هذه النظرة الضبابية وضحها ميثاق طرابلس، تحت عنوان قيم من أجل مفهوم جديد للثقافة فقال: "إن دورها كثقافة وطنية يتمثل في مرحلة أولى في إعطاء اللغة العربية المعبرة الحقيقية عن القيم الثقافية لبلاذنا كرامتها، ونجاعتها كلفة حضارية 2.

والحقيقة أن ميثاق طرابلس كان يؤسس لإيديولوجية تكون قاعدة انطلاق لبناء الدولة، حيث جاء الميثاق في مرحلة كانت فيها الجزائر تستعد لاسترجاع استقلالها، وقد حددت وثيقة طرابلس بكل وضوح البعد الثقافي في بناء الدولة: "والثقافة الجزائرية بهذا المفهوم يجب أن تكون الرباط الحي والضروري بين الجهد العقائدي (الإيديولوجي) للثورة الديمقراطية، وبين المهام العملية واليومية التي يتطلبها تشييد البلاذ 3 والخلاصة أن اللغة في هذه الموائيق تعني كرامة الشعب ولحمته، والثقافة الرباط الحي بين الجهد الفكري والعقائدي للأمة، والجهد العملي. وفي هذا السياق حدد ميثاق 1976 أهداف ثلاثة للثقافة:

1- ميثاق الصومام، النصوص الأساسية الأساسية لجهة التحرير الوطني، 1954 - 1962، ص: 49، 54، 62، 50.

2 - ميثاق طرابلس النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني، 1954 - 1962، ص: 80

3- نفسه ص: 80

1. التأكيد على الهوية الوطنية وتقويتها، وتحقيق التنمية الثقافية بجميع أشكالها.
 2. الرفع الدائم لمستوى التعليم المدرسي والكفاءة التقنية.
 3. اعتماد أسلوب في اتجاه ينسجم مع مبادئ الثورة الاشتراكية،
- و يضاف إليها:

1. أن الثقافة أداة لاكتساب الوعي الاجتماعي، والعمل الملائم في سبيل تحويل البنايات الاجتماعية البالية المصحفة.
 2. ألما نضال منظم، ومعباً للقضاء على التخلف الاجتماعي، والاقتصادي للبلاد.
 3. ألما جهد تربوي واع يرمي إلى محاربة كل الأحكام المسبقة المتعلقة، بالعرق أو الطبقة، أو الجنس، أو المرتبطة بالعمل اليدوي.
- التعليم والإرشاد :

إن التربية هي حجر الزاوية في أي بناء محكم ¹ لذلك أولت الحركة الوطنية اهتماما خاصا بالتعليم والإرشاد فكان لجمعية العلماء المسلمين دورها في هذا المجال بتأسيس المدارس، والقيام بالإرشاد الديني والاجتماعي في المساجد، والنوادي، وتشجيع تأسيس فروع الكشافة الإسلامية، كما كان لحزب الشعب مدارس، وجهت ثورة التحرير الكبرى 54-1962، عنايتها إلى هذا المجال الحيوي بالنسبة لثورة المسلحة، وللدولة التي ستقام بعد استرجاع السيادة، وقد تجلّى هذا الاهتمام في الآتي :

في الداخل :

فقد ركزت الثورة نتيجة صعوبة الكفاح، وضغط العدو، اهتمامها بالتعليم أحد ركائز الثقافة الوطنية على ثلاثة عناصر قاعدية :

1- تشجيع إقامة الكتاتيب القرآنية في القرى والمداشر، والدواوير والإشراف عليها، وتحمل نفقاتها، وهو العمل الأول للثورة في إرساء قاعدة مجانية التعليم.

2 - الإعلام، حيث قام المكلفون بالإعلام والتوجيه في تنظيم الثورة بحركة توعية، وذلك بواسطة الخطب، والمنشورات، والأناشيد التي تمجد بطولات جيش التحرير، وتبرز مآثر كفاح الشعب، ومراقبة السلوكات المنافية لأخلاق الإسلام، والحث على إقامة الصلوات وغيرها.

3- المجالس الشرعية (القضائية) وهي المعروفة بـ (الجماعة) للفصل في الخصومات، وتقسيم التركات، وتسجيل عقود الزواج، والقيام بالتوجيه الديني، حيث انتدبت لذلك معلمي القرآن، وبعض الشيوخ ممن لهم مستوى من العلم الديني.

في الخارج :

والأمر هنا كان أكثر تنظيما وتطورا وهو كالاتي:

1- إقامة مدارس ابتدائية في أماكن وجود اللاجئين الجزائريين في الحدود مع المغرب وتونس، ففي تونس كانت توجد أكثر من 20 مدرسة ابتدائية يؤطرها أكثر من 100 مدرس، ويؤمها حوالي 700 تلميذ، وكان الهدف من هذا التعليم، هو نحو الأمة ونشر الوعي، وربط الجيل الجديد بثقافته الوطنية.

2- أما في مجال التعليم العالي فقد اهتمت الثورة بذلك، وفق توجيه محدد يرمي إلى تكوين إطارات المستقبل حيث بلغ عدد الطلبة سنة 1959-1960 حوالي 312 تلميذا ثانويا في أربعة دول عربية هي مصر وسوريا، والكويت، والعراق، وحوالي 203 طالبا جامعا موزعين على تخصصات الآداب، والحقوق، والعلوم الزراعية، والتجارة، والطب، والهندسة، والفنون، ودراسات عليا¹.

1- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، (الجزائر شون: 1980)، ص، 479.

وفي أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية أنشئت وزارة للشؤون الثقافية، ورغم أن أول إهتماماتها كان الإشراف على التعليم¹ فإن هدفها البعيد هو ربط الأجيال الصاعدة بثقافة وطنها أينما كان هؤلاء لتنسجم سلوكياتهم مع تقاليد شعبهم، وطموحاته، لاسيما في إعادة بناء منظومة تربوية تعليمية ثقافية، فمنهاج الصومام أشار إلى عنصرين في هذا المجال، وهو تكوين المعلم، أو الأستاذ الضامن الأساسي لنقل المعرفة للأجيال وتغذيب سلوكياتهم، وتأمين العلاقة بين أفراد المجتمع والإنفاق على التعليم والتثقيف من خلال حديثه عن اغتصاب الاستعمار للأوقاف التي كانت المورد الضامن لمجانية التعليم قبل الاحتلال في مؤسسات التعليم آنذاك الزوايا والجماعات، وهو ما يتحقق بعد استرجاع السيادة الوطنية حيث تصبح مجانية أو ديمقراطية التعليم أحد ركائز التثقيف في الجزائر.

تكريس مبدأ الأصالة والتفتح:

لقد ركزت جل مواثيق الثورة ونصوصها على إبراز أصالة الشعب الجزائري، واتمته الحضاري العربي الإسلامي، وفضح أساليب التشكيك الاستعماري، حيث جاء في وثيقة منهاج الصومام: "وهل يعقل أو يمكن تغيير جنسية شعب لمجرد غزو بلاده واحتلالها من طرف جيش أجنبي"²، وكان بيان أول نوفمبر قد أكد على أن الثورة الجزائرية هي ثورة ديمقراطية شعبية جاءت لتقضي على الظلم، والتهمر وعلى المظاهر السلبية في المجتمع، والناجمة عن ظروف تاريخية استعمارية كالقبلية والجهوية، وتخلّف المرأة، والجهل العام، والعوائق الاجتماعية، ومخلفات الإقطاع المعادية لتقدم المجتمع، وقد وضع ميثاق الصومام

1- يمكن الرجوع إلى حياة كفاف لأحمد توفيق المدني، ص 464 خاصة وأن المؤلف كان وزيرا لها عندما أنشئت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بالقاهرة في 19-9-1958.

2- نصوص جبهة التحرير الوطني 54-62 ص 74

آفاق المستقبل بتشييد دولة عصرية وتنظيم مجتمع ثوري يفرضان اللجوء إلى طرق ومقاييس عملية في المجالين النظري والعمل¹، ويبدو هنا القفز على ما حدده بيان أول نوفمبر لقيام الدولة في إطار المبادئ الإسلامية، كما يظهر الاهتمام بالافتتح أكثر من الأصالة، لذلك خلا ميثاق الصومام من الإشارة إلى دور الإسلام، والتعليم، والتثقيف مع إشارته إلى ضرورة تحرير المرأة، والحركة العمالية، وركز ميثاق طرابلس على مسألة التعاون الدولي الذي من شأنه تقوية استعمال كافة المصادر المادية، والبشرية من التقدم في جو من السلام²، فتكريس مبدأ الأصالة والافتتح في الثقافة الجزائرية انطلق من هذه المواثيق، والنصوص؛ ومن التفاف العالم الثالث والثاني حول الثورة ومد يد العون لها.

التحرر من التبعية الأجنبية :

عملية التحرر بالنسبة لثورة الجزائرية عملية شاملة متكاملة ولعل مصطلح الثورات الثلاث الصناعية، والزراعية، والثقافية تجسيد لهذا التوجه للثقافة الوطنية، الذي كرس خلال ثورة التحرير، يتبين من خلال المواثيق والنصوص وتطبيقها الميداني، فالبعد الثقافي هنا مرتبط بالتحرر يقول أحمد طالب الإبراهيمي: "إن الثورة الثقافية لا تتحقق إلا إذا تحققت الثورة في حد ذاتها"³ فالتحرر يبدأ في الأفكار ثم ينعكس على السلوكات فيتسرخ في الشعور والا شعور حتى لا يحصل التناقض، وتقع الردة، ولكي لا نكون مستعمرين يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار، كما يقول الأستاذ مالك بن نبي⁴، وفي السياق نفسه وهو يتحدث

1- نفسه

2- ميثاق طرابلس نصوص جبهة التحرير الوطني 54-62، ص 96

3- من قصية الإستعمار إلى الثورة الثقافية، الجزائر، ش، و، ن، ت، ص 259

4- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، (دمشق: دار الفكر 1981/1401)، ص 37.

عن الحركة النقابية في الجزائر جاء في ميثاق الصومام : " إن الطابع الوطني يسود في حرية ذاتية أساسية تقضي على جميع التناقضات التي تلازم كل وصايا أجنبية، وهذا لا يتم إلا بتحجيد الإمكانيات البشرية الوطنية، لاسيما المثقفون وأصحاب المهن وتسد إليهم بطريقة حكيمة صائبة معينة ومحددة في الميدان الذي يمكنهم أن يقوموا فيه بعمل نافع مفيد كالأعمال السياسية، والإدارية، والثقافية، والصحية، والاقتصادية وما إلى ذلك.¹

وحدد ميثاق طرابلس بكل وضوح مهمة الثقافة الوطنية في تحقيق التحرر من التبعية الأجنبية وذلك بمحاربة الهيمنة الثقافية والتأثير الفردي للذين ساهموا في تلقين الكثير من الجزائريين احتقار لغتهم وقيمهم الوطنية² والتحرر لا يكون بالكلام، ولا بالنصوص، والمواثيق، والقوانين، ولكن بالعمل الميداني، وإقامة هياكل ومؤسسات وطنية، وتكوين أفراد مجتمع جديد متطور فكريا متمكن من بواطن الأمور ومقاصد الأشياء وهو ما جعل الثورة تبادر إلى إنشاء الصحف إحدى وسائل الإعلام الهامة، في بداية انطلاقها ((المقاومة، والمجاهد) والإذاعة، وإنشاء مسرح فني، وسينما جزائرية، وفرق رياضية، وكشفية، ومنظمات طلابية، وعمالية، ونسوية وحرفية، لأن عملية التحرر شاملة لكافة شرائح المجتمع انطلاقا من تغير الذهنيات والسلوكات.

رؤية مواثيق الثورة للتنمية الثقافية :

التنمية الثقافية عملية كبرى، وطويلة، ومتشعبة، وهي قدر مشترك بين الشعوب والأمم، وإحدى الوسائل الناجعة لأحداث التغيير، وهي لا تعني الزيادة الكمية بل النوعية لأنها تؤدي إلى تكوين وسائل جديدة ومتطورة للعمل تمكن من

1-نصوص جبهة التحرير الوطني 54-62ص ، ، 74 .

2- نصوص جبهة التحرير الوطني ص: 54 - 62

رفع المستوى الثقافي والاقتصادي للفرد والمجتمع، كما نتخذ من هجرة العقول بآتاحة الفرصة لها للإبتكار في بلادها، وموائيق ونصوص الثورة لم تهمل هذا الجانب، وحرصت على ترسيخه في ثقافتنا الوطنية، وذلك باسترجاع ودمج المثقفين بما يستجيب ومؤهلهم وحيث سيتفاد منهم في التنمية الثقافية المنشودة ثم تأتي الاستفادة من الطاقات الأجنبية.

كما ركز برنامج طرابلس على التنمية الثقافية الوطنية سواء في مجال إحياء التراث، والثقافة الشعبية، أو مجالات التربية، والتعليم، والتكوين قصد تكوين إطارات كافية، وقادرة على تسيير شؤون الشعب الاقتصادية، والاجتماعية، وذلك بـ :

01 - استعادة الثقافة الوطنية والتعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية .

02 - المحافظة على التراث الوطني للثقافة الشعبية.

03 - توسيع النظام المدرسي بدخول الجميع إلى كل مستويات التعليم.

04 - حراة البرامج بتكييفها مع واقع البلاد .

05 - توسيع وسائل التربية الجماهيرية، وتعبئة كافة المنظمات الوطنية بمحاربة الأمية، وتعليم القراءة، والكتابة لكل المواطنين، وهذا في أقرب الآجال.

وبهذا تتمكن الثورة من توفير الكمية، والنوعية في الوسائل الثقافية، خاصة التربية لإحداث التغيير المنشود. لكن هذا لا يعني الانغلاق على النفس، بل اعتبرت النصوص التعاون مع الشعوب والدول في كافة المجالات سلوك حضاريا، وتوطئة الثقافة المتطورة باعتبارها ضرورة لما طرح في باب النضال من أجل التعاون الدولي جاء في ميثاق طرابلس : " إن التعاون الدولي أمر ضروري لاستعمال كافة المصادر

المادية، والبشرية من أجل التقدم في جو من السلام" ¹، والتعاون رابطاً روحياً يقرب الشعوب من بعضها، ويحد من حدة التوتر العالمي، ويضيف ميثاق طرابلس في مجال طبيعة التعاون، وكيف يكون: "فدعم الروابط مع بلدان آسيا، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وتطوير المبادلات في كل الميادين مع البلدان الاشتراكية، وإقامة علاقات مع كل الدول على أساس المساواة، والاحترام المتبادل للسيادة الوطنية" ²، ذلك أن السيادة الوطنية مكسب تاريخي لشعبنا دفع فيه غمنا غالباً عبر مسارة التاريخ الطويل.

صياغة ميثاق الثورة ونصوصها:

السؤال الذي سبق وأن طرحناه هو: من صاغ هذه النصوص؟ هل هم السياسيون، أم المثقفون، أم هما معاً؟

ليس لدينا من الوثائق التي تحدد من صاغ هذه الميثاق والنصوص، ولكن الذي يبدو أن السياسيين كانوا هم من يتولى تحديد الأهداف، والعناصر، والمثقفين يقومون بصياغة ذلك وفق منظور تاريخي، وفلسفي، وثقافي، لكن من هم هؤلاء المثقفون؟ وبأي لغة كانوا يفكرون ويكتبون؟ تلك أسئلة هامة تحتاج إلى تدقيق في الإجابة عنها. غير أن تأثير السياسيين كان هو الأقوى والمتجلي في مضامين الميثاق والنصوص. فهل معنى هذا أن السياسيين كانوا يقودون المثقفين؟

1- نصوص جبهة التحرير الوطني، 54-62، ص، 69.

2- نفسه.

البعد الثقافي ----- د. إسماعيل سامعي

والحقيقة هي كذلك، حيث يلمس في مضامينها الاختلاف الأيديولوجي عندما تتناول بالتحليل موضوعات غير خاصة بالكفاح الثوري المسلح، فهيمنة السياسي تكونت خلال الحركة الوطنية، وتبلورت خلال ثورة التحرير، وترسخت بعد استرجاع الاستقلال الوطني عندما دخل الساحة عامل الإدارة فصار الإداري يهمن على العلمي، لذلك ظل المثقف يتبع السياسي فجاءت نتائج المثقف مشوهة لم ترق إلى مستوى أحداث التغيير في السلوكات، والذهنيات، وفي الأعمال الميدانية، ظهر ذلك جليا في الأعمال الظرفية حيث لم تكتب رواية رائعة تحدث التغيير، ولم يعد النظر في كتابة تاريخنا الذي شوهه المستشرقون والكتاب الفرنسيون، ولم تنجز أعمالا فنية في مستوى عظمة الثورة، وعبقريّة الشعب، وحتى المؤسسات الثقافية التي شيدت تهاوت بمجرد تغير السياسيين لرؤيتهم لمتنهاد التنمية.

واعتقد بأنه بالرغم من النقائص المسجلة على هذه النصوص فإن الظروف التي صيغت فيها وصدقها مازالت أكبر مما كتب، أو أنجز، وتحتاج إلى وقفات أخرى أشمل وأعمق، ولا يتأثر ذلك إلا بتحرير المثقف الذي يبدو لي أن حريته صودرت منه منذ 1956 ؛ ومنذ أن تحولت صحيفة المقاومة إلى جريدة المجاهد.

الباب الثاني

دراسات أدبية



التقسيم الثلاثي للكلم في العربية "علمية وأصالة المصطلح"

الأستاذة ذهبية بورويس

درج النحاة القدماء على تقسيم الكلم في العربية إلى ثلاثة أقسام، تمّ تحديدها بالمصطلحات الآتية: اسم، وفعل، وحرف، ولعلّ الوقوف على أصالة هذه المصطلحات، يلخص كثيراً من موضوعاتها، ويجعلها بعيدة عن مهاوي الانحراف، بما له علاقة بالظواهر اللغوية والنحوية.

إنّ هذه الأجزاء الثلاثة أصل من أصول التفكير العربي الذي نتاج جهد علمي دقيق ومنظم، أسس لعلم النحو فوضعه في عناصره المتكاملة مبنية ومفصلة.

وإذ يعنى بأصالة هذه المصطلحات فالتأثير الذي أمد العربية بالركائز التي قام عليها التراث اللغوي، ولا أحد ينكر مدى إسهام الأوائل في الإجماع على هذه المصطلحات بعد استقراء وتحليل أقرنهما مصادر التأريخ النحوي واللغوي، وأثبتتهما المصنفات والمصادر المتخصصة، يقول ابن هشام عن هذه الأقسام "الدليل على انحصار أنواعها في هذه الثلاثة الاستقراء، فإن علماء هذا الفن تتبعوا كلام العرب، فلم يجدوا إلا ثلاثة أنواع، ولو كان ثمّ نوع رابع لعثروا على شيء منه"¹.

ويذهب بعض المحدثين إلى النظر إلى ذلك التقسيم بعين الرّدّ والانتقاد بحجة أنّ هذه المصطلحات لم تحقق الشمول والاستيعاب، وهما شرطان مطلوبان في تقييد المصطلح، لذلك حاول هؤلاء إيجاد بدائل ظنوا أنّها مستوعبة لأنواعها، فجاوزوا بأقسام رباعية، وأخرى سباعية... دعت إلى طرح التقسيم الثلاثي القديم بأدلة تستند إلى قراءات جديدة لأقوال ونصوص وأمثلة العلماء الأوائل، ومن هذه القراءات ما

1- شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، (1418هـ).

التقسيم الثلاثي للكلم _____ أ. ذهبية بورويس

نقى عن التقسيم الثلاثي للكلم أصالة المصطلح، ومنها ما ادعى عدم تحقق صفتي الشمول والاستيعاب في مصطلحات ذلك التقسيم، ومهما يكن من تباين في القراءات والآراء، فكلها، تتفق على رد حدود ثلاثية ذلك التقسيم.

1- التقسيم الثلاثي للكلم عند القدماء:

يتفق جمهور النحاة القدماء على تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف؛ ولعلّ البداية كانت مع الجهود الأولى لأبي الأسود الدؤلي، إذ يقال: "إنّه أول من سطر في كتاب الكلام، اسم وفعل وحرف جاء لمعنى"¹، ولم تكن هذه التسميات تداعيات غير مؤسسة، وإنما أجمعت كل كتب الطبقات والتراجم على شرف التواضع عليها²، لأجل الحفاظ على اللغة العربية من تفشي اللحن فيها، فكانت المبادئ الأولى لعلم النحو، نابعة من لغة فطرية، سليقة متأصلة في غرائز أهلها³، كشف عنها الاستقراء والوصف الدقيق اللذان تميزت بهما صناعة النحو⁴، وأول مصدر يعتد به في التأصيل لمصطلحات أقسام الكلمة في العربية كتاب سيبويه، الذي صدره بالحديث عن تلك الأقسام لتكون أساساً لجميع الظواهر النحوية فقال: هذا باب علم ما الكلمة من العربية: "فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل: فالاسم رجل وفرس وحائط..."

1- الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق: د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط5، (1406هـ - 1986م)، ص89.

2- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، (د.ت)، ص11، 12.

3- انظر، المناظرة التي جرت بين متى بن يونس وأبي سعيد السمراني في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)، 1/114-117.

4- المقدمة لابن خلدون دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص604.

وأما الفعل، فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع.

فأما بناء ما مضى، فذهب وسمع... وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك أمراً، اذهب واقتل... ويقتل... وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن، إذا أخبرت.

وأما ما جاء لمعنى، وليس باسم ولا فعل فنحو ثم، وسوف، وواو القسم ولام الإضافة، ونحوها¹.

لقد أصبحت هذه الأقسام كالمسلمات التي لا رجوع عنها، ووفق هذه المصطلحات، سارت القواعد النحوية لتصبح موزعة في الكتاب على أكثر من خمس مائة باب اتخذها النحاة واللغويين مادة لتأليفهم، فزادوها إبانة وتحليلاً، فالمرّد يقول: "فالكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، لا يخلو الكلام عربياً أو عجمياً من هذه الثلاثة"²، أما ابن السراج، فينتقل من تحديد هذه الأقسام إلى إيضاح الفروق بينها من خلال العلاقة القائمة بين هذه الوحدات في بناء الكلام الذي يتألف عنده من "ثلاثة أشياء، اسم وفعل، وحرف... فالاسم قد يتألف مع الاسم نحو قولك <<الله إلهنا>> ويتألف الاسم والفعل نحو <<قام عمرو>> ولا يتألف الفعل مع الفعل، والحرف لا يتألف مع الحرف، فقد بان فروق ما بينهما"³.

والمتتبع لكتب النحو واللغة يجد هذه المصطلحات <<اسم وفعل وحرف>> واردة كما وصفها سيبويه في مصادر الكوفيين كذلك، ولم يكن نزوع المخالفة دافعاً إلى ردها، أو الزيادة عليها، فالدرس اللغوي الكوفي اتبنى عليها، فقد

1- الكتاب لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، (1408هـ - 1988م) ص1/12.

2- المختضب للمرّد، تحقيق محمد عبد الحائق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، 3/1.

3- الأصول في النحو لابن السراج، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، (1408هـ - 1988م)، 1/36...41.

ثبت في مواضع كثيرة من كتاب معاني القرآن للفراء ذكر هذه الوحدات الثلاث متأثرة بتسمياتها، ولم يعدل الفراء عن هذه المصطلحات إلا حينما جرّه منهاج اللغوي، إلى استعمال كلمة <<أداة>> مرادفة ومفسرة لمصطلح <<حرف>> دون رده أو انتقاده لهذا المصطلح، ولم يغير هذا البديل من إيراد المصطلحات الثلاثة الأولى، لأنها مسميات انبثت عليها الأصول النحوية التي استندت إليها كل علوم العربية، يقول الزجاجي: " فأول ما نذكر من ذلك إجماع النحويين على أن الكلام اسم وفعل وحرف، وحقق بذلك وسطره في كتابه سيبويه والناس بعده، غير منكرين عليه ذلك...¹، ففي عبارتي: <<حقق القول>> و <<الناس بعده غير منكرين عليه ذلك>> دليل واضح على أن هذه المصطلحات نتاج تحقيق واستقراء علميين، لا يمكن أن يثمرا غيرها، لذلك قال ابن فارس: " أجمع أهل العلم أن الكلام ثلاثة اسم وفعل وحرف...³ "

لقد ورد في النصين معنى الإجماع مفيدا إنزال هذه المصطلحات لفظا وعددا وترتبا متولة المتفق علبه أصالة وتحقيقا، ولذلك ترددت هذه المصطلحات في مصنفات النحويين واللغويين المتأخرين، وهم على تنوع مشاربهم ومناهجهم، لم يعدلوا عن هذا التقسيم، ولم يزيدوا عليه شيئا، ولعلّ واحدا مثل عبد القاهر الجرجاني، وهو الذي أمعن النظر في تلك الأجزاء متألّفة، ما كان ليتخذها منطلقا لبناء نظريته، لو لم تكن شاملة وجامعة لدلولاتها، فالكلم عنده ثلاث: " اسم وفعل

1- معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نحاس، وعبد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلي، الهيئة العامة للكتاب، (1972م)، 3/84، 85.

2- الإيضاح في علل النحو، ص 41.

3- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها لابن فارس، تحقيق: د. مصطفى الشوملي، منشورات مؤسسة بدران، بيروت، لبنان، (1383هـ - 1963م)، ص 82.

التقسيم الثلاثي للكلم _____ أ. ذهبية بورويس

وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام، تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بحرف¹.

أمّا ابن مالك فقد فصل بين هذه المصطلحات الثلاثة بما يميّز كل قسم بمسماه فقال: "ثمّ الكلمة إن لم تكن ركن الإسناد فهي حرف، وإن كانت ركناً له، فإن قبلت الإسناد بطرفيه فهي اسم، وإلاّ فهي فعل"².

2- حدود مخالفة القدماء للتقسيم الثلاثي للكلم:

لقد وعى المتأخرون بعد سيبويه هذه الأجزاء الثلاثة بمسمياتها، فبنوا عليها آراءهم، ولم تكن في أفواهم مغايرة للتقسيم والمصطلحات التي جاء بها سيبويه، وإنما كانت هناك مخالفة في تقييد وتفسير دلالة كل مصطلح، وبخاصة في أثناء حديثهم عن القسم الثالث أي الحرف؛ فقد ثبت عندهم أنه ما دلّ على معنى في غيره³، وهذا "...أمثل من قول من يقول ما جاء لمعنى في غيره، لأن في قولهم ما جاء لمعنى في غيره إشارة إلى العلة، والمراد من الحدّ الدلالة على الذات، لا على العلة التي وضع لأجلها، إذ علة الشيء غيره"⁴.

1- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تصحيح الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ - 1988م)، صف.

2- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، (دت)، وانظر شرح شذور الذهب، في معرفة كلام العرب لابن هشام، منشورات دار الفكر، (دت)، ص13.

3- انظر. الإيضاح في علل النحو، ص54، والمفصل في علم العربية للزمخشري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، (دت)، ص283.

4- شرح المفصل لابن يعيش، تصحيح وتعليق: مشيخة الأزهر، إدارة الطباعة المنيرية، مصر (دت)، 2/8.

ولعل الأمر الذي أوقع بعض اللغويين المحدثين في النظر إلى هذا التقسيم بعين الردة والانتقاد هو ما ذهب إليه القدماء من الأخذ على سيبويه، بأنه لسم يضع حداً لكل قسم، واكتفى بالتمثيل والوصف، لأن الحد يجب أن يكون مطّرداً، ومنعكسا على مسماه¹، فهو "عند النظر ما لم يزد المحدود ما ليس له، ولم ينقصه ما هو له"²، إذ هناك من الألفاظ ما أشكل ضمه إلى قسم من الأقسام الثلاثة مقيدة بوصفها وخصائصها؛ فمثلاً إذا كان الاسم يُخبر عنه "فليس الإخبار بمطّرد في جميع الأسماء، لأجل أن كيف وأين ومتى وإذ، وما أشبه ذلك أسماء بلا خلاف، والإخبار عنها ممتنع، وإذا تقرر هذا علمت أن قوله فما جاز الإخبار عنه وصف للاسم وليس بحد"³، وكذا قول سيبويه: "الاسم نحو رجل وفرس وهذا عندنا تمثيل وما أراد سيبويه به التحديد..."⁴.

فالخلاف إذن ليس في المصطلح، وإنما في تباین لفظ حدّه وإلى هذا ذهب الزجاجي حيث قال: "فإن قال قائل: لم يختلف النحويون في تحديد الاسم والفعل والحرف؟ وهل يجوز أن يختلف الحد إذا كان قولاً وجيزاً، يدل على طبيعة الشيء الموضوع له عند الفلاسفة؟ الجواب أن يقال، إن الحد لا يجوز أن يختلف اختلاف تضاد أو تنافر، لأن ذلك يدعو إلى فساد المحدود وخطأ من يحدّه، ولكن ربما اختلفت ألفاظه على حسب اختلاف ما يوجد منه"⁵.

- 1- المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق، د. كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، العراق، (1982م)، 70/1.
- 2- الصاحبي، في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص85.
- 3- المقتصد في شرح الإيضاح، 70/1.
- 4- الصاحبي، في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص82، وانظر. الإيضاح في علل النحو ص49.
- 5- الإيضاح في علل النحو، ص46.

3- تقسيم الكلام عند المحدثين:

أراد سيبويه حينما تحدث عن علم ما الكلام من العربية أن يتخذ من هذا التقسيم منطلقاً لوصف اللغة بالوقوف على قواعدها التي عرفها العرب سليقة ونقلها سيبويه عن السنة الفصحاء وعن شيوخه وعلى رأسهم الخليل¹؛ وكانت هذه البداية أول تأسيس اصطلاحى للفكر النحوي الذي تخلص من الشمولية والتعميم، ومن التداخل في الظاهرة النحوية الواحدة، وعلى الرغم من ذلك فقد انتقد كثير من المحدثين هذا التقسيم، وذهبوا إلى نعتة بعدم الشمول والاستيعاب، كما وسمه إبراهيم أنيس بالاضطراب لاختلاف العلماء في تعريف كل قسم، وبيان علاماته، ومرّد هذا الاضطراب إلى كون هذه الأقسام غير قادرة على احتواء جميع أجناس الكلمة، لأنها ليست من ابتداع العلماء العرب، فقد قنعوا "... بذلك التقسيم الثلاثي من اسم وفعل وحرف متبعين في ذلك ما جرى عليه فلاسفة اليونان وأهل المنطق من جعل أجزاء الكلام ثلاثة سموها: الاسم والفعل والأداة"².

ويخلص الدكتور إبراهيم أنيس إلى موافقة المحدثين الذين أوجدوا تقسيماً رباعياً متمثلاً في الاسم والضمير والفعل والأداة وحكم عليه بـ "... أنه أدق من تقسيم النحاة الأقدمين"³.

ولسنا ندري لماذا أخرج الضمير من طائفة الأسماء، فإن كان سيبويه لم يمثل له، فلأنه لم يقصد الحصر، واكتفى بالكلمة التي يقاس عليها لا بوجوهها المتعددة في الاستعمال؛ أمّا إيراد كلمة <<أداة>> بديلاً لمصطلح <<حرف>> فقبل

1- النحو العربي، دراسة نصية، صابر بكر أبو السعود، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (1987)، ص46، وانظر. طبقات النحويين واللغويين للريدي، ص66.

2- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7، (1985)، ص279.

3- المرجع نفسه، ص282.

كونها مصطلحاً كوفياً¹، فهي اصطلاح يوناني، كما تشير إلى ذلك كثير من المصادر، لأن الحروف في عرف استعمال العرب هي التي يسميها نحويو اليونان الأدوات...²، فالحرف إذن دون سائر المسميات البديلة الأخرى أكثر أصالة وشيوعاً ودقة من حيث الدلالة اللغوية والاصطلاحية.

ويذهب الدكتور مهدي المخزومي المذهب نفسه في إيجاد تقسيم رباعي، لأن التقسيم القلّم لا يستوعب في ظنه كل أصناف الكلمة فيقول: "... هناك كلمات لا ينطبق عليها تعريف الأسماء، ولا تعريف الأفعال، ولا تعريف الأدوات، ولم يعرض لها سيويه، أو يشر إليها في تقسيمه، أو ينصّ عليها في غنيله لأقسام الكلمة... كلمات مبهمة... ولم تكن الكلمات المبهمة إلاّ إشارات أو كنايةات..."³، وأمام حيرته في تصنيف ما حسبه خارجاً عن حدود الأقسام الثلاثة جاء بتقسيم رباعي بدأ فيه بالفعل ثم الاسم وذكر بعدهما الأداة والكناية⁴.

وبالنظر إلى ما جاء به نجده قد خالف التقسيم القلّم عدداً وترتيباً، فبدأ بالفعل وأخر الضمير أي ما عناه بالكناية فبدأ جلياً نزوعه الكوفي في تبنيه الفعل كأصل أول في الاشتقاق، مع امتهاله للمصطلحات الكوفية من خلال مصطلحي

1- انظر. دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للقرّاء/ المختار، أحمد ديرة، دار قتيبة، بيروت، دمشق، ط1، (1411هـ - 1991م)، ص274.

2- الحروف للفراي، تحقيق: د. محمود حسني ود. محمد حسن عواد، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1، (1403هـ - 1983م)، ص28.

3- في النحو العربي، قواعد وتطبيق، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، (1406هـ - 1986م)، ص46.

4- المرجع نفسه، ص46.

الأداة والكنائية¹، وعلى الرغم من ذلك فقد عاب على القدماء من البصريين والكوفيين اكتفاءهم بثلاثة أقسام، فتجاوز ذلك ما اتفق عليه بالإجماع على مدى مرحلتين زمنيتين نضج فيهما الدرس اللغوي اصطلاحاً ومنهجاً ومضموناً. ولعلّ أية محاولة لإيجاد تقسيم بديل سيؤدي حتماً إلى اضطراب المضامين التي تمثلت في الظواهر النحوية المبنية على الوحدات الثلاثة، لذلك فإنّ افتراض وتبني أقسام أخرى سيقضي على الشمولية والتعميم في الدرس اللغوي النحوي، الذي كانت غايته التصويب وجودة التحصيل، ولو كان هناك قصور في التقسيم القديم، لكن أولى بالكوفيين أن يقفوا عليه ليستندركوا على البصريين ما فاتهم...

ولم يكتف المحدثون بأربعة أقسام فقط، ردّاً للتقسيم الثلاثي القديم، وإنما راح آخرون وعلى رأسهم الدكتور تمام حسان إلى اقتراح تقسيم سباعي هو: الاسم، الفعل، الصفة، الضمير، الخالفة، الظرف، الأداة². لقد تبني هذا التقسيم لأن ما جاء به النحاة القدماء في نظره "بحاجة إلى إعادة النظر، ومحاولة التعديل بإنشاء تقسيم آخر جديد مبني على استخدام أكثر دقة لاعتباري المبنى والمعنى..."³.

لقي هذا التقسيم صدى وقبولاً عند بعض المحدثين ورأوا فيه البديل الأمثل من حيث الدقة والشمول، إذ يعترف الدكتور فاضل مصطفى الساقى: "...بأن ما جاء

1- انظر. المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، /عوض القوزي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1402هـ - 1982م)، ص 174.

2- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (دت)، ص 89، 88.

3- المرجع نفسه، ص 88.

به من تحديد يفوق على مستوى التطبيق العملي أيضا كسلاً تحديد سابق، ويعتبر أصح ما جاء على الإطلاق، ولا يسعنا إلا أن نرتضيه أيضاً¹.

لقد ارتضى الدكتور فاضل مصطفى الساقى تقسيم الدكتور تمام حسان لأنه بنى تفريقه بين الأقسام السبعة على أسس: "... يعود بعضها إلى طائفة من المباني، بينما يعود البعض الآخر إلى طائفة من المعاني... غير أن الطريقة التي عالج بها... هذه المسألة تفترض أن القراء على علم تام بمعاني النحو، واستقراء كامل لقضاياه ومساائله"²، إلى جانب امتداد معرفتهم بالتصريف والنحو والمعاجم والدلالة؛ وقد يكون هذا الأمر أسلوباً عملياً دقيقاً، ولكنه يجرد الظواهر اللغوية من مرونتها وعمومها وشمولها للمصطلحات الثلاثة اسم وفعل وحرف مما يؤدي إلى اضطراب وتداخل في الظواهر النحوية، كان القدماء بمنأى عنهما. لقد ضبط التقسيم الثلاثي للكلم اللغة في نسق وصفي حقق غايته التحصيلية والعقلية، وهي التي قدمت خولاء المتقدين آليات الوصف والتحليل.

4- التقسيم الثلاثي للكلم وأصالة المصطلح:

إن وضع العلماء للتقسيم الثلاثي للكلم بمصطلحات اسم وفعل وحرف، ما كان سيكون لو لم يزنوا أحوالهم، ويعرفوا صابر أمورهم؛ لقد كان وضعاً مبنياً على أسس علمية اقتضت ضرورة امتلاك هذه الوسيلة، وإلى هذا ذهب ابن جني حين قال لقد علم العرب "أنهم محتاجون إلى العبارات عن المعاني، وأنها لا بد من الأسماء

1- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقى، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1397م - 1977م)، ص 166.

2- المرجع نفسه، ص 165.

التقسيم الثلاثي للكلم ————— أ. ذهبية بورويس

والأفعال، والحروف، فلا عليهم بأيها بدأوا، أبالاسم أم بالفعل، أم بالحرف، لأنهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بمن جمع إذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن...¹. إن هذه المصطلحات الثلاثة كامنة في طبيعة لغة العرب وليست من إبداع لغة غيرهم، كما يزعم الذين نفوا عن هذه الأقسام أصالتها، وردوها إلى جهد الفلاسفة والمناطق اليونانيين هؤلاء الذين "لم ينطلقوا من الظاهرة النحوية، وإنما انطلقوا من علم الألفاظ والعناية بالبحث عنها، فمصطلح علم النحو عندهم يقترب من مصطلح علم اللغة"²، وفي هذا يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: "... لا يوجد في كتب أرسطو أي تقسيم ثلاثي للكلام مطلقا... فأرسطو لا ينظر إلى الكلام نظرة نحوية محضة³ - وهذا قد أجمع عليه - فالمقولة عنده هي التعبير عموما.. فتقسيم العرب للكلام له غرض غير غرض المناطق، وأساسه غير أساس التقسيم الأرسطوطالسي، فأرسطو يهتم بجزأي الحكم الاسم والكلمة.. لأجل الحكم فقط..⁴

والحقيقة أن الآراء التي ذهبت إلى نفي "... كل طرافة للمناهج العربية في النحو، وتنكر أن يكون النحاة أخرجوا شيئا جديدا لعجزهم أو عجز البيئة الاجتماعية العربية على إثبات مثل هذا الصنع المبتدع، وذهبوا يقارنون بين مصطلحاتهم، وما تواضع عليه اليونان من قبلهم في علم النحو، ورأوا في تقسيم

1- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، مطبعة دار الكتب المصرية، بيروت، لبنان، ط2، (دت)، 30/2.

2- النحو العربي، دراسة نصية، ص47.

3- انظر. فن الشعر لأرسطو، تحقيق وترجمة شكري محمد عياد، منشورات دار الكتاب العربي، القاهرة، (1387هـ - 1967م)، ص108.

4- النحو العربي ومنطق أرسطو.د. عبد الرحمن الحاج صالح، بحث ألقى بكلية الآداب، جامعة الجزائر، (1972م)، ص77، 78.

التقسيم الثلاثي للكلم _____ أ. ذهبية بورويس

العرب للكلام تقسيماً أرسطوطاليسياً محضاً... وباليتهيم ما فعلوا هذا، فينجحوا من زلل لم يصب به أي عالم"¹.

لقد كانت دعوى تأثر المصطلحات العربية بالتقسيم اليوناني للكلمة منفذا لمحاولة بعض المحدثين إيجاد أقسام بديلة ألغوا من خلالها كل تأسيس وتأسيس قام به العلماء الأوائل، ولا أحد ينكر مقدرة القدماء على النظر والوصف والاستقراء، وكما يقول الدكتور هادي نمر عنهم لقد "... استطاعوا القيام بدراسة تحليلية وصفية للغتنا، وتلك من أعقد وأشق المهام التي تسعى إلى تحقيقها في العصر الحديث أكاديميات العلوم اللغوية"²، ولذلك أدى سوء فهم بعض المحدثين لمذلول المصطلح من التقسيم الثلاثي للكلم وبخاصة مفهوم الحرف " إلى تقديم نموذج جديد لتقسيم الكلم العربي، فدعا الدكتور تمام حسان إلى تقسيمه إلى سبعة..."³.

وهذه الأقسام التي أريد لها أن تكون بديلة للتقسيم الثلاثي القديم، هي في الحقيقة تفريعات اصطلاحية قد تعمل على تثبيت الحافظة اللغوية وتؤدي إلى تداخل الظواهر النحوية، مما يقضي على الفائدة التي وضعت لأجلها أجزاء الكلم، وكما يقول ابن خلدون: "أعلم أنه مما أضرب بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته: كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها"⁴.

1- المرجع نفسه، ص8.

2- مجلة آداب المستنصرية، الحروف والأصوات العربية في مباحث القدماء والمحدثين، د. هادي

نمر، بغداد، (1404هـ - 1984م)، ع212/8.

3- المرجع نفسه، ع212/8.

4- المقدمة، ص585.

التقسيم الثلاثي للكلم أ. ذهبية بورويس

ونخلص في الأخير إلى القول: إنَّ التقسيم الثلاثي القلبي للكلم ما كان غريبا أو ارتجاليا غير مؤسس، وإنما هو نتيجة لتحليل واستقراء دقيق قام به النحويون الأوائل عن طريق الترتيب والتصنيف الذي خص به كل قسم مستندا إلى خصائصه وعلاماته، من خلال النسق الإعرابي في الجملة، ولو كان ثمة نوع رابع أو سابع لما عجز العقل النحوي العربي على العثور عليه ليبين عليه مقاصده اللغوية.

جماليات المكان

في القصة الجزائرية القصيرة عند المرأة

الأستاذ باديس فوغالي

أهمية المكان في البناء القصصي:

لم يعد المكان في القصة القصيرة مجرد أداء لوظيفة إشارية لمعنى من المعاني الثابتة، أو "ديكوراً هامشياً" لمشهد من المشاهد، إنما صار عنصراً حكاثياً هاماً قائماً بذاته، وطرفاً أساسياً من أطراف العمل القصصي أو الروائي، فهو (لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد، وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية. وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به داخل السرد)⁽¹⁾. وقد تعدد مستوياته وفق رؤى متنوعة، حيث يمثل في العمل القصصي من زاوية الكاتب أو الراوي، حسب طبيعة ووظيفة المشهد.

والواقع أن المكان يتمظهر مظاهر شتى، فهناك المكان المحسوس (الأشياء) الذي يمكن أن يساهم في إبراز الجوانب المعنوية للشخصيات المرتبطة به، لأن وصف الأثاث — حسب ما يرى ميشال بينور — (هو نوع من وصف الأشخاص الذي لا غنى عنه، فهناك أشياء التي لا يمكن أن يفهمها القارئ ويجسها إلا إذا وضعنا أمام

(1) — حسين مجراوي / الفضاء الروائي، ملاحظات من أجل بحث. مجلة الفكر العربي المعاصر.

ناظرية الديكور وتوابع العمل ولواحقه⁽¹⁾.

وهناك الحجم الهندسي المائل كالقربة والمدينة مثلاً، وما فيهما من بنايات وتشكيل عمراي، إضافة إلى الامتداد الفراغي " فوق "، " تحت "، وقد يكون الامتداد نفسياً ذا بعد روحي، أو رمزياً ذا بعد دلالي، كما قد يسهم المكان في التعريف بالشخصية من حيث أبعادها الشعورية، وتكوينها الذهني.

ومهما نقر بأن للمكان أهمية أساسية في العمل الحكائي، إلا أنه لا يمكن أن ينشأ بحثنا عن الأشخاص، فهو لا يتشكل إلا باختراق الشخصيات له، إذ أن من العسير أن نقر بأن هناك مكاناً محدداً مسبقاً — إلا إذا كان هناك إيهام بواقعية الأحداث — وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي تنهض بها الشخصيات، وعندما يشكل الأديب المكان، فإنه ولاشك سيعمل على أن يكون بناؤه منسجماً مع مزاج وطبائع شخصياته قصد إبراز التأثير المتبادل بين الشخصية والبيئة المكانية التي تعيها الشخصية. (إن المكان في العمل الفني شخصية متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمات، ورواية غائرة في الذات الاجتماعية. ولذا لا يصبح غطاءً خارجياً أو شيئاً ثانوياً، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلاً بالعمل الفني)⁽²⁾.

إن طبيعة الموضوع المدروس في هذه الورقة يقتضي مني ضرورة إبراز الاختلاف بين المكان والفضاء. فالمكان محدد يتركز فيه مكان وقوع الحدث، وأما الفضاء فيكون أكثر اتساعاً، ويعبر عن الفراغ الذي تنكشف فيه أحداث الرواية.

(1) — ميشال بيتور / بحوث في الرواية الجديدة. ترجمة فريد أنطونيوس. الفكر الجامعي

منشورات عويدات. بيروت. ط 1. ص 53.

(2) — ياسن النصير / الرواية والمكان. الموسوعة الصغيرة. العدد 195. دار الشؤون الثقافية العامة. العراق. بغداد. ص 17.

جماليات المكان _____ أ. باديس فورغالي

وعلى هذا الأساس سوف أستخدم مصطلح المكان حين أعني محسوسة الأشياء المحيطة بالشخصية، والمحددة بإشارات وأحجام، وأبعاد.

أما الفضاء فأعني به كل ما يتعلق بالإدراك النفسي للشخصيات إزاء الأمكنة، أو ما تخلقه هذه الأمكنة من أحاسيس مختلفة وتصورات تجعل الشخصيات تنجذب إليها، أو تنفر منها.

من هذا المنطلق سوف توجه دراسي، معتمدا على ما توصلت إليه دراسات المكان، من إمكانية "تحديد التقاطعات في النصوص القصصية أو الروائية. *polarités spatiales* المكانية. ولعل ما جاء في "شعرية المكان" لباشلار يفتح لنا باب الجدل، وأعني الثنائيات المكانية، إضافة إلى فرضيات "لونغان" حول التقاطعات المكانية، وسوف تتحرك هذه العلاقات ضمن محورين أساسيين في إخراج، أو بناء المكان، هما عبارة عن مشهدين متقابلين، لكنهما متكاملان.

أولهما مشهد مكبر "بانورامي"، يتسم بالسعة والانتشار، تستقطبه العدسة القصصية وفق رؤية عامة، ووصف فضفاض يلتقط عن بعد، يستوعب فضاء الريف مدينة" الخارجي، وهو فضاء نكرة من خلال ملامح شخصيات غير محددة التقاسيم، يحمل دلالة طبقية للمجتمع، وفي ضوئه ينشطر الفضاء في ثنائية ضدية إلى فضائين:

— الأول عرضي وهو فضاء المترف.

— والثاني تقاطعي وهو فضاء الكادح والمهمش.

وسوف أتجاوز المشهد البانورامي، وأقتصر على المشهد المصغر الذي يتسم بالضيق والانعسار حيث تلتقطه العدسة القصصية، وفق رؤية دقيقة عن قرب يتحرك في فضاء "الريف مدينة" الداخلي، وهو فضاء معرفة تنهض به شخصيات

جاليات المكان أ. باديس فوغالي
ذات ملامح بارزة، منشطر جنسيا إلى فضاء للأُنثى، وآخر للمذكر، غير إني أقصر
كذلك على فضاء الأُنثى فحسب .

إن فضاء الأُنثى في المن المدرس يمثل فضاء الغرف المغلقة، والأكواخ المنطوية
إلى الداخل ويتميز بالضيق، ومحدودية الممارسة الحياتية الحرة، أي أن الأُنثى لا تمتلك
ضمنه كامل الحرية والانتعاق، فهي لا تغادر هذا الفضاء إلا بتسريح من قبل
المذكر، الذي قد يكون أباً أو أخاً أو زوجاً.

إن فضاء المؤنث فضاء اجتماعي لا يتفصل عن الفضاء العام للقصة النسائية
القصيرة، ويتميز بصفة أساسية وجوهرية، هي الإقامة الإجبارية، لأن الشخصيات
التي تأهل هذا الفضاء، هي شخصيات أنثوية اضطررها ظروفها الاجتماعية القاسية
إلى الالتصاق بهذا الفضاء، وعدم براحه إلا بأمر من المذكر.

وما يلاحظ على هذا الفضاء أن الرؤية القصصية لا تكون دائما تجزئية، فقد
تبنى العين الانتشارية المتوسطة، إذا كانت القاصة متموقة خلف الراوي، لإبراز أو
إجلاء طبيعة وحالة الفضاء. ومع الرؤيتين القرية والمتوسطة، يتم التركيز على
الزاوية الاجتماعية للأُنثى، واعتبارها تابعة لفضاء المذكر. ولتين طبيعة فضاء الأُنثى
وتحديد تنوعه، نجزئه إلى فضاءين متقاطعين هما:

— فضاء الكوخ وهو فضاء ريفي أو قروي صرف

— وفضاء الغرف وهو فضاء مدني صرف.

أولاً: فضاء الكوخ

في هذه الجزئية سوف لن أتناول فضاء الكوخ انطلاقاً من كونه جزءاً من فضاء القرية والريف لما تعنيه لفظة الكوخ من دلالة اجتماعية طبقية، كما لن أقف أيضاً عند التشكيل الهندسي، أو طريقة تشييد هذه المساكن لأداء وظائف اجتماعية وطبيعية معينة، وإنما أحاول إبراز طبيعة العلاقة بين الأنتي وظاهرة " الكوخية " .

لأن الكوخ يحمل في واقع الأمر مدلولاً اجتماعياً تكررته الذهنية الشعبية منذ القدم، ممثلاً في ظاهرة " الجمعنة "، بمعنى أن الكوخ كمدلول اجتماعي كان يشكل ولازال نظاماً عرفياً شائعاً في القرى النائية والمداشر، في حين نجد نقيض ذلك الشقة التي توجد في عمارة مكونة من عدة طوابق تميل إلى " الفردنة "، إذ أن أغلب السكان لا يكادون يعرفون عن بعضهم شيئاً، ولو كانوا جيراناً متقاربين، تفصل بين مساكنهم جدران قد لا تكون سمكية.

النصوص التي تمثل فضاء الكوخ المنسوب إلى الأنتي خمسة:

ثلاثة لزهور ونيسي هي: بحر الطوفان — خرفية — فاطمة.

ونص لجميلة زنير عنوانه : سيعود إلي.

أما النص الخامس المعنون ب: من البطل؟ فلـ " زليخة السعودي". يمكن تصنيف هذه النصوص حسب التقاط العدسة القصصية لفضاء الكوخ، فالنصان "خرفية" و"فاطمة" يمثلان الرؤية المتجهة من الخارج إلى الداخل، أما النصوص الثلاثة الأخرى، فتتدرج تحت رؤية الالتقاط حين تدق، وتتحسر هذه الرؤية وهي تتجه نحو الداخل.

القصتان "خرفية"، و"فاطمة" تتقاطعان في جملة من الميزات، أرى من الضرورة يمكن تحديدها، لما تكتسبه من أهمية:

أولاً: العنوان الذي يعتبر — حسب تصوري — مفتاح النص، أو مضمون معاصر يحيل في القصتين إلى التمحور الأنثوي بالمفهوم البطولي للشخصية المحورية للقصّة، حيث أن القصّة الأولى عنوانت بـ "خرفيّة"، والثانية بـ "فاطمة"، والمتأمل في هذين الاسمين يجد لهما أصولاً ريفية محافظة، و متمسكة بالتقاليد الاسمية الإسلامية المتوارثة.

خرفيّة اسم مستمد من الخريف، والخريف عند أهل الريف يعني نضج الفواكه والثمار، إضافة إلى ارتباطه بمدلول زمني يتجدد كلما دار الحول.

أما "فاطمة" فاسم مرتبط بكل ماله علاقة بالأصالة، ولذا نجد عددا هائلا من نصوص المنظومة القصصية تحمل شخصياتها الأنثوية هذا الاسم، وقد استخدم استخداما فنيا واعيا في القصص التي دارت أحداثها أبان الثورة، وكان للمرأة فيها دور نصالي وجهادي بارز، إضافة إلى الرغبة في التميز عن الأسماء الأجنبية، إذ لاحظت أن الشخصية الذكرية كانت تحمل اسم "محمد" أما الشخصية الأنثوية فكانت تحمل اسم "فاطمة".

ثانياً : — التصدير أو "المبتاخص" الذي صدرت به القاصّة هاذين النصين يعكس الحاجس الموضوعي للخلفية الاجتماعية لفضاء الأنتى، ولذلك تقاطع النصان في الرؤية القصصية هذه، حيث جاء في تصدير "خرفيّة" (خرفيّة .. تجسم بقسوة لوحة للمرأة بكل ما فيها من ألياف مركبة.. لوحة تتحدى التفاخر.. وتتطلع للإقتداء والوفاء).⁽¹⁾

أما قصة فاطمة فتصدرها بقولها (فاطمة.. قصة كل امرأة جزائرية جيلت حياتها بتراب الريف والقرية وصخور الجبال)⁽²⁾.

(1) — على الشاطي الآخر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1979. ص 143.

(2) — نفسه. ص 157.

تبنى " زهور ونيسي" في قصتها " خرفية " الرؤية العالمية في تصويرها للكوخ، حيث تشرع في سرد بعض المناحي الخارجية العامة لهذا الكوخ معلقة حيناً، و متمزجة بالحدث في سياق السرد حيناً آخر، وقد أضفت هذه الوظيفة السردية إلى جانب التصدير طابع الخرفية في نقل الواقع.

تقول في مقطع سردي وهي تحتل وقعا خلفيا، وعالمنا إزاء المشهد:

(كان كوخ خرفية يشبه الطلل، أكثر مما يشبه السكن، وكان منفصلا عن بقية الأكواخ بقطعة أرض مزروعة بصلا وطماطم.. ورغم أن نصف كوخ خرفية مهدم، فإنها تعزه.. لا تفارقه إلا لمهمة أو عملية، قد فتحت بابه لائحواها المجاهدين، ليزلوا به كلما اضطرقم الظروف في المناطق الجبلية الوعرة.)⁽³⁾ ، وباستخدام التقنية السردية نفسها تنقل إلينا مظاهر كوخ فاطمة. تقول:

(كان هذا الكوخ من نصيب فاطمة، وكاد يكون منفردا، كما انفردت صاحبتة بنفسها .. وكانت الأكواخ الأخرى قد تشابكت والتصقت ببعضها، وكان كوخ فاطمة بعيدا عن الأكواخ الأخرى، لكنه كان يعيش في نفس الانكسار والتداعي والوجوم الذي تعيشه الأكواخ الأخرى)⁽¹⁾.

إن هذين المثالين ينطويان على قيمة جمالية هامة من حيث احتواؤهما على جملة من القرائن والرموز، تعبر بصيغة فنية عن فضاء الكوخ. فقد تكررت لفظة الكوخ كدال لفظي يحمل طاقة رمزية تعكس مستوى اجتماعيا كادحا ومتدنيا، وتحيل إلى مختلف أشكال المعاناة والاضطهاد في المشهد الأول ست مرات، وبالعدد نفسه في المشهد الثاني.

(3) — نفسه. ص. 148 — 149.

(1) — على الشاطئ الآخر، السابق. ص. 159.

بناليات المكان أ. باديس فوغالي

على الرغم من محدودية مساحة المقطعين السردية، مما يعمق مشروعية هذا الفضاء، ويؤسس موضوعيا تفردة لهذه الجزئية، أن ارتباط الأنتى بهذا الفضاء له أكثر من مغزى، فالكوخ الذي يمكن أن يشيد في وقت قصير، كما قد يعجز عن توفير الحماية لأهليه، يحيل إلى الموقع الاجتماعي للأنتى المخترقة له، فهي معرضة لكل الهزات، والصدمات الاجتماعية في نسق علاقتها المباشرة بالذكر الذي قد يكون أبا أو أخا أو زوجا.

كما قد تسوء هذه العلاقة فتتفصل بفعل النظرة الدونية إليها عن وتيرة المجتمع وديناميته، فتعزل في بيت مغلق يحرمها متعة الانعتاق، ويكبح جماحها، فتتفصل آمالها على صخرة الواقع كما حدث لـ "فاطمة" بطلة قصة "لن يطلع القمر" لجميلة زنير، أو يغيبها المجتمع العشائري، ويصمها بالجنون، فتعزل في كوخ ناء عن المجتمع السكاني، كما كان مصير " نرجية " بطلة قصة " سيعود إلي ".⁽¹⁾ إن كوخ "خرفية" منفصل عن الأكواخ الأخرى، وكوخ فاطمة لا يقل انعزالية، وانفرادية عنه فهذا التلميح الرمزي والكنائي لخلفية فضاء الأنتى من خلال فضاء الكوخ تعطي انعزالية المرأة عن حركية المجتمع، وليس هذا فحسب بل إن الإشارة إلى تجاوز الأكواخ الأخرى، وتشابكها والتصاقها بعضها ببعض، يؤكد هذه الحقيقة الاجتماعية، فالمرأة حين تكون وحيدة لظرف ما فإنها تبتز من المجتمع، وتعزل، إن هذا السلوك إزاء المرأة مرده ترسبات ذهنية عملت النظرة الدونية للمرأة على تعميقها.

(1) — جميلة زنير / دائرة الحلم والعواصف، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1985. ص

إن فضاء الأنثى، انطلاقاً من هذا التصور، فضاء اغترابي، يوصف بالانكسارية، والانهزامية والإحباط، حيث تخبر في ظله آمالها وأحلامها، وتغدو عبدة طائعة، دون أن تستسيغ هذا النمط من العيش.

غير أن كوخ خرفية يختلف بميزة تجعله يتباين عن كوخ فاطمة لكونه صار معبراً، ومأوى للمجاهدين الثوار، فاكتمسب أهميته وقيمته من الشرعية الثورية التي جاءت لتغيير الذهنية المتحجرة في منظورها للمرأة، حيث نظرت إليها القاصة ككائن فاعل، ومؤثر في حركية الثورة والمجتمع .

إن هذه الرؤية القصصية قد بلورت نتيجة عمل فني احترمت خطواته القاصة مستفيدة من الذاكرة في استدراجها لكوخ "خرفية" و"فاطمة"، ففي المشهدين السابقين وظفت صيغة التصوير التدريجي لاستدعاء المشهد، إذ بدأ كوخ "خرفية" كالطلل من بعيد، ثم دلفت منه العدسة القصصية، لتوصفه بأنه غير صالح للسكن. وعندما تستقطب عين المتلقي الشكل الخارجي لهذا النموذج الكوخي، تتسلل عدسة القاصة إلى الداخل لاستقطار دواخل هذا الفضاء.

يقول الراوي وهو يستحضر بيت "خرفية" التي أبعدت عن المجتمع الريفي، ووصمت بالجنون لأنها أحبت من تعلق به قلبها مخالفة بذلك الأعراف السائدة والتقاليد التي ترفض فكرة الحب بين المتحابين قبل الزواج:

(إنني أحفظ بينها في مخيلتي شرا شرا، وقطعة قطعة، حتى لو تصورته مغمض العينين باحة صغيرة في إحدى زواياها كانون أسود، وعلى الجدار علق كل أنواع الأواني الفخارية التي هي من صنع يديها، تعلق الجدار قطعة من القصدير تحولت إلى اللون الأحمر بفعل الصدأ ، إلى اليمين كوخها المتهالك يحتوي على

جماليات المكان ————— أ. باديس فوغالي
فراش وضع على بضعة ألواح أسندت إلى أربعة أحجار من الطوب.. وصندوق
خشي فيه ملابسها..⁽¹⁾.

تدق العدسة القصصية في هذا المشهد، وتضيق بشكل يسمح بالتقاط فضاء
الكوخ بطريقة تجزئية تبدأ في مسح الفضاء من مدخل الباحة أو الحوش ولوجاً نحو
أعماق الكوخ.

تضعنا زاوية الوصف بدءاً في رحاب الحوش، هذا الذي لا ينفصل عن الفضاء
العام للكوخ، بل ويشكل معه هويته الحقيقية، إذ لولاه لفقد الكوخ قيمته
الاجتماعية والشعبية المتمثلة في الاستقلالية والانفتاح الداخلي على فراغ يحده سور
يفصل بينه وبين الأكواخ الأخرى.

إن الحوش في التجمع الكوحي ينطوي على أكثر من وظيفة، فهو يغلق على
أسرار قاطنيه ويوفر لهم شيئاً من الحرية والسرية في ممارسة بعض خصوصياتهم،
كما أنه قد ينسج فضاء مشتركاً بين صاحب الكوخ وما يمتلك من أنعام، بل
وتصبح مجاورة هذه الأنعام إن وجدت لمسة حياتية ماسة، تكسب الكوخ طابع
الكوخية الريفية المعتادة.

إن ساكن الريف يتلذذ مذاق الحياة حين يداخله الشعور بالملكية، ويصبح هذا
الشعور عنوان سعادته، وتمسكه بالمكان الذي يقيم فيه، غير أن "ترجية" صاحبة
هذا الكوخ، لا تملك شيئاً مما يكسب حياتها الشعور بالملكية والمؤانسة، ولذا تعيش
إحساساً دائماً بالانعزالية والاعترا ب.

مكونات فضاء الحوش أشياء تشبه بقايا الطلل، "كانون أسود" يعبر عن
مركزية الكوخ، ويدل على القدم والوضاعة، والقذارة في الوقت نفسه. أما الجدار
فقد حل محل دولاب الأواني، إذ علقت عليه أوانيها الفخارية.

(1) — جملة زنبر، السابق . ص 63 — 64.

إن هذا الحوش بما يحتضن من أشياء يعد ملحقا أساسيا للكوخ، إضافة إلى نموضه بالوظائف التي أشرت إليها سابقا، في حين استخدم الكوخ للنوم والراحة. تتجه عدسة القاصة إلى اليمين لتفض دواخل الكوخ، وقد توزعت على مساحة الرؤية قطع الأثاث المكونة من سرير تقليدي، هو عبارة عن قطعة خشبية تسندها أحجار الطوب من أربع جهات، ليرتفع عن مستوى الأرض، لأن الداخل في حقيقة الأمر ليس معزولا عن خطر الزواحف السامة، وصندوق خشبي لحفظ الملابس يشكل مع السرير التقليدي طاقم غرفة النوم في البيوت الراقية.

إن الوصف التدقيقي لمكونات الداخل في هذه الصورة الوصفية يرتبط بتصوير فني لوظيفة الوصف تتطلبه بنية المكان، فليس أدل على نغاسة وشقاء "رغبة" في هذه القصة من مكونات وأجزاء المكان الذي تشغله، ولهذا الغاية الفنية جاء الوصف دالا، وخادما لقضاء الأنثى العام، وهو قضاء يعج بدواعي القهر والحرمان، ومغلف بشق وظاهر الدونية والتعاسة.

وقد اطمأنت القاصة الجزائرية إلى نجاعة تقنية الوصف التحريضي، الذي يساعد على إبراز ملامح الشخصية وحمل المكان على البوح بالقيم الرمزية التي ينطوي عليها، وهو الوعي الوظيفي لهذه التقنية الذي دفع "هورونيسي" إلى تتبع حركات الشخصية المحورية لقصة "بحر الطوفان"، وهي تدب داخل كوخها مستعرضة محتوياته.

(فحضت فاطمة لتبرز لها الأشياء التي تملأ الكوخ... مصطبة عليها فراش... وصندوق خشبي هناك ملونة جراتيه بأزهار وطيور صفراء وحمراء، تمسحها كل يوم.. إنها تعرف كم عدد الأوراق الخضراء النفحة..)⁽¹⁾.

(1) — زهور ونيسي / الظلال الممتدة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1985. ص 71.

جماليات المكان _____ أ. باديس فرغالي

أما القاصة " زليخة السعودي "، فتتقل للمتلقي مكونات كوخ " ربيعة " بطله قصتها " من البطل؟ "، التي تزلزلت وزوجها حي يرزق، هذا الذي

هجرها إلى امرأة إسبانية الأصل اقترن بها في فرنسا، متوخية الغاية الاستقصائية لوظيفة الوصف، تقول:

(فتحت صندوقها الخشبي وهو كل ممتلكاتها من عهد بيت أبيها، كان مليئا بشئ الأنواع التي لا تخطر على بال، أبواب منسوخة مكومة في جانب منه دبابيس وإبر ومغازل وعلب لا يعلم أحد إن كانت فارغة أم تحتوي على شيء من العقاقير المجهولة ..)⁽¹⁾.

إن هذه النماذج الثلاثة تشكل فيما بينها متوالية مكانية منسجمة، وملتزمة فيما بينها على الرغم من اختلاف كتابتها، وتنوع عوالم القصص المجترأة منها وكذا أنساقها البنائية، ومرد هذا — حسب تصوري — يعود إلى وحدة المرجع "Referant" الذي يوطر هذه النصوص، ووحدة السياق "contexte" الذي يؤلف بينها، فكأن هؤلاء القاصات يكنن متوالية قصصية، ومؤلفة بتوابع مختلفة حينما يتعلق الأمر كشخصية حكاية⁽²⁾، ويمكن أن نرد وحدتي المرجع والسياق إلى المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

تتعلق بقوة التشابه بين هذه الأكواخ على مستوى المظهر الخارجي، فكوخ خرفية، وفاطمة ورنجية، ما هو إلا كوخ واحد يتحدد بأشكال مختلفة عند القاصة

(1) — زليخة السعودي / مجلة آمال، العدد الأول، 1969، الجزائر، ص 10.

(2) — نجيب العوفي / الخصوصية المحلية في القصة القصيرة الإماراتية. مجلة التبيين، العدد

1993، 6، الجزائر، ص 128.

جماليات المكان _____ أ. باديس فوغالي
الجزائرية، لكنه يحافظ على ملمح التشابه العميق وهو التداعي، القدم والعزلة
والانكسار.

أما المسألة الثانية :

فترتبط بالآثار الذي لعب دورا أساسيا في اكتساب الشخصية جملة من
المواصفات والصفات، ولعل وجود قطع معينة من الآثار في النماذج السابقة يحيل
إلى نقطتين أساسيتين الأولى فنية، والثانية فكرية.

فأما الفنية فوظيفتها مساعدة المتلقي على فهم هذه الشخصية والتأثر بها، لأن
" الآثار يعكس مجموعة من القيم الاجتماعية المادية والجمالية ذات الدلالة الخاصة
التي تريد الكاتبة تقديمها للقارئ"⁽¹⁾.

وأما الفكرية فتتعلق بارتباط الآثى بالفضاء المغلق، وهذا المعنى بدوره يحمل
في له دلالة الهيمنة والخضوع اللذين يحدان من حرية الفعل والارادة، ورغبة
الانطلاق، فضيق الأكواخ يشير إلى ضيق الأفق، والرضوخ إلى الهيمنة التي
يؤسسها، ويسيسها الذكر المسيطر، بحكم موقعه الاجتماعي، في إطار البنية الذهنية
للعشيرة أو المجتمع العشيري.

وما يلاحظ على هذا الفضاء أنه مصنف ومحدد وفق رؤية فكرية جاهزة. فمن
بين قطع الآثار التي يشغلها تلفي الصندوق الخشبي الذي تصادفه في الأمتلة
الثلاثة، وهو أهم قطعة تجلبها المرأة من بيت والدها في إطار تجهيزها للزواج.

يشكل هذا الصندوق في المشاهد السابقة السر العجيب في ارتباط المرأة
الجزائرية ببيتها في أصعب الظروف وأحلكها فقاطمة " بحر الطوفان" توليه عناية
مميزة، إذ تفقده يوميا، فتنتظنه من الغبار العالق به، بل ومن كثرة تفقدها إياه،

(1) — سيزا أحمد قاسم / بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ. الهيئة المصرية

للعامة للكتاب. 1984. ص 102.

تعرف كم هي عدد الأزهار والأوراق التي رسمت على جوانبه، وهي بهذا السلوك اليومي تعبر عن تمسكها بزوجها الغائب، ولذا يعد الصندوق معادلا موضوعيا — حسب " ت س إليوت " للزوج الغائب، إذ يذكرها به لأنها تحفظ فيه ما يمكن أن يشعرها بأنها ما زالت قيد حرمة زوج.

أما صندوق "ريعة"، فإنه لا يحظى بالاهتمام الكبير من طرفها، إذ لا تعود إليه إلا الحاجة ماسة.. فقد أهملته، وإهمالها له ناتج عن إهمالها لزوجها الغائب . فقد عبرت في موقف يائس في لحظة من لحظات الانكسار، عندما علمت أنه تزوج بأجنبية عن هذا الاحساس بقولها: (لم أعد أذكر الأخضر " نسيت ككل الذين دفنتهم.. ما أتمنى له الموت ولا الحياة.)⁽¹⁾.

وقد احتوى هذا الصندوق أشياء كثيرة لا أهمية لها، تعددها القاصة إلى جانب الأثواب المتسخة مغازل، إبر، دبابيس، عقاقير مجهولة.. الخ . بخلاف صندوق فاطمة الذي يحوي أشياء غالية وعزيرة عليها.

وكذلك الأمر بالنسبة لصندوق "رنجية" الذي يتقاطع في قيمته وغلاوته مع صندوق فاطمة، لأن "رنجية" تعيش على حلم خالد، يمثل في عودة خطيها المفقود "محمود" يوما.

ثانيا: فضاء الغرف.

إن النظر إلى الغرف كمحالات مكانية ضيقة تحد فراغها جدران تغلق على أثاث وأشياء وتستقل بكيئونها الهندسية يبعدها من الفن، ويجردها من قيمتها الجمالية ووظيفتها الاجتماعية المنوطة بها ولذا سيظل المكان سواء كان مفتوحا أو مغلقا يحمل هوية أصحابه، ويؤثر فيهم ويتفاعلون هم بدورهم مع تضاريسه، وتشكيله الهندسي، فالغرف التي تكتظ بالأشياء الثمينة، وقطع الأثاث النادرة

(1) — زوليخة السعودي . من البطل ؟ . آمال . العدد 1 . ص 19 .

جماليات المكان ————— ا. باديس فوغالي
تعكس مستوى أصحابها الاجتماعي والطبقي، كما أن الغرف الفقيرة كذلك هي
مرآة لآهليها .

إن البيت امتداد لصاحبه، وقتله وصفا — هو في حقيقة الأمر — اهتمام بالغ
بهيبة ساكنه، أو محاولة اكتساب لهوية خاصة، يريد القاص بذرها في الشخصية
الأهله للبيت أو الغرفة...

ومن هذا المنطلق والتصور فرضت الغرف كفضاء داخلي مغلق يرتبط
بالفضاء المدني وجودها في بنية المكان للمنظومة القصصية، إذ نجدها ورغم قلتها
ترتبط بالأنثى، وتشكل باحتوائها ملمحا مميزا يضيف عليها طابعا فكريا
وإيديولوجيا.

ففي فضاء الكوخ وقفنا عند بعض الدلالات التي كانت في حد ذاتها
علامات سيميائية ناطقة بلسان البيئة الريفية، والمحيط القروي، وعاكسة لملامح
وقسمات شخصيات أنثوية تعاني اضطهادا نفسيا وقهرا اجتماعيا.

في فضاء الغرف يتواصل ذاك الاضطهاد لكن بطريقة أخرى، وبأسلوب مغاير
ومميز، تبعا للغرفة التي تحضن الشخصية، فإذا كان الكوخ فضاء للإقامة الإجبارية
وضع خصيصا لتقييد الأنثى ضمنه، فإن غرف المدن قد تختلف، حيث أننا نصادف
غرفا وضعت أصلا للأنثى، وطبعت بطابعها الأنثوي الذي يمنحها خصوصية لا
يليق ألا باختراقها من قبل الأنثى اختراقا خلاقا وفاعلا وبدونها تفقد هذه الغرف
جانبا من خصوصيتها.

كما أننا قد نصادف غرفا مزورة تقصدها الأنثى لكنها لا تقيم فيها إقامة
دائمة، وإنما لحاجة ماسة. النصوص التي تعتبر غرف شخصياتها فضاء أصليا للإقامة
الدائمة هي:

— الباب المغلق الجميلة خمار

— غرفة كاتبة، وقرأت في كفي لتزيهة السعودي

— الظلال الممتدة لزهور ونيسي

— الحقيقة خارج الوجود لزكية علال

أما النصوص التي تعتبر غرف شخصياتها قضاء للإقامة المؤقتة، فنصان هما:
فنان، والمتمرد الصغير لنورة سعدي. قصة " الباب المعلق " تطرح بوضوح علاقة الأثنى بالمكان، فإضافة إلى الأماكن الخارجية التي شغلت حيزا من قضاء الحكيم متمثلة في أكبر عواصم أوروبا " باريس — روما — فيينا "، وما ورد في سياق ذكرها من قرائن مكانية كـ " برج إيفل، وحي الفاتيكان" ⁽¹⁾، اللذين يتربعان بشحنة من الدلالات تتراوح بين السمو، والترف من جهة، والعزلة والاعتراب من جهة ثانية، نلاحظ تلاحما وطيدا بين الشخصية المحورية " نصيرة "، والقضاء الداخلي مجسدا في الغرفتين الزوجية، والسرية، المحتويين في " فيلة " فخمة تقع في أرقى أحياء العاصمة "حيدرة"، وهو الحي الذي لا يقطنه إلا الموظفون الكبار، والتجار، والأرستقراطيون، كما تلمح القاصة.

وقد أولت القاصة عناية بالغة لإخراج المكان، فمظاهره ابتداء من المر المؤدي إلى دهلز عميق، ومظلم، يفضي إلى غرفة أعدت خصيصا لتخزين السلع المهربة إلى قطع الأثاث الغربية، يشبه أفلام الرعب.

ولعل عنوان القصة — وهو عنوان مكاني — يحيل إلى هذا الإحساس المزوج بالرعب والدهشة.

(1) — يظل برج " إيفل " رمزا لتفوق المدنية الأربية، واعتداد الذات الفرنسية. أما بالنسبة للشخصية القصصية، فستبقى هذه القرينة المكانية قضاء للمحاضرة، وتحقيق حلمها الجامح. أما حي الفاتيكان، فيقدر ما يمثل قلعة لممارسة العقيدة المسيحية، فإنه يحيل إلى النفي والاعتراب، وكذا الانفصال عن العالم الخارجي.

إذ أن محاولة الانسجام مع هذا الفضاء المخيف أمر مستحيل، لعدم استساغة الشخصية لفضائه إن علاقة الشخصية بنحو الغرف في هذه القصة، سواء كانت الغرفة السرية المعدة للتخزين، أو الغرفة الزوجية علاقة ازدواجية، طرفها الأول تنافري قائم على عدم الانسجام مع الداخل، أما طرفها الثاني فتحكمه معاني الاعجاب والانبهار بالأثاث النفيس المكس كیفما اتفق نتيجة فقرها المقذع، وحرمانها من امتلاك النفائس، تحدد القاصة على لسان الشخصية في مقطع استعراضي الوصف الداخلي للغرفة، فتقول:

(جدران غرفتي مكسوة بورق وردي فاتح، عليه رسومات جميلة من المخمل الوردي الغامق.. أثاث الغرفة كله مغلف بالساتان، السرير، الخزانة، طاولة الزينة، وموائد الليل الموضوعتين على جانبي السرير.. بينما علق على النوافذ ستائر من نفس القماش)⁽¹⁾.

إن هذا المقطع الوصفي ذو التفاصيل العينية يبدو ظاهرياً قليل الأهمية، لأنه لا يضم قيمة رمزية تنبثق عنه، غير أنه وفي سياق علاقة الشخصية بالمكان يعتبر امتداداً حسيماً لزاوية نظر " نصيرة " التي ضحكت بشبابها الزاهر وبحب ابن خالتها، وبدراستها الثانوية، من أجل حياة مادية مرفهة، حيث لم يثنها فارق السن، ولا بشاعة حلقة الزوج، لأنها كانت ترى فيه ومن خلاله " فيلة " فخمة في حي راق، وتحت تصرفها سيارة من آخر طراز.

لكن سرعان ما يتبدى هذا الاعجاب والانبهار، نتيجة الخواء العاطفي إزاء المكان، حيث يتحول هذا الشعور إلى إحساس مشوب بالحيرة والغموض، الأمر الذي يشجعها على محاولة اكتشاف ما يحيط بها، إذ أقدمت — ومن خلال ملاحظتها لرسم بارز على أحد جدران غرفتها — نحو فض ما يحيط بها من أسرار.

(1) — جملة زير / الباب المعلق. مجلة آمال . العدد 61. 1985. ص 76.

كان ذلك الرسم عبارة عن باب سري، يفضي عبر دهليز عميق إلى غرفة خاصة، تروي الشخصية ظروف اكتشافها هذه الغرفة، فتقول:

(تمددت يومها على سريري أطلب غفوة.. وأنا في رقدتي تلك لاحظت أن هناك رسما بارزا نوعا ما، عن باقي الرسوم المخملية التي تزين ورق الجدران، وكلما امعنت النظر ازداد الرسم ظهورا فدفعني حب الاستطلاع لمعرفة السبب، فقممت أتخسسه بيدي، فوجدته يقع في دائرة صغيرة لاتكاد تظهر.. فوضعت أصبعي في وسطه وظننط.. وإذا برقع الجدار يدور حول نفسه.. ويكشف عن ممر مظلم لا يتعدى المترين طولاً، ينتهي بدرجات ثلاثة صاعدة) ⁽¹⁾.

الفضاء الداخلي لهذه الغرفة، يتسم بالتغيب والرهبة لارتباطه بكلمة ممر، لما تعبر عنه هذه اللفظة من معان تدل على الضيق وانسداد الهواء، إضافة إلى صفة الظلام الذي عجزت البطارية الصغيرة على تبديده، يضاف إلى هذا هذه الأبعاد الدلالية التي تثيرها القرائن المكانية لفضاء الغرفة الإحساس الشديد بالبرودة الصقيعية، حيث هيئ للشخصية نتيجة إحساسها بالبرودة إزاء المكان أنها في قمة جبال الشريعة بلباس النوم والثلوج تتساقط عليها.

إن وحشة المكان، والنفور منه شاع في نفسية الشخصية الإحساس بالبرودة، فنقلها ذهنيا وشعوريا إلى مرتفعات الشريعة بمظاهرها المتفردة في البرودة، فقد عايش المكان الأول، وكابدت برودته التي تجمد الدم في المفاصل، فانتقل معها ذلك الإحساس الذي ظل عالقا بذاكرتها ومرتسبا بأعماقها إلى الغرفة السرية.

وبين الغرفتين الزوجية والسرية تنهض مفارقة جوهرية، تنشئ بين الفضائين تقاطبا على مستوى طبيعة العلاقة الشخصية، وارتباطها بكل فضاء، فالغرفة تمثل

(1) — جميلة زنير، السابق، ص 77.

الحلم والألفة وكل إحساس يثمر الدفء العاطفي والأمان، في حين تمثل الغرفة السرية فضاء للنفي والقهر النفسي والعدوانية.

إن شعور الشخصية بالعدوانية وهي تعلم أنه ضمن فضاء البيت كله، تحيط بها تحف وجواهر وأشياء غنية كانت تحلم بامتلاكها مرده الفراغ العاطفي، أو انعدام الانسجام العاطفي مع المكان لأن المكان يكسب قيمته ومعناه في نفس الانسان تبعا للارتباط الوجداني به فإن لم يتوفر هذا الارتباط يصير المكان مهما زود بوسائل الراحة مصدرا للنفي والاغتراب، ولهذا ظلت الشخصية غريبة في بيتها، رغم ما وفر لها من وسائل الزينة، والعيش المترف.

يستمر هذا الاحساس القائم على النفور، ويتواصل ليتحول إلى تعذيب نفسي للشخصية، وانفصالا كلياً، عما ينطوي عليه فضاء الغرف. فينتهي للشخصية أن الجدران المطلخة بالإسمنت الرمادي، والمنضبة كالعقاريت.. تستعد للإطباق عليها⁽¹⁾، كما تعبر الشخصية الراوية من خلال هذه الرؤية الحسية والمعنوية للفضاء، والتي تبرز القيمة الفنية لوظيفة المكان أو جماليته، فهو يتلون بحسب الإحساس الذي يتتاب آهله.

فقد يتحول الكوخ المعتم الضيق الفقير إلى قصر رحب مضيء الجوانب والعمق، كما قد يضيق القصر بصاحبه إلى حد الاختناق، هذه الوظيفة الجمالية التي ينهض بها الفضاء هي الخاصية التي تكسبه سمته الحقيقية وتمنحه بعده الانساني.

إن فضاء الغرف الذي هو فضاء إنساني لقيم الألفة، والانغذاب، كما يرى "باشلار"⁽¹⁾، يفقد حضوره الإنساني في النموذجين السابقين، ويصبح مجرد كتلة من

(1) — أنظر جملة زمر . الصفحة نفسها.

(1) — قاسطون باشلار / جماليات المكان. ت. غالب هلسا. المؤسسة الجامعية للدراسات. بيروت. لبنان. ط1. 1971. ص 35.

الجدران تغلق على أثاث وأشياء، لا يحمل دلالة خارج وظيفته العادية؛ بل يتحول في هذه القصة إلى فضاء عدواني يضغط على أنفاس الشخصية، ويمارس عليها ألوانا شتى من القهر والاضطهاد.

إن تقنية الوصف في تصوير محتويات الغرفة الروحية تبنت الوظيفة التصنيفية في نقل ما تكتظ به الغرفة، بأسلوب استقصائي، بحيث يمكننا حذف هذا المقطع الوصفي دون أن يؤثر الحذف على بنية الفضاء والقصة، ولو أنه يحيل — كما أشرت سابقا — إلى طبيعة رؤية الشخصية للمكان. فالوقوف عند محتويات الغرفة، ووصفها وصفا دقيقا كما تلتقط مظاهرها العين (يرتبط بترعة وصفية مغرضة أكثر مما يلي تصورا فنيا أو نصيا متميزا تستدعيه الكتابة)⁽²⁾ القصصية، في حين لا نستطيع الاستغناء، أو إسقاط ما يتعلق بوصف البيت السري، لكون الوصف في المقطع جاء ملتحما بالسرد.

أما "نزيهة السعودي"، فقد أفردت في مجموعتها "الحب في الزمن الهارب" المتكونة من تسع عشرة نصا قصصيا قصيرا، منها ست عشر نصا يتمحور حول الأنتى قصة عنوانها "غرفة كاتبة"، تتكون من مشهد واحد داخل غرفة واحدة، تشغلها أنثى مثقفة، تمارس الكتابة والإبداع.

في هذه الغرفة التي تقع في حي شعبي قذر يقل الأثاث، ويتضاءل بعد أن كان كثيفا ومتراكما في غرفة نائمة، وبخلاف قطع التزيين التي انتشرت بين ثنايا الغرفة السابقة، نلفي أثاث غرفة المثقفة لا يتجاوز وظيفته الطبيعية، إذ لا توجد قطعة واحدة وضعت للتزيين، أو الاستخدام الكمالي الذي يعبر عن المستوى المعيشي المترفع.

(2) — حسين بحر اوي / بنية الشكل الروائي.. ص 47.

مكونات الغرفة سرير متآكل، طاولة فاخرة تعلوها كومة من الكتب الشاحبة، وفنجان قهوة فقد عروته، وبعض الأقلام تبعثرت على الأرض وقد جف مدادها⁽¹⁾.

هذه المحتويات التي تنطق بالبساطة والتعاسة ينهض فضاء الأنتى المثقفة محمولا على جملة من العلامات والدلالات:

— أولى هذه العلامات محتويات الغرفة التي تفتقر إلى لوازم الأنتى من "سائر، وطاولة الزينة الحاوية على غلب المساحيق، وأدوات التجميل.." كما عشنا مع غرفة نعيمة في "الباب المعلق".

— ثاني العلامات افتقاد الشخصية لاسم يميزها عن غيرها، وانعدام الاسم في سياق القصة يحيل إلى انعدام الهوية، وطغيان النموذج الاجتماعي العام على النموذج الإنساني الخاص، وهو المدلول الذي يحيل إلى فقدان الأنتى — مهما كانت تتمتع بثقافة كبيرة وتمارس الابداع — هويتها الاجتماعية التي تتأسس بناء على موقعها الاجتماعي ورؤية الآخرين، إليها بحكم ذهنية جاذبة سلفا.

— العلامة الثالثة تتمثل في وسائل الترفيه والاشتغال بالهم الثقافي كوفرة الكتب، وجفاف الأقلام الدالة على كثرة التعامل مع الكتابة، وكأن هذه الأنتى التي تحاول أن تجابه نظرة المجتمع الدونية نحوها بالاهتمام في تحصيل المعرفة، واستبطان القيم الثقافية التي تخرج الأنتى من الدائرة الاجتماعية المغلقة إلى أفق إنساني رحب.

⁽¹⁾ — أنظر / نزيهة السعودي / الحب في الزمن الهارب . دار البعث، فسنطينة،

وما وصف الفنجان المكسور العروة إلا قرينة " سيمائية " لما تعنيه القهوة في حد ذاتها، إذ تستهلك للمحافظة على نشاط الفكر والجوارح، وضمان طول السهر حين يغوص الناس في سبات عميق.

أما في قصتها " قرأت في كفي " فتتقلنا إلى فضاء آخر من الغرف، فضاء يعج بالخرافات والأباطيل، ويزدحم بدخان البخور الصاعد من مبخرة، قد هياها امرأة منحمة، تصف القاصة هذه الغرفة في مقطع سردي يتكئ على الحمل الحالية قصد إجلاء مظاهرها فتقول:

(في غرفة مظلمة كنيبة الجدران، تتصاعد منها رائحة البخور كانت كتلة ململمة في عباءة سوداء تقيع في زاوية منها، ويريق مخيف ينبعث من ثقي عينها.. أمامها مبخرة تراقص فوق رمادها جمرات قليلة طمست بقع البخور لونها الأحمر المتوهج) ⁽¹⁾.

إن الأنثى التي تشغل فضاء هذه الغرفة تختلف عن الأنثى في النموذج السابقين، فإذا كانت أنثى " جميلة خمار " حاملة مبالاة إلى حياة البذخ والغنى، وأنثى نزيهة السعودي في " غرفة كاتبة " مثقفة محمومة بالجواهر الكوي " الثقافة والفكر " غير مبالية بالمظاهر. فإن هذه الأنثى تمثل نموذج المرأة المتخلفة التي تعتمد إلى ممارسة أساليب خرافية لإثبات وجودها، وممارسة السلطة الروحية على بنات جنسها، عن طريق محاولة إقناعهن بمعرفتها لعلم الغيب، وعادة ما يتعلق الأمر بالزواج وفارس الأحلام، ولذا جاء مضمون القصة متمحورا حول معاناة الأنثى واضطهادها من قبل الذكر أو محاولة إخضاع الذكر لإرادتها.

(1) — نزيهة السعودي، السابق، ص 70

من هذا المنطق التصوري، أو الطرح الاجتماعي للبنية الذهنية لدى نموذج معين من النساء يتشامخ الصراع الأزلي بين الرجل والمرأة، وهو صراع طبيعي ينتهي بالتكامل والانسجام لتتواصل الحياة.

فالقاصة ترمي إلى تعرية هذا النوع من الأساليب بغية امتلاك الرجل، لذا جاءت القصة محمولة وفق رؤية نافذة، وساخرة من هذا النموذج من النساء، ويتجلى هذا الموقف في استخفافها من قارئة الغيب في العبارة الآتية، تقول:.. أسقطت ورقة مالية في صدرها، وابتساما تفرض نفسها على شفتي⁽¹⁾.

إن ما يميز هذه الغرفة عن سابقتها الظلمة وكآبة الجدران، وهما صفتان ليستا ملازمتين لها لفقر أو حاجة، وإنما ترتبطان بفضائها الذي يشبه أجواء الرعب، فالغرفة هذه تشد عن الغرف المعدة للسكن، وقد تلونت بصاحبها التي تعبأت في عباءة سوداء، متروية في ركن معتم، لا يرى من ملامحها غير بريق مفزع، وشكلت بحضورها مناخا خرافيا أكسبها طابعا خاصا يكتسي معاني الخوف والنفور.

وقد تكررت لفظة السواد في هذا المثال ثلاث مرات للدلالة على سواد الأفكار وتدني المستوى الذهني لهذه المرأة التي تؤمن بالأباطيل والترهات.

بناء الغرفة إذن جاء منسجما مع التركيبة الذهنية للأنتى التي تشغله، وقد منحت هذه التقنية بعدا جماليا آخر لهذه الغرفة، إذ أسهمت في الكشف عن حالة هذه الأنتى الشعورية، لأن الفضاء الذي لا يعبر عن أهله يفتقد بغير شك بعده الجمالي، وقيمه الإنسانية، ومستواه الطبقي أو الاجتماعي.

أما "زهور ونيسي" فتنقلنا عبر قصتها "الظلال الممتدة" إلى غرفة مغايرة تماما للغرف المدروسة، فهي غرفة مضيئة تنسرب إلى أحشائها الشمس من كل الجهات،

(1) — نزيهة السعودي، السابق، ص 72.

جاليات المكان أ. باديس فوغالي
وتعمر بالبهجة، وكل ما له علاقة بالانشراح والتجدد . نقول القاصة في مستهل
قصتها:

(كانت نوافذ الغرفة كبيرة، والشمس من خلالها، وهي تتسلل برفق تكاد
بأناملها الذهبية، تقبل كل شيء وتبرز بضائنها معالم الموجودات، وتعطيها طابعا
من التأكيد والتجدد والحياة)⁽¹⁾.

إن فضاء هذه الغرفة ينهض على جملة من القيم، تنبثق من علاقة الشخصية
به، افتقادها غرف النماذج السابقة، وتمحور حول كل ما يعبر عن الرضى والألفة
والانسجام والتجاذب، وقد أثمرت هذه العلاقة إحساس الشخصية بالتجدد، وطعم
الحياة، وهي القيم التي لم نتحسسها في فضاء غرف البيوت الراقية رغم توفرها على
الوسائل الكمالية ذات الوظيفة الترفيهية والطابع التزييني.

وقد أغفلت القاصة عن رصد واستقطار أثار الغرفة، وركزت على الشمس
والضياء، وتجدد الهواء— وهي معاني تعبر عن الانفتاح والتهوية — تلميح في منها
إلى عهد الحرية والاستقلال الذي تنعم بلذة الإحساس به "زينب"، لأن هذه الغرفة
تقابلها غرفة أخرى، احتوتها أيام الثورة، تعلق القاصة حولها، فتقول: (كانت تجاور
الشمس.. ولكنها كانت كوخا)⁽¹⁾ أيام الاحتلال.

إن التقاطب بين هاتين الغرفتين كفضائين متميزين من حيث علاقة
الشخصية بكل منهما، وطبيعة تشكيلهما "الطبوغرافي" والهندسي يلتقيان في مسألة
فصلية هي تقاطع الماضي الثوري بحاضر الاستقلال، وهو المعنى الذي يشير إليه
العنوان. فالظل يحمل معنى الحماية والتستر من الحر، إضافة إلى معنى التسخير الوارد
في قوله تعالى:

(1) — زهور ونيسي / الظلال الممتدة... ص 13.

(1) — السابق. ص 14.

(وظللنا عليكم الغمام)⁽²⁾. أما الامتداد، فهو مصدر يعيل إلى التواصل المجرّد من الزمن النحوي . فالعنوان بهذه الدلالة يرتبط بالمكان بين الماضي والحاضر، أو اختراق الشخصية له وجدانيا ماضيا وحاضرا.

وقد يتحول فضاء الغرفة من الرحابة والاتساع عند "زهور ونيسي"، والفتحامة والاكتظاظ بالأشياء الثمينة عند "جميلة خمار"، والضبابية والتصهّد الفني عند "نزيهة السعودي" إلى قبو يحشم كأنما أنفاس الأثني عند "زكية علال"⁽¹⁾، عندما تعلم الشخصية أن الغرفة التي كانت ملكا لها وحدها، وحكرا عليها، سوف تشاركها فيها امرأة غريبة.

وهكذا نتأكد في ضوء كل النماذج السابقة أن المكان ليس فضاء ثابتا ولا تشكيلا هندسيا متكررا، ولا هو أيضا إطارا له وظيفة اجتماعية ودلالة رمزية واحدة، يتلون ويتغير تبعاً للشخصية التي تأمله، فلا قيمة لحضوره فنيا وفكريا إلا بذاك الاختراق والتفاعل الثنائي المتبادل بينه وبين الشخصية.

كما يشكل في بعض النماذج — حسب تصوري — الوصف الاستقصائي لمحتويات الغرف والتركيز على مظاهر الزينة فيه، والمستلزمات المرتبطة بوجود الأثني وثقافتها البيئية ظاهرة أسلوبية عند القاصة الجزائرية.

فهي حين تنكب في وصف قطع الأثاث ومحتويات الغرف تنجح إلى أبعد الحدود في استقصاء التفاصيل ودقائق الأشياء، كما نلاحظ على مستوى القطع المتكررة في الغرف السرير الذي يمثل — حسب رأينا — ثابتا أساسيا من الثوابت المكانية، ويعكس المؤشر الطبقي للأثني، فسرير الغرف كعلامة مكانية يحيل إلى حد

⁽²⁾ — القرآن الكريم . سورة البقرة . الآية 57.

⁽¹⁾ — قصة الحقيقة خارج الوجود . مجموعة " وأغرقت سفينة العود " . منشورات إبداع . مطبعة الاخاضية . الجزائر ط 1، 1986 . ص 48.

ذاته، أما سرير الكوخ فيختلف، حيث يكون عادة مصطبة، أو ألواحاً من الخشب تقف على قوائم من الطوب أو الحجارة.

هذا ما تعلق بالفضاء المعد لإقامة الأتشي إقامة دائمة، أما الفضاء المزور أو المؤقت فنتلمسه في المثالين الآتيين:

1 — (جدران الغرفة تشع مثل الصدفة يبدو أن الطلاء بها حديث العهد ساعة دنوت من الباب قابلتين ملامح وجه غريب، فتوهت للحظة أنني أخطأت طريقي، فإذا بسرير ثان يحتل جزءاً آخر من الحجرة فوق شرشفه الأبيض تتمدد امرأة أعيائها الإجهاد والأرق)⁽¹⁾.

2 — (الغرفة طويلة عريضة، جدرانها مبطنة بمادة إسفنجية الباطن.. تناثرت فيها الأرائك الفخمة وطاولة زجاجية تعلوها عدة منافض للسجائر يتوسطها جميعاً مكتب قبائله جلست سيدة غجرية الجمال والملاح)⁽²⁾. ما يلاحظ في هاذين المثالين ثمة مسائل:

المسألة الأولى:

انفصال هوية الفضاء عن هوية الأتشي التي تشغله، ففي المثال الأول بدا واضحاً الوصف المركز على لون البياض والنظافة للدلالة على طبيعة المكان، وهو مشفى الولادة، والغرفة هي إحدى غرف ما بعد الولادة وتغادرها الأتشي بمجرد انقضاء فترة نقاهتها.

أما النموذج الثاني فقد سيطر عليه الهندسي للغرفة، حيث بدت مفرغة مما يمكن أن تدخره من قيم تحكمها الأبعاد والوصف الاستقرائي للمحتويات، ولا تعكس شعور الأتشي التي عبرته.

(1) — نورة سعدي / أقبية المدينة الهاربة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص 17.

(2) نفسه. ص 69.

المسألة الثانية:

العلاقة التي تربط الأنتى بهذا الفضاء علاقة تنافرية، فالفضاء القصصي في المثال الأول يمثل زيف الفن، ويهجر المظاهر الذي تَمَقَّتْه الشخصية المثقفة، فما إن كشفت نوايا مدير مكتب "صوت الفن" الخبيثة حتى غادرت المكان، وقد تضاءلت في ذهنها صورة الفن حين يتحول إلى وسيلة أو طعام للإطاحة بشرف الأنتى، وهو في الواقع فضاء تابع لفضاء المترف.

أما فضاء المثال الثاني، فيسبب للشخصية نوعاً من التعذيب الجسدي، لأن عملية الولادة هي أشبه بعملية جراحية تتعرض لمل الأنتى الحامل، لذلك تشعر كل حابل بالتعاسة، هي تلج غرفة من غرفة مستشفى التوليد.

أما المسألة الأخيرة فتتمثل في علاقة هاذين الغرفتين بالسياق العام للقصتين، فهما لا تشكلان فضاء نسيجياً لنسيج الحكى العام، وإنما تمثلان صورتين مكانيتين ومعتزتين يمكن فصلهما دون أن تحتل بنية الحكى.

مقومات الشخصية الوطنية

في الشعر الجزائري الحديث

إعداد كل من:

* الأستاذ ناصر لوحيشي

* الأستاذة زينب بوصيعة

الشعر تعبير عن الشعور والفكر في سياق جميل من القول. وكل نتاج أدبي سواء أكان شعرا أم نثرا، إنما يحمل قيمته في نفسه، وخاصة إذا كانت له رسالة يحملها إلى المجتمع الذي ينتمي إليه.

والأدب هو الإنسان — كما يقول معظمهم — والإنسان ابن بيئته، يتأثر بها ويؤثر فيها. وشعراء الجزائر في العصر الحديث — موضوع بحثنا — ترعرعوا في وطن مسلوب، يعيش تحت نير الاستعمار الغاشم، فعاشوا الذل والخوان، وعاشوا فترة الاضطهاد الفكري والنفسي، فحملوا لواء الكلمة المسكونة بالألم، والأمل، والقيم العظيمة التي يتطلع إليها شعبهم ووطنهم، فكانوا قلبه الخافق، ولسانه الناطق، وترجمانه الصادق، وهذا محمد العيد، شاعر الثورة — كما يلقب — يعرب عن موقفه فيقول :

وقفت على الشعب جهدي به * وكرست عمري إلى الآخر

فديوان شعري عمر آتاه * جلا غابر الشعب للحاضر⁽¹⁾

وقد ارتبط هذا الشعر بحركة المجتمع، وتفاعل معه ومع الحياة، وتناغم مع آفاق المستقبل، فجاء مفعماً بالحث على النضال، داعياً إلى مساندة الحق، ومحاربة الظلم والطغيان، والسخط عليهما.

(1) محمد العيد آل خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت) ص 6.

ومن هنا كان الشعر الجزائري الحديث عبارة عن رصيد وطني نضالي، استطاع أن يعبر عن الأوضاع المأساوية التي أوجدها الاستعمار، كما عبر عن الأمل الذي جاءت به ثورة نوفمبر الخالدة.

وقد بدأ الشاعر الجزائري يعبر عن شخصيته المتميزة من خلال الأحزاب السياسية، والجمعيات الإصلاحية، والنوادي الثقافية؛ والصحف الوطنية التي احتضنت الشعراء وروّجت شعرهم، وبخاصة ذلك الشعر الذي تظهر فيه مشاعر الأمة، وتتجلى من خلاله أحوالها ونفسياتها وكما ارتبط الشعر الجزائري الحديث في مراحلها المختلفة بالحركة الوطنية وعبر عن مسيرتها، كان صوتاً للحركة الإصلاحية، المناهض للاستعمار الغاشم الذي عمل جاهداً — منذ وطئت أقدامه أرض الجزائر — على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضامينها الوطنية⁽¹⁾.

وتضاعفت عنائتهم بالشعر، حتى جعلوه مرآة للأدب وقالوا: الأمة أدب ولغة، وأمة لا أدب لها لا كرامة لها⁽²⁾. ويقصدون بذلك الأدب؛ الشعر الذي تظهر فيه مشاعر الأمة. قال محمد العيد آل خليفة :

لقد بذر الشعر فيه الهدى * وحسبك بالشعر من ياذر

(1) عثمان سعدي : عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر — 1982 م، ص 09.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925 م — 1975 م) دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ط1، 1985 م، ص 70.

وما الشعر إلا شعور سما * نحيلاً بإيجائه السّاحر⁽¹⁾

وقد أدرك ابن باديس — رئيس جمعية العلماء المسلمين — أبعاد التعبير الشعري عن المواقف التاريخية التي لا يخلدها سوى الشعر، ورأى أن المسيرة النضالية هي التي تجعل الشعر يرقى إلى التعبير الخالد، وعلم أن أزمة الجزائر في ذلك الوقت لا يجسمها ولا يعبر عنها بصدق إلا الشعر وقد أكد هذا فقال:

لقد أعلن شاعرنا القومي محمد العيد جواب السؤال في قصيده الذي نشرناه⁽²⁾،
ومنه قوله :

ولعلّ من نظم السياسة أن نغشّى وأن تُقر
ولعلّ منها أن يدس * لنا ويحذب للحفر
ولعلّ منها أن غا * طل كي يساورنا الشجر⁽³⁾

وهذه دعوة صريحة من ابن باديس إلى العناية بالشعر، وتوظيفه للكفاح السياسي والوطني، إلى جانب استخدامه للإصلاح الاجتماعي.

وقد وضع محمد الهادي السنوسي⁽⁴⁾ الشعر والشعراء في الطليعة المواجهة لتحمل أمانة الإصلاح، والتوجيه ووحدة الصفوف، والوقوف أمام أطماع المعمرين، ويرى أنه لا غنى لأمة عن الشعر والشعراء⁽⁵⁾.

(1) الديوان، ص 05.

(2) صالح غزفي، الشعر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر — (د.ت)، ص

205.

(3) الديوان، ص 307.

ونظرا لهذه الأهمية، أنزلوا الشاعر منزلة سامية، إذ عدّوا الشعر نعمة من نعم الله عزّ وجلّ، يمنحها لمن يشاء من عباده وحملوه ضرورة الحفاظ على تلك النعمة واستخدامها في الدفاع عن الحق والمصلحة، واتخاذها سلاحاً حاداً لمحاربة الفساد.

فالشاعر في المجتمع إذن صاحب رسالة سامية، ونبوغه يستحقّ الترحيب والتهلل، وشعره يستقبل بالتقريظ، فابن باديس — مثلاً — يكتب مقالاً بمدح فيه أبا اليقظان عند إصدار هذا الأخير ديوان شعر عام 1931 م، ويعدّ ذلك الديوان من بواكير الشعر الجزائري الحديث⁽³⁾.

وقد تردّد هذا المفهوم للشعر ووظيفته، ورسالة الشاعر في الحياة، ودوره في المجتمع كثيراً، في تلك الفترات، حيث النضال والصحوّة الوطنية وبمحاكمة الاستعمار. والملاحظ في تعريفاتهم أن مفهوم الشعر عندهم لا يخرج عمّا جاء به ابن رشيق في العمدة من "أنّ الشعر ديوان العرب"⁽⁴⁾ و"خير الشعر ما فهمته العامة ورضيته

(1) محمد الهادي السنوسي الزاهري هو: محمد الهادي بن علي بن محمد بن العابد بن محمد بن السنوسي الزاهري، ولد باليانة وهي قرية من قرى الزاب الشرقي في ربيع الأوّل سنة: 1320 هـ. وأسرته أسرة علم وشرف.

حفظ القرآن الكريم وشيخاً من أشعار العرب، ثم أرسله والده إلى قسنطينة لمواصلة تعليمه على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقد تفتّت ملكته الشعرية يافعا.

(2) محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحديث، ج2: ص 16.

(3) يراجع: مقال ابن باديس في الشهاب، ج10، م 7/أكتوبر 1931 م.

(4) أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، تح محي الندي عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 5، 1981 م، ص 37.

الخاصة⁽¹⁾ و"أن العرب في الجاهلية كانوا إذا تبغ في القبيلة شاعر، أنتها القبائل الأخرى فهتأفأ... لأنه حماية لأعراضهم، وذبت عن أحسابهم وتخليل لماثرهم، وإشادة بذكرهم"⁽²⁾. وهكذا فنظرهم للشعر لا يختلف عن نظيرة القدامى لأنها تتماشى وواقعهم وظروفهم، ذلك الواقع الذي نسجته يد القدر بالنار والنور. لقد أدرك الشاعر الجزائري منسلة الشعر وقيمته، ودوره في شحذ الهمم، وتحريك السواكن، وهز النفوس، بل إن رسالة الشعر عنده هي من أنبل الواجبات وأقدسها فلسان حاله بيت مفدي زكريا :

رسالة الشعر في الدنيا مقدسة * لولا النبوة كان الشعر قرآنا⁽³⁾

فلا غرو بعد ذلك إذا ألقينا أفئدة الشعراء الجزائريين تذوب رقة وحزنًا وتذهب نفوسهم حشرات على الواقع الجزائري في أيام المحنة، يذكر محمد السعيد الزاهري ذلك فيقول: "أرى الجزائر في أبواب بؤس بمضعها مضغًا، وأراها في فقر يأكلها أكلاً لماً، وأراها بعد ذلك تتخبط في جهالة عمياء... أراها كذلك فيذوب فواديها رقة وحزنًا وتذهب نفسى عليها حشرات... إنه ليكاد يقتضي عليّ الكمد ويقتلني الأسى إذا أنا ذكرت ما كان لوطني من العزة والشرف وما كان له من السيادة على الفرنجة... ثم أراه صار بعد ذلك كله إلى الذلّة والهوان"⁽⁴⁾.

ولا شك أن في هذه الأقوال كشفًا لحقائق كثيرة، وإجابات شافية، لأسئلة صريحة، عرض بعضها أبو القاسم سعد الله فقال: "أصحيح أن شعراءنا يعيشون

(1) م.ن، ص 123.

(2) ابن رشيق، العمد، ص 65.

(3) مفدي زكريا، الهمم المقدس، موقع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2000 م، ص 290.

(4) محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحديث، ج1، ص 62.

منفصلين عن شعر الأمة؟ أمن الحق أنهم لا يشاركوننا في أفراحنا وأحزاننا؟ هل كان شعرهم يمثلهم في حدود ذواقهم فقط أو يمثلنا بما نعيشه من اضطراب وفوضى؟⁽¹⁾

لقد كان للكلمة الفنية صوت مسموع، وزفرة جريئة، وصرخات منيعة، وأصداء متجاوبة في تجسيم الأزمة، وكشف خبايا المحنة، لذلك تمخض عنها النص الأدبي القاتم، وكان الأديب الجزائري بعامه.. الضحية الأولى للمأساة، لأنه من الأعداء للاحتلال الفرنسي، إذ كان يفسد عليه مخططاته، ويفضح مكائده وغاياته، ومن ثم فقد لقي حامل الكلمة المادفة، ضراوة لا ترحم، وقساوة لا حد لها، وإذا كانت المأساة تفتيتاً للمقومات الذاتية فإن الثقافة العربية هي تجمع لها من جديد⁽²⁾ وتوحيد لأجزائها، ودعمٌ للمعتزين بها.

والثقافة العربية في الجزائر تعدّ امتداداً للثقافة العربية في المشرق، إذ إن الشعراء الجزائريين استمدوا منها روحها، ونسجوا على منوالها، وتلقسوا طريقها في الإنتاج، فكانت النهضة الأدبية في الجزائر صدًى لأختها في المشرق. والدليل على ذلك، ما أورده أحد أفراد تلك الطليعة؛ محمد الهادي السنوسي وهو قوله: "من منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى على آثار مدرسة إسماعيل صري، وحافظ وشوقي، وطه حسين، وأحمد أمين والمنفلوطي، من أفراد الرغيل الثاني، وأقول الثاني لأنهم سبقوا بضقة الشيخ محمد عبده وبمن التف حوله من أمثال؛ رشيد رضا، وعبد العزيز جاويز، وطنطاوي جوهرى، وعلي يوسف والمرصفي، وكانت "الهلال" و"المقتطف" و"المنار" هذه الثلاثة على الخصوص رسل النهضة الأدبية المشرقية إلى الشمال الإفريقي، وكان أساتذتنا لا يفتأون يتحرون لنا

(1) تجارب في الأدب والرحلة، ص 157.

(2) براجع: صالح خرفي، الشعر الجزائري، ص 17.

منظومهم ومنثورهم مما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا وإصلاح ألسنتنا وتبصيرنا عما تجود به المدرسة الحديثة في عالم العرب⁽¹⁾.

الدين:

لعل الذي تنماز به الأمم وتنفرد؛ الدين، واللغة... فأما الدين فلأنه روحها، ومعقد بقائها، وأما اللغة فلسانها ومترجم أحوالها ومواقفها وبطولاتها..

ولذلك فإن الذي منع الشرق — في زمن سالف — إسماله أمرين عظيمين، هما ترفع ألوية الأمم، ويعزّ شأنها وترقى حضارتها وهما: الدين واللغة.⁽²⁾

ولقد كان الإسلام — الدين الذي تبنّاه الجزائريون واعتنقوه — محط نقمة الاحتلال الذي دفعته صليبيته إلى تحويل المساجد إلى كنائس وثكنات لجيشه... فعمل جاهداً على تجريد الشعب من عقيدته⁽³⁾، فهذا الكاردينال "لافيجري" يكشف تلك النية بقوله: "علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرانه، وعلينا أن نعي على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم".

ولقد ظلّ الإسلام حتى أواخر القرن الماضي في الجزائر منطويا في بعض الزوايا والكتاتيب، وفي شعائر أهل الصوفية مما كان الاستعمار الفرنسي يشجعه ويدفعه دفعاً مستميتاً، وهو الأمر الذي أوصل الجزائر إلى منعرج خطير في الحياة الدينية والفكرية، حيث العقيدة التي شوهتها الأضاليل، وتسلبت عليها المستعمر فجردها عن براءتها وفطرتها وسالف دورها، وسخر العقيدة لأغراضه، وبسط عليها حمايته

(1) مجلة الثقافة، 18 مارس 1947 م، نقلا عن: صالح خري — الشعر الجزائري، ص 15.

(2) يراجع: د. صالح خري، رمضان جهود، ص 122/123.

(3) يراجع: النحاس شعباني، تطوّر الشعر الجزائري منذ 1945 م حتى 1980 م (ديوان

المطبوعات الجامعية — الجزائر — 1988 م) ص 23.

ورعايته. ولا ريب أن خطة فرنسا المنتهجة — منذ احتلالها — لم تفلح في تجريد الشعب الجزائري من عقيدته بل زادت تلك الأعمال تمسكا وإيمانا بدينه... ولما فشلت في القضاء على الدين الإسلامي عمدت إلى سياسة مأكرة، فأنشأت معاهد لتكوين رجال دين بالطريقة التي تستخدم مصالحها وتطعن في الإسلام، وكان هؤلاء الرجال يدعون لها في خطب الجمعة ويمكّنونها من رقاب الشعب باسم الدين⁽¹⁾.

وكان من نتاج ذلك، أن ظهر الإسلام يومها بمظاهر مزيفة مشينة إذ ألصقت به البدع والمحدثات والخرافات، وأعان على ذلك أهل الطريقة الذين استغلوا وجدان الشعب وعواطفه الساذجة، وجهله فراحوا يوهّمونه ويضلّونه⁽²⁾، وينأون به عن الدين الحق. وفي ظل تلك الأضاليل كانت هناك نفوس صادقة ترابط في أنحاء متعدّدة من الوطن، وقد رُزقت بصيرة ثاقبة وذكاءً حاداً، فظلّت تحتّ على الرجوع إلى الأصل (الكتاب والسنة) وتتطلّع إلى المستقبل المشرق، وهذه هي الفئة التي أنشأت المدارس الحرة، والمنتديات الثقافية، والجرائد الوطنية، والصحف والنشريات، وكانت تعقد الحلقات العلمية، واللقاءات التنويرية. ولم تكن في ذلك تابعة لأيّ حكم رسمي.

والواضح أن هذه الإرهاصات الإصلاحية، والوعي الفكري كان من ثمار المهجرات إلى المشرق العربي، حيث إن رواد الإصلاح الديني، زاروا بعض البلدان العربية، واتصلوا برواد النهضة هنالك⁽³⁾، واطّلعوا على مسالك الوثبة العربية المشرقية. فلا غرو بعد ذلك أن يكون الأزهر بمصر والزيتونة بتونس، أهم مراكز الإشعاع الفكري والحضاري، لذلك كانت الحركة الإصلاحية في الجزائر ذات طابع

(1) الوناس شعباني، تطوّر الشعر الجزائري منذ 1945 م حتى 1980 م، ص 24.

(2) يراجع: م.ن، ص.ن.

(3) يراجع: د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 13-14.

فكري ديني، لأنها شبيهة بأختها في المشرق العربي، ومن ثم فقد تأثرت بها وبأهدافها ومقاصدها ومبادئها⁽¹⁾.

ولقد وجدنا المعالم التي حددتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حينما أنشئت قرية جداً من معالم الحركة المشرقية. في هذه الأثناء كان على الشعراء ألا يعيشوا بمعزل عن هذه الأحداث والتغيرات...، ولقد أدركوا هذا فانضموا إلى الحركة الإصلاحية، وانسجموا ومراموها. "وارتباط الشعر بالفكر الإصلاحي جاء لظروف أحاطت بالأدب والثقافة، وبسبب عوامل أحاطت بالفكر واجتمع والسياسة، فأثرت في الشعر، ووجهته خدمة هذا الفكر"⁽²⁾.

وكان الشعر الجزائري الحديث — يومها — يلتقي عفواً وسجية مع ما حددته جمعية العلماء، مستنكراً ما كان يروج في الجزائر من ضلالة والانحراف، وبرز في هذا الخطب شعراء عُرِفوا بمواقف ثابتة ضد الاستعمار الفرنسي، وضد أهل الطريقة والشعوذة أمثال: عبد الحليم بن سماية، ومحمد مصطفى بن الخوجة، وعمر بن قدور، واللقاني بن السائح وغيرهم...⁽³⁾. وهؤلاء كانوا من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي.

ويجدر الإيماء هنا — إلى أن الانحراف في الجزائر كان قد بلغ منتهاه، وكان أرسخ قدما وأثبت يداً وأعرق تاريخاً، لأن الاحتلال يدعمه وينصره، لذا كان على الجمعية أن تحسم أمرها، وتسارع إلى المراقبة الذكية، من دون أن تغفل التعليم الحر الثمر، كما وجب على الشعر — هو أيضاً — أن يسعى إلى البناء بعد هدم الزائف،

(1) يراجع: الوناس شعباني، تطوّر الشعر الجزائري، ص 24.

(2) عبد الله ركيبي... الشعر الديني... ص 560/559.

(3) يراجع: د. صالح حرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 33-34.

وفضح المشبوه، وكان عليه أن يقدم للإصلاح الفكرة الواضحة واللفتة التاريخية المؤثرة والغاية البعيدة المنتظرة⁽¹⁾.

وكانت فترة الثلاثينيات زاخرة بالشعر الديني، بعد أن استيقظ الشعب من سباته، وراح يبحث عن مسالك النجاة، وعن روح الدين الإسلامي الصحيح، ودخل الشعر المعركة بوجه سافر، ونفس وثاب، وكانت قلوب الطرقيين تتهاوى تحت ضربات الشعراء الذين حملوا لواء هذه الدعوة⁽²⁾. واتجهوا بأشعارهم يواجهون الانحراف الديني، ويكشفون خباياه، "وكانت تعرية أدياء الدين وكشف سوء أفعالهم تمثل الانطلاقة الأولى للشعر المرباط في المواجهة المضادة للانحراف الديني، الذي عاش أزهى صوره في ظل الدين أحاطوا نفوسهم بالقداسة المرهبة والمرعبة للبسطاء من الشعب، وأصبح الدين في عرفهم تعدياً لا يقبل النقاش والجدل، واستوى الحرام والحلال في اجتهادهم"⁽³⁾.

ويلتف الشعراء حول الجمعية، ليكونوا لسان حالها، والدائد عن حماها، وقد توجهوا إلى الأمة بقصائدهم يستحثونهم فيها على التماسك، والتكثف والوحدة المطلقة، في سبيل الدفاع عن حريتها المنتهكة، وكرامتها المصابة، وحقها المغصوب وروحها التي امتهنت⁽⁴⁾.

(1) يراجع: د. صالح خرفي، المرجع السابق، ص 35.

(2) يراجع: الوناس شعبان، تطوّر الشعر الجزائري، ص 25.

(3) د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 36.

(4) يراجع: د. أبو القاسم سعد الله — تاريخ الجزائر الثقافي، من ف 10 إلى 14 هـ/الموافق: 16 إلى 20 م، ج2 (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م)، ص 75/74.

وقد أدركوا خطورة الانحراف الديني، كادعاء المعرفة والتطاول على أسرار الغيب، واستحلال الخمر والعرض، وادعاء القدرة على المنع والعطاء⁽¹⁾.

كل ذلك أنكره الشاعر الجزائري على العامة، وقد دفعه سخطه إلى تشبيه العوام بالأنعام، لأنهم كانوا يرون الشيخ/الولي، أحكم الحكماء، وأعلم العلماء، متلمسين له الأعذار كلها حيث يجوز له ما لا يجوز لغيره، في هذا يقول محمد السعيد الزاهري:

كانوا طوائف شتى، كل طائفة * تطيع شيخا لها في كل ما زعما
 إن قال إني ولي صدقوه، * وإن هو ادعى الغيب قالوا: أحكم الحكماء
 وإن تعلم بعض الشيء قمحية * قليلة هتفوا: يا أعلم العلماء
 وإن هو ارتكب الفحشاء فاضحة * فلا محالة معذور وقد أثما
 أو احتسى الخمر قالوا إنما عمل * ولا غرابة في هذا ولا جرما
 أو ادعى أن خير الخلق يخدمه * فما اعتدى عندهم فيها ولا ظلما
 أو لم يصل رأوه حسبما زعموا * يقيمها إذ يزور البيت والحرما
 إذا بكى حسبوا الأيام باكية * ويضحك الدين والدنيا إذا ابتسما
 في كفه المنع والإعطاء عندهم والدين والخير فيما شاد أو هدم⁽²⁾

ولقد دأب الشعراء جميعا في كشف فظاعة الانحراف الديني بدءا بالولي المزعوم، الذي يحرم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء — بتعبير أبي العلاء —، "ففي الثلاثينيات نلتقي بصورة من صور الانحراف الديني من خلال أبيات في تهنئة الطبيب بن عيسى، صاحب جريدة الوزير التونسية. بمضي ربع قرن عليها في الكفاح والإصلاح، والشاعر من خلال هذه القصيدة يفضح التناقض المريع بين مظهر الولي

(1) يراجع: د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 35-36.

(2) الشهاب، ج 9، م 1934/10، نقلا عن: الشعر الجزائري الحديث، ص 37-38.

الخادع ومخبره الزائف، فهو يظهر للناس في مسوح التقى والزهد، ويحتلي بنفسه في صورة شيطان :

ربع قرن قضيته في الصحافة دأباً ساعياً لنشر الثقافة
لم تؤيد مدى الحياة خوفاً غادراً بالبلاد، أو ذا خرافة
يدعي العلم والتصوّف حتى يكسب الفلاس، أو يروم احتطافه
ظنه الجاهلون شيخاً تقياً وهو من يحتسي كؤوس السلافة⁽¹⁾

ولقد واكب الشعر الجزائري الحديث المناسبات الدينية، من أعياد وشهر رمضان⁽²⁾، وذكرى غزوة بدر⁽³⁾، وليلة نزول القرآن⁽⁴⁾، وكان في ذلك يعرض الحاضر على الماضي، مستلهما منه الدروس والعبرة، مستثيراً الهمم... ولا ننسى احتفاء الشعراء بموسم الحج⁽⁵⁾، فلقد كانت أشعارهم مودعة أو مستقبلة وفود الحجاج، وهم ينشدون الوحدة الإسلامية في تحد وإصرار أمام الاحتلال⁽⁶⁾.

ويبدو أن الشعر الديني في تلك الفترة لم يكن مقتصرًا على الحديث عن المناسبات الدينية، كأعياد المولد النبوي الشريف وليلة القدر، بل إنه كان في جملة منتصرًا للدعوة الإسلامية، منطلقة في ذلك القرآن الكريم، والدعوة إلى العلم... مما يؤكد أن

(1) الوزير، عدد 430، فيفري 1935 م، يراجع: د. صالح خري، الشعر الجزائري الحديث، ص 43

(2) يراجع: ديوان محمد العيد، ص 151، وديوان أحمد سحنون (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977)، ص 144.

(3) يراجع: ديوان أحمد سحنون (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977)، ص 210.

(4) يراجع: م.ن، ص 215.

(5) يراجع: ديوان محمد العيد، ص 162-165.

(6) يراجع: د. صالح خري، الشعر الجزائري الحديث، ص 56.

التعليم في المدارس الحرة في الجزائر كان ينحصر منحى دينياً تربوياً وطنياً، وهو الاتجاه الذي كان سائداً آنذاك، وكان دليلاً على أن ثقافة قائله ثقافة دينية محضة⁽¹⁾. أضف إلى ذلك أن الشاعر الجزائري كان أشدّ اعتزازاً بإسلامه ونيّه ﷺ، فهذا الشاعر جلواح "ينطلق في الحديث عن الدين الإسلامي، وأثره وتأثيره في هداية الناس، وإن هذا الدين جاء به نبي عربي حرّره به العقول من الأوهام وهداهم إلى الرشده، وطهر نفوسهم من الأدران"⁽²⁾، فيقول:

فمنا بدا للناس أعظم مرشدٍ إلى من يركبهم من الخبث والرجس
وها هو محمد آل خليفة، يبرز فضل القرآن في صقل الأذهان، وتهذيب النفوس، مخاطباً طلابه في مدرسة الشبيبة الإسلامية بقوله⁽³⁾:

يا معشر الطلاب هل من آخذٍ بالذكر أو متمسكاً برمامه
فتشرفوا بالأخذ من آدابه وتعرفوا بحلاله وحرامه
ولكل شيء في الحياة أذية وأذية القرآن من أقوامه
عملوا على التحذير من تفهيمه فكأنهم عملوا على إعدامه
هجرُوا مبادئه العلا وتكبّوا أحكامه والخير في أحكامه⁽⁴⁾

ونكاد نحزم أن ارتباط الشعراء والأدباء والعلماء الجزائريين بالقرآن، قد بلغ مدى بعيداً بعد ختم ابن باديس (رحمه الله) تفسير القرآن، وكان الاحتفاء بذلك متميزاً، حيث لا يدانيه أي احتفاء.

(1) يراجع: الوناس شعبي، تطور الشعر الجزائري، ص 25.

(2) د. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح — من التمرّد إلى الانتصار، ... ص 209، وعن المولد:

يراجع: ديوان محمد العيد، ص 221/103/92/78 ديوان سحنون، ص 222.

(3) د. صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص 48.

(4) الفصيصة في الشهاب الأسبوعي، ع 149، السنة الرابعة، ماي 1928 م.

وحين "أقيم احتفال بهذه المناسبة الكريمة التي تجلّت فيها الأمة في أقدس مظاهر التعلّق بعقيدتها ولغتها، فلقد كان القرآن والسنة يمثلان منطلق الحركة الإصلاحية، وكانت في راحمتها تبعث ذكريات الماضي البعيد، ويزداد الحنين إلى صانعي التاريخ من الأجداد الأوفاء، والقصائد التي تعتبر إرهابات بالحركة الإصلاحية، كانت تجسم هذا التطلّع وهذا النزوع..."⁽¹⁾.

ومن القصائد التي سجّلت الاحتفاء بنتم ابن باديس (رحمه الله) تفسير القرآن الكريم، قصيدة محمد العيد التي يقول فيها :

ختمت كتاب الله ختمسة دارس * بصير له حلّ العويص ميسر
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى * وأهني من الروض النضير وأعطر⁽²⁾

"وما يميّز قصيدة الشعر الديني بعد الحرب العالمية الثانية، هو تجاوزها المناسبة الدينية إلى الدعوة إلى الاستقلال والتحرّر من قيد المستعمر، وهذا يرجع إلى أن الشاعر رما اطمأنّاً إلى القضاء على الخرافات التي علقت بذهن الأمي، وأدرك أنه بقي عليه أن يدخل مرحلة الإعداد للثورة"⁽³⁾.

وخير ما يمثل هذا قصيدة طويلة لمحمد العيد عنوانها: "سلوا التاريخ".

ومن ثمّ كانت العقيدة الصحيحة هي الخلفية الفكرية، والأساس الإيديولوجي للثورة، فقد كان الإسلام "حسناً منيعاً احتمت به الشخصية الجزائرية من مخضبات الاستعمار الرامية إلى مسحها بالتجنيس والإدماج، طوال قرن وربع قرن من

(1) د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 48.

(2) ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 156-161، وكانت القصيدة قد نشرت في مجلة الشهاب العدد الخاص بنتم القرآن سنة 1938 م، والقصيدة ألفها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي نيابة عن الشاعر.

(3) الوناس شعبان، تطور الشعر الجزائري، ص 26.

الزمان... وفي ثورة نوفمبر 1954 م، قام الإسلام بدور أساسي في تعبئة الجماهير بالحماسة، ونفخ روح التضحية والفداء في النفوس، باعتبار ذلك جهاداً في سبيل محو الشرك ومقاومة الطغيان، وذلك ما يتجلى واضحاً في شعر مفدي.

فالإسلام فيه يمثل عصب الثورة وعمرّكها وعمودها الفقري الذي تدور حوله الأحداث، وفيه تتحدّد مفاهيمها⁽¹⁾.

ولا ريب أن تشبث الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم هو الذي أوغر صدور الفرنسيين... فزاد تعصبهم؛ وبعد تأكّدهم من وفاء الجزائريين لعقيدتهم يقول مبارك جلواح⁽²⁾:

لا ذنب لي إلا لأتسي مسلم إفريقي أهوى العلاء نبيل
راموا بأن أرتدّ عن ديني وأن أذر البلاد يسومها التذليل
وأنا الوفيّ فما لقلبي عن هوى ديني العزيز وموطني تحويل
فليرهقونا ما بدا لهم فما لهوى المواطن في الحشا تبديل
عجباً أنرضى بالهوان وأرضنا إفريقيا وكتابنا التنزيل
أبدًا فما نرضى المعرة في الوري حتى نلاقي الله وهو كفيل

إن العقيدة الإسلامية الصحيحة تمثل في حقيقة الأمر الأساس الإيديولوجي للثورة، ولذلك فقد أمسى الاستمساك بها من وسائل تحقيق النصر، لما تحمله من مبادئ ثورية تدعو إلى رفض الانقياد لغير الله، ولأنها أفضل عوض للعتاد الحربي... وأحرّ وقوداً يفتقلده الاستدمار الفرنسي الذي عمل جاهداً كي يتغلّى الجزائريون

(1) يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا — دراسة فنية تحليلية — ط1 (دار البعث — قسنطينة، الجزائر، 1407 هـ/ 1987 م)، ص 85.

يراجع في ذلك فصيحة مفدي، في ديوانه: اللهب المقدس، ص 105.

(2) يراجع: د. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح، ص 318-319.

عن شخصيتهم العربية والإسلامية بسياسة الإدماج والتجنيس⁽¹⁾، ليسهل عليه الاستيلاء والسيطرة، وقد عبّر مفدي عن ذلك فقال :

واستضعفوه فقرروا إدماجه * فأبت عروبتة له أن يُبلعها

وعن العقيدة زوّروا تحريفه * فأبى مع الإيمان أن يتزعزعا⁽²⁾

والمتتبع للحركة الشعرية حينذاك يلحظ تحوّل المضمون والشكل إلى صفحات ثورية⁽³⁾ ليست مواقف جديدة ولكنها ليست بجديدة، إن هي إلاّ ظلال لتلك الغزوات في بداية الرسالة.

فالتأثر "في الثورة الجزائرية كان يطلق عليه اسم "المجاهد" لأن فكرة الجهاد بمعناها الإسلامي تبلورت في ذهن ذلك الشاعر، وجعلته يضحّي بنفسه بكل طوعية ورضى، بل وبكل رغبة وحماسة، إذ إنه يؤمن بأن ذلك ينيله شرف الاستشهاد"⁽⁴⁾.

إذ ذاك كانت الشهادة مهراً، والجهاد كان عقيدة طوى الأزل العلوي في صدرها سراً، كما يصّرّح بذلك مفدي في قوله :

وأشربته حبّ الشهادة فارمى على غمرات الموت تلهيه الذكرى

وطالبته بالمهر إن رام عزّة فأسرع من أرواحه يدفع المهسرا

ولقنته أنّ الجهاد عقيدة طوى الأزل العلوي في صدرها سراً⁽⁵⁾

من هنا كانت الثورة الجزائرية فتحاً إسلامياً جديداً، فلقد كان منطلقها دينياً، وكان مثلها الأعلى في ذلك: ما كان يجري من معارك وغزوات وسرايا في صدر

(1) يراجع: يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 86.

(2) الذهب المقدس، ص 59.

(3) يراجع: الوناس شعبان، تطوّر الشعر الجزائري، ص 27/25.

(4) يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 86.

(5) الذهب المقدس، ص 309، 310.

الإسلام⁽¹⁾. فشهر نوفمبر — في حقيقته — تذكير بغزوة بدر الكبرى والنائرون الجزائريون قاموا بضاهون صحابة بدر، كما أعلن عن ذلك مفدي في اللهب المقدس، وفي الإلياذة :

وحدثنا عن يوم بدر محمد فقمنا نضاهي في جزائرتنا بدر⁽²⁾

وذكرتنا في الجزائر بدرًا فقمنا نضاهي صحابة بدر⁽³⁾

وهكذا يتضح جليًا ارتباط الجزائريين بالإسلام بوصفه أهم مقومات الشخصية الوطنية، ويثبت اعتزازهم بالعقيدة الصحيحة التي لا يمكن الخيدان عنها.

اللغة:

تحتل اللغة العربية مكانة مرموقة عند أهلها، لارتباطها بالعقيدة قبل كل شيء، لذلك فالحفاظ عليها يعني الحفاظ على الدين. وقد أدرك المستعمر الفرنسي أهمية اللغة بالنسبة للشعب الجزائري، فحاول القضاء عليها منذ احتلاله للجزائر سنة 1830 م⁽⁴⁾. وقد فحرت سياسة التغريب تلك طاقة الشعراء الذين ملكت نفوسهم العربية، فحملوا لواءها خفاقة في الآفاق، وبعثوا فيها حياة جديدة من أرواحهم؛ يدفعهم إلى ذلك شعور وطني متوثب، وعواطف نبيلة، ممزوجة بلحمة قوية نسجتها يد الإسلام واللغة العربية.

(1) يراجع: يحيى الشيخ صالح، المرجع السابق، ص 87.

(2) اللهب المقدس، ص 309.

(3) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر (مطبعة البعث، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، ص 45.

(4) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 م، ص 134.

وإذا استعرضنا الأدب الجزائري الحديث، وخاصة الشعر منه، وجدنا الشعراء يلحّون على العروبة والإسلام، باعتبار هذا الأخير هو الحامي للعروبة بأقطار المغرب العربي، كما نجد البعد العربي في الأدب الجزائري الحديث — وخاصة قبل عام 1962 م — أكثر وضوحاً منه في أدب أي قطر من أقطار المغرب العربي⁽¹⁾. ولعل ذلك راجع إلى سياسة التغريب التي مارسها المحتل طيلة تواجده بالجزائر، إذ كان يعتبر الجزائري فرنسياً — في التجنيس فقط وليس في الحقوق — وبعدّ الجزائر جزءاً من فرنسا، ومن ثم كانت اللغة العربية تعامل معاملة لغة أجنبية طوال قرن وثلاث قرن من الزمان⁽²⁾، فقد أنكر الفرنسيون على الشعب الجزائري طيلة الاحتلال صفة عربي، ولكن عبثاً حاول الاستعمار ذلك، فالجزائري كان يدرك أن العروبة والإسلام وجهي عملة الهوية⁽³⁾، فدافع عن عروبه ودينه، وتشبّث بأصالته.

وأشرنا سابقاً إلى أن بداية الثلاثينيات تعدّ تاريخياً من أنشط وأحفل الفترات، حيث شهدت ميلاد الصحافة العربية الوطنية، وانبعثت الحركات الدينية والعلمية والإصلاحية، فتفجرت التجارب السياسية الرائدة وتبلورت بعض الاتجاهات الموالية للاستعمار، السائرة في ركابه، والمسخرة لأهدافه⁽⁴⁾، ثم تكوين جمعية العلماء المسلمين⁽⁵⁾. وكل ذلك ساعد على إعطاء الأدب دفعة قوية، إذ لم يكن الشعراء

(1) المرجع نفسه، ص 134.

(2) المرجع نفسه، ص 134.

(3) المرجع نفسه، ص 110.

(4) الناس شعبي، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 م. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 23.

(5) تأسست جمعية العلماء سنة 1931 م. ينظر: رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1984، ص 66-67.

والأدباء. معزل عن الساحة الوطنية، فراحوا منذ وقت مبكر من هذا القرن يعملون على بعث النخوة الوطنية، ويديح أحمد توفيق المدني كتابه "كتاب الجزائر" بكلمات من نور يرفعها إلى الشباب الجزائري قائلا: الإسلام ديني، العربية لغتي، الجزائر وطني⁽¹⁾.

وعندما أهدى نسخة منه للشاعر أحمد سحنون أعجب بالكتاب، ونظم قصيدة في مدحه بعنوان (توفيق) أعطيت توفيقا وتسديدا. يقول فيها :

توفيق أعطيت توفيقا وتسديدا * فاكذب وجدد عهود الضاد تجديدا

منحت موهبة التاريخ فأجب به * أجماد قومك إحياء وتحليدا⁽²⁾

وقد كانت الحركة الإصلاحية صاحبة فضل على الحرف العربي، إذ أعادت إليه روحه⁽³⁾ بعدما أشرف على الاندثار، نتيجة لسياسة التغريب والتجهيل التي مارسها الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الجزائري، فكان من الطبيعي أن يرتبط الشعر الجزائري منذ الثلاثينيات بالفكر الإصلاحي، لأن جل المصلحين كانوا أدباء وشعراء، فاحتضنوا التراث والأدب واللغة العربية، وجاء شعرهم ترجمة لحركة سلفية قوامها الدين الإسلامي، واللغة العربية، وهدفها بعثهما في هذا الوطن المضطهد على أشرف صورة وأنصع وجه⁽⁴⁾.

(1) د. صالح خرفي، الشعر الجزائري، المرجع السابق، ص 5، 6.

(2) الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت)، ص 284.

(3) د. صالح خرفي، المرجع السابق، ص 99.

(4) عبد المالك مرتاض، لمعة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925 — 1945)، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983 م، ص 69.

وارتباط الشعر بالفكر الإصلاحى لم يكن صدفة، وإنما جاء نتيجة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، أحاطت بالأدب آنذاك، ووجهته لخدمة أهدافه ومراميه، ولنسمع لشاعر الثورة، مفدى زكريا وهو يقول :

وشجعة الشعر في دنيا عروبتنا أقوى من القدر الجبار سلطانا
والشعر طهر في الدنيا سرائرنا والشعر يسر للخير أشقانا
فلا السياسة دكت صرح دولتنا ولا المطامع نالت من سجايانا⁽¹⁾

وسياسة الاحتلال الفرنسى في الجزائر كانت تهدف منذ البداية إلى القضاء على العروبة كجنس، وعلى الإسلام كدين، وحضارة وثقافة، لتتمكن من تنصير الجزائريين وفرنستهم، تمهيدا لإدماجهم في الكيان الفرنسى العام⁽²⁾. ويتصدى رجال الإصلاح والشعراء والأدباء هذه السياسة الظالمة، وردوا عليها بعنف وتحذ، وكانت كلماتهم تخرق الأسماح، وتشع نورا في القلوب، فتشجذ الهمم وتقوي العزائم. وهذا ابن باديس — رئيس جمعية العلماء — يرد على سياسة الإدماج والتجنيس، بالخطب والمقالات، والشعر، ومن شعره في هذا الموضوع قصيدته العصماء (شعب الجزائر مسلم) التي حدد فيها هوية الشعب الجزائري، وأكد بأنه مسلم عربي، وأن كل من يحاول إخراجه عن إطار العروبة والإسلام ليذجه في جنس آخر، فهو كمن يطلب المستحيل، ويختتم نشيده هاتفا بحياة الجزائر والعروبة. "وكان لهذا النشيد فعل السحر في إلهاب عواطف الجماهير، وإيقاظ شعورهم، وتعبئة نفسياتهم ووجدانهم للدفاع

(1) الديوان، المصدر السابق، ص 303-304.

(2) تركي رايح، المرجع السابق، ص 96.

عن العروبة والإسلام والوطن والقومية، وقد كان الشعب الجزائري ولا يزال حتى اليوم يردد نشيده بحماس كبير.¹ ويقول :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماحا له رام الخيال من الطلب
هكذا لكم عهدي به حتى أوسد في التراب
فإذا هلك فصيحتي تحيا الجزائر والعرب²

ويتعالى صوت الشعراء هاتفا بحياة الجزائر واللغة العربية، ويصرون على رفض الإدماج والتجنيس، وينظم مفدي زكريا سنة 1936 م نشيدا للحزب "نجم شمال إفريقيا"³ بعنوان "نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى" يقول فيه:

فداء الجزائر روعي ومالي	ألا في سبيل الحرية
فليحيا (حزب الاستقلال)	(ونجم شمال إفريقيا)
ولتحيا الجزائر مثل الملال	ولتحيا فيها العربية
فلسنا نرضى الامتراجا	ولسنا نرضى التجنيسا
ولسنا نرضى الاندماج	ولا نرتد: فرنسيسا
رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهال تدنيسا	

فكل من يبغى اعوجاجا رجمناه كإبليس⁴

(1) المرجع السابق، ص 268.

(2) الشهاب، ج 4، م 13، ص 200-202، عدد جوان 1937 م، نقلا عن تركي رايح، المرجع السابق، ص 268.

(3) تأسس هذا الحزب عام 1926 م، ينظر رايح تركي، المرجع السابق، ص 59.

(4) الديوان، المصدر السابق، ص 104، 105.

كما دعا الشعراء الشعب إلى التمسك بلغته القومية، لأن الشعب الذي لا يتحصن بلغته لا يمكنه أن يبلغ الرفعة والكرامة، ولا نصيب له إلا الذل والمهانة، وإن أكبر خطب ينال أي شعب، هو عقوق أبنائه له¹. وفي هذا المعنى يقول مفدي زكريا :

ذَلْ شعبٌ لم يتخذ لغة الأجداد حصنا ورام عنها انفصــــــــــــــــالا
وعقوق البنين أعظم خطــــــــــــــــب يُرهق الشعب ذلّة ونكالا²

ولما كانت اللغة العربية عنصرا هاما في مقومات الشخصية الوطنية، باعتبارها حامية التراث، ووعاء الدين والحضارة، فقد سخر المستعمر لمحاربته وسائل كثيرة، منها: نشر اللغة الفرنسية لتكون بديلا عن العربية³، ومن هنا تتقابل اللغة العربية مع ضرعها اللغة الفرنسية على أرض الجزائر، ساحة الصراع من أجل البقاء، وفي الخلية يبدو وجه الفرنسية سافرا، وهدف فرنسا واضحا؛ وهو القضاء النهائي على اللغة العربية، وإحلال الفرنسية محلها. وترتفع أصوات الشعراء منددة، ومحاربة للغة الدخيلة، ومصورة للواقع الذي آلت إليه اللغة العربية، إذ صارت تعي لمصرعها، وأصبحت شبيهة بأثواب مرقعة، بينما هي لغة عظيمة، غنية بمفرداتها الواسعة المتجددة، وكانت تحتل مكانة مرموقة بين لغات الأرض، ويقول محمد اللقاني بن السائح⁴ من قصيدة له بعنوان (إلى الشعب الجزائري) :

(1) يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص 280.

(2) الديوان، المصدر السابق، ص 190.

(3) رابع تركي، المرجع السابق، ص 157.

(4) محمد اللقاني بن السائح، والده من الطيبات بالجزائر، ولد بنفطة بتونس عام 1313 هـ، ولما بلغ الثامنة من عمره عاد والده إلى الجزائر ليشغل بالتدريس، وأخذ شاعرنا دروسه الأولى =

يا أمة ضيعت مجدا لها سلفا طال النداء بنا لو كان يجديننا
هي هي أمّ اللغى تنعسى لمصرعها ها هي ألفاظها تبكي وتبكيننا
خلطتموها بألفاظ مشوّهة ولم تقيموا لها يوما موازيننا
صارت شبيهة أثواب مرقعة تضم من خرق طمر ملاييننا
وصنتموها بضيق في النطاق وقد كنتم على وصفكم قوما ملومينا
بل هي أم لغات الأرض أجمعها كل لها عند ضيق اللفظ ياتينا

يا ربة الحسن يا ذات الجمال ويا مليكة الأمر رفقا إذ تلومينا¹

وإن قصر الشاعر في تعبيره الشعاري الذي — ربما — لم يكن موحيا، فإنه لم يقصر في وصفه لواقع اللغة العربية في ذلك العصر، حيث تفنن الاستعمار في محاربتها حتى كاد أن يطبق عليها، لولا العناية الإلهية التي قدستها وحفظتها وجعلتها لغة القرآن الكريم، ولا مجال هنا لمقارنة هذه القصيدة بقصيدة حافظ إبراهيم، لتقارب الموضوع والتقاء المعنى، لأن واقع هذا الأخير غير واقع شاعرنا، ومن ثم فالأسلوب التقريرى، وجفاف العبارات مرتبط بواقع الجزائر — آنذاك — الثقافى والسياسى والاجتماعى.

ورغم المضايقات الاستعمارية فالشعب الجزائرى ما فتئ يتغنى باللغة العربية ويحيى صمودها في وجه الأعداء، يلتقى الوجدان بالمناسبة في تصوير الواقع الأليم

— في الكتاب، ثم تلمذ على علماء ذلك العصر في الجزائر وتونس حتى حصل على العالمية، ورجع إلى الجزائر ليعمل مدرسا بالمدارس الحسرة، ونظم الشعر الوطنى. تنظر ترجمته في كتاب: شعر الجزائر في العصر الحديث، ج 1، لمحمد الهادي السنوسى، ط 1926، ص 30-32.

(1) مجلة آمال، وزارة الثقافة: نماذج من الشعر الجزائرى المعاصر (شعر ما قبل الاستقلال) د.ت، ص 18-19.

الذي آلت إليه حال اللغة العربية، وفي ذلك يقول مصطفى بن رحمون¹ :

الله يعلم أننا نـُـواك وقلوبنا آمالهن رضاك
هل يبلغ الآمال منا شيق يا من بلغت من الجلال منك
يجري جمالك في الجوانح كوثرًا فتفيض إحساسا بحر هواك
ونحس حبك في القلوب كأنه من لدغة التيار في الأسلاك
يا حلّة القرآن أنت جديرة أن يهر الألباب نور سناك

* * *

تحيا اللغا ما دام في أبنائها ملك تموت لموته إلاك
فلقد حييت مدى الزمان فتية رياك ماء فؤاده ورواك
حوربت في هذي البلاد ولم يزل يصلى بنوك النار من جراك
حفوا بأنواع المكارة مثلما حفت ورود الروض بالأشواك
هل يبلغ الأعداء منك مؤملا والله في تنزيله يرعاك؟!
لا يحزننك ما يشاع فإنما شعب الجزائر لا يحب سواك²
ومفدي زكريا يدعو إلى حمايتها والعناية بها، لأنها لغة العز والمجد على مدى
العصور، فيقول :

اذكروا حين تفتحون نقاشا أنه ناقش الزمان قتالا
واقنوا الله في العروبة والفصحى.. فكم صوبوا إليها النبلا

(1) أبو بكر مصطفى بن رحمون، ولد بليانة قرب بسكرة عام 1921 م. حفظ القرآن وتلقى علوم اللغة العربية ببلدته، ثم رحل إلى فسنطينة والتحق بتلامذة ابن باديس، واشتغل بالصحافة والتعليم. جمع شعر ونثره ونشر ضمن سلسلة "شعراء الجزائر". كانت نهايته نهاية مأساوية. تنظر مجلة آمال، عدد خاص: الشعر الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 133-134.

(2) مجلة آمال، المرجع نفسه، ص 135-136.

لغة العز والكرامة والمجد قمادى على الدهور احتيالاً¹
ولعل أشدّ النبال وأقساها على اللغة العربية هو توقيف السلطات الاستعمارية
لتعليمها بالمدارس الرسمية، ومحاربة تعليمها بالمدارس الحرة. ويرد رجال الإصلاح
على هذه السياسة المخحفة ببناء المدارس والمساجد والنوادي، لتعليم أبناء الشعب
اللغة الوطنية، ونشر الثقافة العربية. وكان نادي الترقى بالعاصمة واحداً من بين تلك
المؤسسات التي لعبت دوراً فعالاً في محاربة سياسة الاندماج والتجنيس والتغريب،
ولم يتخلف الشعر في هذه المناسبات عن أداء رسالته القومية، قراح يتغنى بالدور
الثقافي والتربوي الذي تلعبه هذه المؤسسات في المجتمع. ومما قيل² بمناسبة تأسيس
نادي الترقى هذه الأبيات لمحمد الهادي السنوسي :

نادٍ الشبية وادعها لـ (النادي) إنَّ النوادي شرعةُ الواردِ
نادٍ سيدكـره الرواة بما لـه من نعمة تترى على الأحفادِ
وسجل التاريخ من أوصافه عزمَ المجدِّ وهمةُ الأجدادِ
ويَهْزُ من أعطافه ما هزَّ من أباءِ فتيته لسانُ الضَّادِ³
أما محمد العيد، فيرى أن هذا النادي هو صوت العروبة، وكهف النشء وملاذه
من الجهل والتجنيس، فيقول :

منارٌ به صوت العروبة يعتلي وكهفٌ به نشء البلدة يحتمي

(1) الديوان،

(2) محمد العيد حوليات تشد بمناسبة الاحتفال السنوي الذي يقام بنادي الترقى. كما له قصائد
بمناسبة بناء المدارس الحرة، أو اختتام السنة الدراسية، وفي كل مناسبة كان يذكر اللغة العربية
مشيداً بها وبأجداد العرب، ويحث الطلاب على تعلمها والحفاظة عليها. ينظر الديوان، ص 84،
93، 104، 108 وغيرها.

(3) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 138.

ويا فتية النادي سلام ورحمة وبشرى فهذا اليوم أعظمُ موسم
رفعت به رأس العروبة عالياً وعدم على الإسلام فيه بأنعم¹
وقد تعتري الشاعر فرحة، فرحة البناء والتشييد لمثل هذه المنارات، وينطق بلسان
الضاد معتزاً بجمعية العلماء وعملها الدؤوب على التصدي لأعداء اللغة العربية
والدين الإسلامي، ومحاربة أعداء الدين المتعاملين مع الإدارة الاستعمارية، ويقول
محمد السعيد الزاهري محباً للجمعية والعروبة والدين :

حيّ العروبة في جمعية العلماء وحيّ ويحك فيها الدين والشيما
تدعو إلى الله عن علم وبيّنة لا كالذين إلى جهل دعوا وعمى²
وتبذر الجمعية معاهد التعليم في المدن الجزائرية، وتؤسس بقسنطينة أول معهد
للتعليم الثانوي بعد الحرب العالمية الثانية، وهو معهد عبد الحميد بن باديس، ذلك
للمعهد الذي لعب دوراً إشعاعياً ووطنياً وثقافياً. ويتغنّى الشعراء به، ويسردون مآثره
على الحركة الوطنية، ودوره في الحفاظ على اللغة العربية لغة الضاد والقرآن الكريم،
ومفدي زكريا يرى أن هذا المعهد، هو محط آمال الشعب، حيث يضم بين جدرانه
حياة شعب الجزائر كله، وبخاصة عندما يرعى الشخصية العربية في أنثائه، فيقول :

يا دار حُمِلَت آمال البلاد ففي أحشائك اليوم أشبال صناديدُ
ما بين جدرانك تحيا الجزائر لأ من فوق جدرانها تُتلى التهاجيد³
ويتغنّى أحمد سحنون بمناسبة تدشين (دار الطلبة) بقسنطينة، بأعمال الجمعية
التربوية، ويقول: إنها تمثل هذه الدار حققت آمال طلاب العلم في كل أرجاء الوطن،

(1) الديوان، ص 92-93.

(2) الديوان، ص 92-93.

(3) الديوان، المصدر السابق، ص 269.

وأنستهم ما يعانونه من غربة في أوطانهم، والقصيدة بعنوان "واصل كفاحك" ومنها

يا طالب العلم اغتبط فرجك غير مخيب
قد أخصبت كل البلاد بكل روض مخصب
وحبتك مأربك الذي أعظم به من مأرب
فبت لك الدار التي تنسيك كل تغرب
وعلى اتحادك فاعتمد من يتحد لا يغلب
إن الذي يسعى لبث الخلف أكبر مذنب
لكن شعبا يستجيب لمكره شعب غبي¹

ويرتبط الشعر الجزائري في هذه الحقبة بالواقع، والتجربة الشعرية بالعقل والفكر، ويرتبط بمثل هذه المناسبات التي أصبحت تستثير شعرهم، فيرتبط بالمواقف الخطائية القائمة على التحريض المزوج بإثارة الوجد المحترق، والشعور النفسي الحاد، المملوء بالأنفة والاعتزاز.

ولنستمع لأحمد سحنون في قصيدته "يا جارة البحر" والتي ألقاها في الحفلة التي أقيمت بمناسبة إتمام مسجد الأمة ببولوجين بالعاصمة عام 1949:

هَبْ أبناؤك يبنون العـلـا إذ رأوا أن العـلـا أجـدى طـلـابـا
هـجـعـوا دـهـرا فـلـمـا اسـتـقـظـلـوا أسـرـعـوا لـلـمـجـد شـيـبا وشـيـابـا
إن لابن الضاد عزما لو دعا نائي الآمال كالنجم استجابا

* * *

(1) الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 126-127.

حقق ابن العرب للمجد الذي يتنى بالجد، لا المجد اغتصاباً¹
وقد أصيب الشعب الجزائري طيلة الاحتلال بسهم في روحه (اللغة والدين)، إذ
لا توجد رابطة تربط بين ماضي الجزائر المجيد وحاضرها الأغر، ومستقبلها السعيد،
إلا هذا الحبل المتين، وهو: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة
الوطنية المغروسة في نفوس الوطنيين². ويقف الشعراء أمام أعداء اللغة والدين موقفاً
إيجابياً، وقد رأينا كيف لعب الشعر الديني الدور الفعال في احتضان النص الشعري،
وخلق به في أجواء مشرقة من الماضي المجيد، منطلقاً من الواقع المرير، والغاية من
ذلك هي التأكيد على أصالة هذا الشعب، وربطه بمجذوره، لمنع الاستعمار من تحقيق
هدفه، وهو القضاء على اللغة العربية والعروبة بالجزائر.

ورأينا كيف كانت المدارس الحرة والمعاهد والنوادي مجالاً لتحقيق أحلام الشعب
 وآماله، ومجالاً لتنظيم الشعر المعبر عن تلك الأحلام.

وحرصاً منهم على غرس مقومات الشخصية الوطنية في الشباب، وتنشئته على
المبادئ الإسلامية والأخلاق النبيلة. تطبع قصيدة "أنشودة الوليد" لحمد العبد في
كتاب صغير سنة 1938 م، خصيصاً لتلامذة المدارس العربية، والقصيدة من
للولديات ومنها:

أنا مسلم أموى الهدى بسواه لا أتقنق
أنا صارم في وجه من ينوي ابتلاعلك بمشق
إن الذي يغني اندمما جك في سواك لأحق!

(1) الديوان، المصدر نفسه، ص 115. وللشاعر نشيد جمعية العلماء، يتغنّى فيه بأصالة الشعب
الجزائري واتصاله في أمة القرآن، ص 320.

(2) رابع تركي، المرجع السابق، ص 230.

لا ينمحي شعب بشا رات الرسول مُطَوَّق¹

ويتغنى الشعراء بلغة الضاد، ويتطلعون إلى وطن حرّ تنشر فيه هذه اللغة من جديد، لأنها لغة آبائهم وأجدادهم، ويتألمون لكونها أصارت غريبة في عقر دارها ويجسد حمزة بوكوشة² هذا الإحساس إذ يقول :

يا بلبل الشرق ما أشجأك أشجائي قم ناج قلبي بتغريد وتحنان

فإن مثلي كئيب حلّ في شرك وأنت مثلي غريب بين أوطاني³

ورغم الواقع المرير الذي يعيشون فيه، فإنهم لم يفقدوا الأمل في تخلص وطنهم، وإخراج أمتهم من التخلف والاستعباد، وهذا محمد الهادي السنوسي يرفع بصره إلى السماء، فيرى الهلال الذي يذكره بأمته وأجدادها، فيستوحي منه الأمل في خروج أمة العرب من التخلف، فيقول :

هلالك يا فخر العروبة لم يزل كما كان لكن خانه الطعن والضرب

هلال إذا ما الحول حال تجددت لنا فيه آمال يحققها الذبّ

إذا كان سعدا للعروبة طالعا فإنّا وإن غارت طوالعنا عرب⁴

ويفتخرون بلغة الضاد، وسماحة الدين، ذلكم الدين الذي أنارت حضارته العالم بأسره، ومن ذلك قول محمد العيد :

ألسنا من الأجناس أفصحهم فما وأسمحهم دينا وأصلحهم أبا

(1) الديوان، المرجع السابق، ص 166 و168.

(2) حمزة بوكوشة شاعر جزائري من مواليد واد سوف، ورجل من رجال حركة الإصلاح، نظم هذه القصيدة عام 1935. ينظر: عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 137.

(3) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 137.

(4) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 137.

بنا درت الدنيا عليهم بخيرها وأخصب منها كل ما كان أجدياً¹
ويتجلى حرصهم على اللغة وعنايتهم بتعليمها، في الاحتفال بحتم المتون اللغوية،
إذ كانت تلقى القصائد في مثل هذه المناسبات، تهيئ الطلبة بحتمهم لتلك الدروس،
وتحثهم على طلب العلم، والتسلك بالدين والحفاظ على اللغة العربية، ورعايتها
بالدرس الجاد.

فهذا محمد العيد، يلقي قصيدة بمناسبة ختم كتاب (القطر) لابن هشام بمدرسة
بمسكرة أين كان مدرسا بها، والقصيدة بعنوان "يا معشر الطلاب"، ومنها قوله:
لكم اللسانُ الغد في إيضاحه رغما على الساعين في إمامه
لا تملوا هذا اللسان ففقدكم في فقد دوامكم بدوامه
فكأنما هو عقد در فائق رصفاً وعلم النحو سلك نظامه²

وإبان الثورة لعب الشعر دوره في التعبئة السياسية، فهو وإن كان يرتبط في
ظاهر الأمر بالمناسبات والوقائع، إلا أنه في الحقيقة كان شحنتها الكهربائية، بمدى
بالطاقة، ويصرها، ويذكرها بالغاية البعيدة، ويأخذ بيدها كلما سمحت له الفرصة
بذلك.

وجاءت البطولة في الثورة متحدة جارية، متفائلة، مشرقة الطالع، حافلة بالأمان
المعسولة... وتريدها الآلام صموداً وتقاؤلاً، فرغم الجروح والدموع، والآفات،
وقائمة الضحايا المتزايدة..، فإن الغد المشرق كان يجتذبهم إليه بيد سحرية، فتغمرهم
النشوة والاعتزاز بالحياة الحرة الكريمة.

(1) الديوان، المصدر السابق، ص 195.

2 الديوان، ص 195.

ويعيش الشعر ذروة الفخر والاعتزاز بعروبة أبناء وبنات وطنه، أولئك الذين رفعوا لواء التحدي والصمود، في المعقل والسجون، وفي ساحات الوغى، ويعالج الشعر الجزائري مأساة المرأة الجزائرية البطلة، بالروح المتسامية نفسها، وفي ذلك تصعيد للبطولات والتضحية من أجل الحياة. ويقول صالح باوية مخاطبا إحدى الجميلات¹ :

يا جميلة

أنت معنى عربي، لم تصوّره حكاية

ليس في أعماقه لون نهاية

أنت معنى عربي، يرضع الإنسان أسرار البقاء

يشرد التاريخ في أعماقه حين تنادين إلى ثأر اللقاء².

وأكدت الثورة بأن الشخصية العربية الجزائرية الأصلية أقوى من أن تمسخ. وإذا

تغنى الشعراء قبل الثورة بالعربية والعروبة، فهم بعد الثورة يؤكدون ويتحدّ على

أصالة الشعب الجزائري، وفي ذلك يقول صالح خرفي :

لا تلمني على الغناء والتغني

بأماي عروبي لا تلمني

بينها فرق الزمان وبينني

لا تسلمي عن العروبة فينا

إنها تستفز ثأرا دينا

(1) الجميلات الثلاث هن: جميلة بوحريد وجميلة بوعزة وجميلة بوباشا. وكن مثالا لصمود المرأة الجزائرية أمام أساليب القهر والاضطهاد.

(2) مجلة الفكر التونسية، عدد 8، ماي 1958، عن صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م، ص 250.

إنما حية ترن رنيناً

تحدى قساوة المعتدين¹

وبعد اندلاع ثورة نوفمبر قرر البرلمان الفرنسي: أن الجزائر فرنسية جنسا وترابا، وأحدث هذا القرار رد فعل عنيف عند الشعراء الجزائريين، الذين برهنوا على تمسكهم بأصالة شعبهم، وأن الأسطورة القائلة بأن الجزائر فرنسية تجاوزتها الأحداث، وتأتي قصيدة مفدي زكريا "على العروبة سوف تبقى" تأكيداً على الانتماء القومي للشعب الجزائري، الذي صمد في وجه سياسة التغريب قرناً وربع قرن، وخرج من تلك المحنة سالماً، إنه لشعب عظيم، وسوف يسجل له التاريخ تلك البطولة في ميدان الرفض والتحرير. فيقول:

سلي الفصحى.. وقل للضاد رفقا لسان الحال أفصح منك نُطقاً

وخل الشعر، فالأيام شعر قصائدها على الأجيال تُلقى

رسول الشرق.. قل للشرق إنا على عهد العروبة سوف نبقى!

وإما بالجزائر أنكرونا سنحرق وصمة (الإجماع) خرقاً

وقد زعموا الجزائر من فرنسا وراموا (مزجها) سَفْهاً وحمقاً

سيعرف الزمان غداً بأننا سبقنا وثبة الأقدار سبقاً

وأنا في الجزائر خير شعب عروته مدى الأجيال وثقى²

ويحيي أحمد سحنون جيش التحرير، ويؤكد أنه من هنا، من ثورة الجزائر سيبعث

من جديد شعب عربي اللسان والتفكير، فالجيش هو منار مجد للجزائر، ويقول:

نضر الله هذه الأوجه الغر وجوه كتائب التحرير!

(1) صالح خري، المرجع السابق،

(2) الديوان، ص 120-123.

وحباها ما يستحق أولوا الفضل من الاعتبار والتقدير
إن من ها هنا سيعت شعب عربي اللسان والتفكير
أيها الجيش يا مناراً لنشر المجد يقديك جيش بغي وزور
لم نجد في الجيوش مثلك إلا جيش (بدر) في يومه المشهور¹.

وتبرهن الثورة الجزائرية عن وجه عربي مشرق، وتصبح الثورة بسنواتها السبع
مسرحاً لتظاهرة عربية، ومرحلة حاسمة من النضال العربي، ومظهراً رائعاً للعواطف
العربية المتلاحمة، التي دأب الشاعر الجزائري على التغني بها². ويقول مفدي زكريا
مجسداً الوحدة العربية بين أبناء الأمة العربية من المشرق إلى المغرب :

بلاد المغرب العربي (شرق) وكانت قبلة العربي شرقاً
فحبوا في بني بغداد شعباً زكا في الخالدين وطاب عرقا
وحبوا مصر، موطن كل حر وحبوا في أمجادها دمشقاً
رسول الشرق... قل للمشرق إنا على عهد العروبة سوف نبقي³

ويتفاعل صالح خباشة بإعلان الوحدة العربية بين مصر وسوريا سنة 1958 م،
ويتمنى أن تعم الوحدة بين الأقطار العربية، ويحذر من الخطر الاستعماري الذي يهدد
الوطن العربي إن بقي دويلات متفرقة، ويقول :

بردى إلى النيل المرحب أقرب باليت دجلة في اللقاء لا تكذب
فالدولة العظمى بيننا أسها والراية الكبرى رعاها الموكب
فلدروا — بني العرب — الهوان فإنما داء الهوان إذا توالى معطب

(1) الديوان، المصدر السابق، ص 92.

(2) صالح خري، ملامح الجزائر في شعر الثورة، ص 80. نقلاً عن الناس شعبي، المرجع
السابق، ص 99.

(3) الديوان، المصدر السابق، ص 122-123.

كثرت دويلات لنا فكأنها الأوراق يخلطها العدو ويلعب
هل تضمك وحدة كبرى تصون ذمارنا فالإلى متى نتشعب¹
وهكذا أضحت ظاهرة التفتي بالعروبة بارزة عند شعراء الجزائر المحدثين،
وأضحت بطولة الجزائر من بطولات العرب، وعساندة العرب وتضامنهم بلغت
الثورة الجزائرية هدفها، وعاش الجزائري في ظلها مرتبطا بنضال الجزائر ونضال
العرب في كل مكان.

لذلك يدعو "خمار" إلى استمرار الثورة لتحرير كل الأقطار العربية، لأن الأمة
العربية واحدة، والمصير واحد، فيقول غداة استقلال الجزائر مباشرة:
عرب نحن والعروبة إرث ولسان ومذهب ومشاعر
كل جزء في موطني من خليجي المحيطي تقديه منا الكواسر
ثوري لن تكف إلا إذا ما وجدت أمة وهزت مصائر
ما فلسطين للعروبة إلا أمل يلهب الجوانح جمرا
أي نصر كسبته في بلادي ليس نصرا ما دمت أحمل ثارا²
ويتغنى الشاعر بالوحدة المغربية، ويضعها في إطارها الواسع، ضمن الوحدة
العربية الكبرى، وفي ذلك يقول الشاعر:

للمغرب العربي جحفل بعثه في الوحدة الكبرى تقام خيامه³

وهكذا كانت الثورة المسلحة بصراعها ومسيرتها البطولية، على مدى سنواتها
الطويلة، عبر الجزائر، وخارجها، صورة لثورة شعبية تراجمت فيها المواضيع، وتناثرت

(1) الواسع شعبي، المرجع السابق، ص 99-100.

(2) خمار، ظلال وأصداء، ص 110-111، 113. عن الواسع شعبي، المرجع السابق، ص 102 و 104.

(3) المرجع السابق، ص 102-104.

الآيات كتناثر المواقف البطولية على سفوح الأطلس، وفي غياهب السجون والمعتقلات.

وتغنى الشعر فيها بأبجاء الضاد، وتطلعات الشعوب العربية نحو المصير الواحد المشترك.

الوطن:

لقد دأب رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر ومنذ العشرينيات، على تأكيد الذات الجزائرية وإثبات تميزها، فكان أن أعلن ابن باديس أن الإسلام هو الدين، وأن العربية هي اللغة، وأن الجزائر هي الوطن، فأكد ذلك شعراً بقوله :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

فالإسلام والعربية والوطن هي أهم وأخطر المقومات في بناء شخصية الفرد، وقد جمع مفدي زكريا هذه المقومات الثلاثة في قوله :

نحن في هذه الجزائر إخوة	ن، جراحاتنا الثخينة (حمرآ)
لحمة الضاد والعروبة والتآ	ريخ، والدين، أي ربك كبرى
وهواها وماؤها وسماها	وتراها الزكي شيراً فثبيراً ⁽¹⁾

وأما الوطن فهو ما يعيننا هنا، إذ إنه أحد أسباب وجود الفرد، وبذلك لا يمكن لأحد منا أن يشك أن في الإنسان — غريزة وطبعاً — نزوعاً إلى المكان الذي ولد فيه، أو أقام به، وقضى فيه صباه، أو كانت له مآرب قضائها هنالك، فهو الأم

(1) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 283.

الأخرى بالنسبة إليه؛ والبعد عنها ولو لأيام يدفع المرء العادي إلى التعبير عن شوقه إليها، فما بالك بالشاعر الذي يمتاز بركة العاطفة والحس المرهف⁽¹⁾.

والشاعر هو ذلك المخلوق الذي يلتحم بقضايا أمته، ويتمزج بها إيماناً وعملاً؛ وهو الوحيد الذي بإمكانه أن يعكس وجدان الناس ويعبر عن قضاياهم، وما يختلج في صدورهم من مشاعر تحاه حلمهم الواحد: الوطن.

وإن مسؤولية الأولى هي توجيه أبناء أمتهم وتربيتهم، والدفاع عن لغته ووطنه، وما يؤكد لنا العلاقة التي تجمع الشاعر بالوطن والشعب قول سليمان العيسى "الشعر نبض الحياة العميق وقمة كفاح الإنسانية"، وهو القائل أيضاً: "حين قُدر للكلمة أن تحمل جناحين، أخذ الإنسان يحقق معناه؛ وبدأ تاريخه الجميل"، وقد أعرب عن أنه لا يستطيع أن يتصور "إنسانية بلا شعر"⁽²⁾.

ومن ثم فالشاعر على رأي سليمان العيسى، يرتبط أول ما يرتبط بوطنه، من خلال إبداعاته الخافلة بالنبض الإنساني، فهو يتوق إلى الاعتناق والتقدم والحرية وتطويع الوطن، ويعمن في فضح القهر برؤيا شعرية إبداعية، دون أن يكون هناك من يحرق على مواجهته والتمرد عليه، لأن الكلمة لديه هي شعلة من نار، تُوقد منها شعلة الحرية.

والشعب هو المصدر الأول لتقييم أي لون شعري، فإذا ما قرأنا للشاعر الجزائري: محمد العيد آل خليفة قوله:

بلادك في الدنيا تلاك فارغها وحاذر على أكافها أن تُروغعا

(1) تراجع: د. عبد ركني، الشاعر حلواج من التمرد إلى الانتحار (المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986 م، الجزائر)، ص 91.

(2) تراجع: جريدة الفييق، العدد 76، مارس 2002 م — 1422 هـ، ص 15.

وأرضك في الأوطان أمك فاحبها
ببر ففي أخلافها عشت مريضاً
حياتك حرب للضعيف فكُنْ بماقوياً أيّاً أن تذللّ وتخصّعا⁽¹⁾

فلو قرأنا هذا ومثله من شعر (محمد العيد)، لكان من الوقع له والإيجابية على نفوسنا ما لم يكن لعشرات القصائد التي بُثت في الكتب والمجلات⁽²⁾.

وها هو مفدي زكريا يواكب الواقع الجزائري في جميع مراحل النضال، فكان لُبه المقدّس رصاصاً يحترق صدر العدو، وعاش قضية بلاده بكل صدق، فهي التي ذوّبت قلبه، حتى نظمها نشيداً غناه الكون على حدّ تعبيره:

بلادي التي من ذوب قلبي نظمها
نشيداً فعنّى الكون ثورتها شعراً⁽³⁾

وانظر كيف يربط بين البلاد والثورة، وكيف يصنع ملحمة الجزائر بشعره، ويجعل شرف الجزائريين يتوقف على استقلال الجزائر، يقول لفرنسا متحدّياً :

فرنسا ذري الأوهام، فالوهم قاتل
فلسنا نضحّي من جزائرنا شيئاً⁽⁴⁾
وقال بكلّ فخّر :

تلک الجزائر تصنع استقلالها
تخذت له مهج الضحايا مصنعا⁽⁵⁾

كما أن مفدي يؤمن إيماناً عميقاً بحبه لوطنه وتعلّقه به، إلى درجة أنه مهما أطالت الصروف بعده عنها (الجزائر)، فإن قلبه يظلّ يهفو إليها :

(1) محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص 187.

(2) يراجع :د. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة (المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983 م، الجزائر)، ص 164.

(3) اللهب المقدّس، ص 318.

(4) اللهب المقدّس، ص 314.

(5) اللهب المقدّس، ص 67.

جزائر مهما باعد الخطب بيننا تباكر في النجوى، وتنفو بي الذكري⁽¹⁾
بل إنَّ هناك غير مفدي — من الشعراء — من جعلوا من الجزائر أغنية القدر،
ووقفوا شعرهم للتغني بعواطفهم تجاه وطنهم، ذلك أن الشعر الجزائري كان
مرتبطا في مختلف مراحل الحركة الوطنية وسلاحها المعبر عن مسيرتها، كما ارتبط
بمفهوم الأصالة والثرات والوطن، وبكل ما يمس الشخصية الجزائرية⁽²⁾، وقد كان
جلواح أحد رواد هذه الحركة الشعرية، حيث إنَّه لم يقف شعره للتغني بذاتيته
فحسب، بل بعروبه ووطنه، ليرسل نغماته في نبرة رومانسية كتبت في حضن
الذاكرة والرؤى⁽³⁾.

وكما وصف جلواح حياته وتجاربه المرّة فإنَّه قد وصف حنينه لوطنه في عديد
من قصائده، بل كان يخلق المناسبة للحديث عنه وإرسال أناته وشكاته، وقد يكون
الشاعر الوحيد الذي يشبه المهجريين في هذه القصائد التي تجسّد ارتباط الشاعر
بالأرض والإنسان، حيث تمتاز العواطف الوطنية بالمشاعر الذاتية، فتكوّن إنسانا
متمرّدا على سلطة الآخر (المستعمر) ومندمجا مع وطنه رغم البعد، إذ كل شيء في
الغربة يذكرّه بوطنه الذي فارقه مكرها⁽⁴⁾، وها هو يدي حنينه إليه، ويعبر عن لطفه
إلى بلاده، في قصيدته: (أتين من وراء البحر)، داعيا من الله أن يعجل في عودته إلى
وطنه :

(1) الله المقتدس، ص 314.

(2) يراجع: شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر (المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985
م، الجزائر)، ص 68.

(3) يراجع: د. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح، ص 155.

(4) يراجع: د. عبد الله ركيبي، مرجع سبق ذكره، ص 180.

يا ربَّ عَجَّلْ لنا منها بأوبتنا إلى الجزائر أفق اليمن والكرم

وفي قصيدة أخرى (زورة الوداع) يؤكد عزمه على السفر والعودة إلى وطنه، ولا غرابة في ذلك⁽¹⁾، إذ إنَّ معظم قصائد الشاعر جلواح يصعب فصلها عن حياته ووطنه، إنما هو قليل الاهتمام بالموضوعات الإصلاحية، كما فعل شعراء الحركة الوطنية.

وتراه يهمس إذا ما ذكر شجونه، وآلامه وأحزانه، أما إذا تعلّق الأمر بوطنه أو أعدائه من المستعمرين، فإنه يلجأ إلى التعابير الغليظة والبرة الحماسية المتبقطة، ثم يعلو صوته عندما يتذكر وطنه والمعتدين عليه، وخاصة إذا ذكر الماضي والأصل والنسب :

وقل لمن أصغرونا في عيونهم أظنكم قد نسيتم أننا عرب
وأننا من بني الصيد الذين هم تلت عروش زهاها الفخر والعجب⁽²⁾
وكان محمد السعيد الزاهري يفتش عن الكلمات ليصور غربته وحنينه على بلاده:

تركت ورائي بالجزائر من إذا تذكرهم زاد الفؤاد تلها⁽³⁾
ولعلّ من السّمات البارزة في الشعر الرومانسي الجزائري، الربط والإيحاء، إذ يخاطب الشاعر القمر مطالباً إياه برفض الاستعمار، ومن ثمّ يوحى إلى الشعب أن

(1) م.ن، ص 91.

(2) تراجع: د. عبد الله ركيبي، مرجع سبق ذكره، ص 196/195/194.

(3) تراجع: مجلة آمال، نماذج من الشعر الجزائري، ص 29.

يثور هو الآخر على المستعمر، وفي أحيان أخرى يقرن الشاعر بين "وصف الطبيعة وبين التغزل بالمحبة، وقد تكون هذه المحبة رمزاً للوطن"⁽¹⁾.

وهذا فشحراؤنا يصفون الطبيعة وفي مخيلتهم طبيعة أخرى وبئة خاصة هي طبيعة بلادهم وواقع وطنهم⁽²⁾.

وقريب من ذلك تماما حديث الشاعر محمد الصالح خبشاش عن الواقع والطائر وحال البلاد، إذ يتمنى لو كان مثل الطير يستطيع الطيران، حيث يتعد عن الظلم، لأنه في بلاد الكلام فيها محظور:

لو كنت مثلك مطلقاً حرّاً لما ضيّعت وقتي حسرة ونواحا
لكني يا طير موثق أرجلٍ ومكّم لا أستطيع صداحا⁽³⁾

أو كما فعل الشاعر حسن بولحال في قصيدة (أحقاً يا جمال الكون)، مما يؤكد النظرة الوطنية الواضحة، وبروز الخشية على الوطن، إذ يصف القمر وقد حشي عليه من الاستعمار الذي ساد وطنه، فخاطبه إشفافاً عليه :

أحقاً يا جمال الكون حقاً
ستصبح بعد عزّك مسترقاً
وتعلوك الأسافل من أناس
رأيت فعالمهم غرباً وشرقاً
وترضى أن تسير على بساط

(1) د. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح، ص 23/22.

(2) د. م. ن.، ص 45/44.

(3) تراجع: د. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح، ص 21.

من الأنوار أرجلهم وترقى⁽¹⁾

وقد عاش شاعرنا رمضان حمود الوطنية قولاً وعملاً، ولم يقف عاطفته إلا على شعبه المعذب، "فلم تقرأ له قصيدة غزلية، وانشغل فكره بمصير وطنه، فلم يتغنّ بغير النهوض به، وهب نفسه لخدمة القضية الوطنية، وشعره للتبشير بها:

وشعري كالحسام يصون عرضاً بلا حرب عوان أو قتال
يصادم من يعيث بمجد قومي ويطعن ذا الضلال بلا نزال
ويضرم جذوة الألباب ناراً ويشعل أنفسا أي اشتعال

أيسره كما شاءت ظروف ولكن كله إلى المعالي⁽²⁾

وكذا اللقائي بن السائح فهو أحد أولئك الذين خدموا وطنهم بالكلمة واحترقوا بنارها، له في التغزل بوطنه قصيدة باح فيها بتيارريح الشوق وتوجهه وشدة وجده من أجل الجزائر، بعضها :

أنا أهواك ومثلي في الهوى لا يزال
صار جسمي من تباريح الجوى كالخلخال
كل همّي أن أرى مالكسي في كمال⁽³⁾

هذا إلى جانب شعراء كثيرين، أضأوا درب الحركة الشعرية الجزائرية، سواء أكان ذلك قبل الثورة التحريرية أم أثناءها، من أمثال محمد الأمين العمودي، أحمد البدرى، عبد الرحمن بن العقون، الربيع بوشامة، عبد الكريم العقون، محمد الأخضر

(1) م.ن، ص 22.

(2) د. صالح خري، رمضان حمود، ص 49.

(3) تراجع: مجلة آمال، نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، ص 20.

السائح، صالح باوية...⁽¹⁾. والذين خلّفوا لوحات شعرية، لا تمحوها الأيام ولا السنون، وجعلوا من الجزائر: الوطن الأنموذج والثورة الخالدة.

التاريخ والعادات والتقاليد:

التاريخ مرآة الماضي، ومصعد الحاضر، وشهادة حياة الأمة وسجل أعمالها الشريفة، وتذكّار عبقريتها، ورباط وحدتها، وميزان تقدمها⁽²⁾. كلمة قالها مبارك الميلي عام 1928 م، توحى بصحوة شعب راح يتلمسها في ماضيه، منطلقا من حاضره المزري، متخطيا بوعيه الفكري والحضاري كل العراقيل الاستعمارية، إلى مرحلة الإصلاح، حيث خطا خطوات عملية في طريق التغيير، الذي جسّدته الحركة الوطنية في الجزائر انطلاقا من اللفتة التاريخية إلى الموقف البطولي المسلح.

ووقف الشعر من هذه الدعامة القوية موقفا إيجابيا ورائدا، وبخاصة في ظل جمعية العلماء التي كان شعارها "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا والجزائر وطننا"⁽³⁾. وقد خطت خطوات عملاقة في المجال القومي والوطني، من خلال بعثها للتراث، وتركيزها عليه في المناسبات الدينية والأعياد الوطنية التي حرصوا على الاحتفال بها، حتى أضحت تلك الاحتفالات عادة حميدة لديهم، وبفضلها قويت الصلة بين الشخصية الجزائرية وماضيها العربي الإسلامي.

وبميلاد هذه الجمعية، ولد في النص الشعري حسّ جديد، يحدوه الأمل في المستقبل، ويحفزه الانبعاث الفكري، وتغيرت نظرة الشاعر إلى الماضي، فبعد ما كان

(1) للاستزادة، تراجع: مجلة آمال (سلسلة الشعر الجزائري المعاصر).

(2) مبارك الميلي: تاريخ الجزائر القديم والحديث، عن صالح خرفي، المرجع السابق، ص 98.

(3) رابع تركي، المرجع السابق، ص 68.

يقف على أطلاله باكيا ومستبكيا في العشرينيات، صار في الثلاثينيات يقف عليه ليستمد منه القوة على التغيير، والأمل في المستقبل⁽¹⁾.

وأصبحت أبحاد الماضي تلقى لها صورا في الحشود التي يجمعها افتتاح مدرسة حرة، أو اجتماع لتقييم أعمال الجمعية في نادي الترقى بالعاصمة، وهنا ينطلق الشعر من عقاله، فتجد لمحمد العيد مثلا قصيدة أو أكثر في كل مناسبة، وتكرر المناسبات ويتجدد الموقف، وينشد الشاعر ما تجود به قريحته. وكان شعره صورة أمينة ووفية لحركة الإصلاح، وما نادى به الجمعية. كما تجد فيه صورة لكل شخصية بارزة من شخصياتها. وكان الشاعر ينطلق من المناسبة كحدث إلى الحديث عن الواقع المرير، ويصور معاناة الشعب جراء الاستعمار، ثم يخلق في الماضي العريق ليربطه بالحاضر.

ويمكننا أن نقول: إن التوعية التاريخية — في الشعر الجزائري الحديث — مرت بثلاث مراحل: الحسرة والتفجع، وكان ذلك في العشرينيات، والاعتزاز والإثارة في الثلاثينيات والأربعينيات، فتداعي الأبحاد الغابرة والحاضرة في ثورة نوفمبر في الخمسينيات⁽²⁾.

لقد اتجه الشعراء — مع بداية الصحوة — إلى أنفسهم، فراحوا يبحثون عنها بين صفحات التاريخ وأبحاد الماضي العريق، وواقعهم المزري، فلم يجدوا سوى الحسرة والألم، واكتفوا بالبكاء على أطلال العرب. ولعل قصيدة رمضان محمود التي سماها "دمعة حارة في سبيل الأمة والشرف" كافية للتعبير عن موقف الشعراء آنذاك من

(1) ينظر: صالح محري، المرجع السابق، ص 101. وأنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر (1945 حتى الاستقلال)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 71-72.

(2) صالح محري، المرجع السابق، ص 103.

الماضي، فقد كرر الشاعر لفظة "بكيت" مع التفعيلة الأولى لكل بيت — تقريبا — في قصيدة بلغ عدد أبياتها الثلاثين، ويقول :

بكيت ومنلي لا يحقّ له البكا على أمة مخلوقة للنوازل
بكيت عليها رحمة وصباية وإني على ذاك البكا غير نادم⁽¹⁾

وهذا الموقف السلبي الإيجابي لم يسلم منه شاعر جزائري في ذلك العصر. وهو نفسه ولّد عند بعض الشعراء الآخرين مناهضة هذا الموقف السلبي من أجداد الماضي. وهذا الزاهري ينعي على الباكين بكاءهم، ويدفعهم إلى عمل مثمر خلاق بأجداد الماضي، فيقول:

وربّ بك على الماضين قلت له إن البكا لشأن الخرد العيسد
هيا إلى عمل يجدي فحاجتنا إلى أحي عمل بالعزم معضود⁽²⁾

والشعر في الحالتين، ما هو إلا تعبير صادق عن واقع مزّر، ولعل الذكرى فيه جاءت للموعظة. وتأتي النهضة الإصلاحية لتأخذ بيد هذا الموقف الشعري من التاريخ والتراث، ويصبح في ظلها بعثا للماضي الجيد، وتأكيدا لأصالة النسب، والتاريخ والحضارة. يقول محمد العيد:

وأنا لشعب يعلم الله أنه كريم حنيف الرأي مرتفع الكعب
سليل جلود ناهمين أعزّة مغاوير شوس كالضراغمة الغلب⁽³⁾

وقد واجه الشعر الطعنات المسمومة التي وجهت لتاريخ الجزائر، من أقلام جزائرية، والتي أصبحت تجسّم موجة جارفة في دعوتها إلى التمرد على الماضي والانسلاخ عنه، وإنكار كل ما يربطنا به من عقيدة وقومية، ويفقد الشعر تلك

(1) صالح خرفي، المرجع السابق، ص 104.

(2) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر: المصدر السابق، ص 89.

(3) الديوان، ص 248.

الادعاءات، ويدحضها بالبراهين والأدلة المستمدة من التاريخ العريق، ويأخذ محمد العيد بيد هؤلاء الجاهلين بتاريخهم الوطني، فيبصّره بهم، ويشيد بالعواصم الجزائرية التي كانت منارات للتاريخ، فيقول :

لا تقولوا هان الجدود فهنا
ساء نشء له بهم سوء ظنّ
في تلمسان في بحاية في القلعة ازدهى كل فن⁽¹⁾

وما هو في قصيدة له بعنوان "سلوا التاريخ"⁽²⁾ يذكر بأجداد التاريخ الإسلامي، ليخط الأسوة لهذه الأجيال كي تنهض، ثم يتحدث عن قضية تحرير الجزائر، مستنكرا الخطط الاستعمارية الرامية إلى تحطيم مصير الشعوب العربية، ثم يدعو الشعب إلى الاستيقاظ وينبهه إلى الخطر المحدق به، ويتساءل: هل سينال هذا الشعب حقه في الحرية مثل أشقائه في ليبيا.. ويرسم الطريق إليها، والمتمثل في النضال والجهاد.. كل هذا والقصيدة قيلت في ذكرى المولد النبوي، وكان بإمكان الشاعر أن يكتفي بالحديث عن الرسول ﷺ والإشادة بالأعمال الصالحة التي جاءت بها الرسالة، إلا أنه تطرق إلى نقد الواقع الذي يعيشه شعبه، محاولا استنهاضه، مستغلا المناسبة الدينية التي تجمعهم مباشرة مع الجمهور، وهي فرصة لبث أفكاره التحررية، وإلهاب حماس الشعب لخوض غمار الثورة المسلحة من أجل الحرية والكرامة.

وهذا المنحى يعد تطورا موضوعيا للقصيدة الدينية في الجزائر⁽³⁾. ويمكننا تصنيفه ضمن الأدب الواقعي الانتقادي، والذي ساهمت في خلقه الظروف السياسية

(1) الديوان، ص 109.

(2) الديوان، ص 198.

(3) الوناس شعباني، المرجع السابق، ص 26.

والاجتماعية التي خلفتها حوادث الثامن ماي 1945 م، وثورة نوفمبر المظفرة⁽¹⁾. وبعد الحرب العالمية الثانية، اكتست المناسبات الدينية صبغة سياسية في الشعر، حيث تحول المضمون والشكل إلى صفحة ثورية، تلبس الموقف المغربي في التاريخ ألقاظا سياسية معاصرة مثل: الثورة والوطنية والاستعمار⁽²⁾. وكانت تلك الألفاظ تستصرخ شباب القرآن، وفتية الضاد، وكل من في مقدوره التغيير الثوري، يقول أحمد سحنون :

يا فتية الضاد هذا شهر المحرم حيا
شهر تألق فيه تاريخنا عبقريا
عودوا له إن أردتم نشءا قويا فتيا
متيما بالمعالي ومسلما وطيا
إن لم تكن مثل طه فلسنت من طه شيا⁽³⁾

وأصبح الشعراء في كل مناسبة دينية يقفون مع الذكرى معتزين بالماضي ومفتخرين بالأجداد، داعين الشباب إلى الوفاء لذلك الماضي، والانتماء إلى أمة عريقة يوجب مسؤولية كبرى، هي التواصل مع ذلك الماضي، بالحفاظ عليه، وبناء أجداد أخرى تضاف إلى رصيده، وصار النص الأدبي يتوفر على عنصرين هما: الإقرار

(1) زينب الأعوج، السمات الواقعية للتجربة الشعرية في الجزائر — دار الحداثة — بيروت، ط1، 1985، ص 7، 8.

(2) الوناس شعبان، المرجع السابق، ص 27.

(3) الديوان، ص 194-195.

بأصالة التاريخ، والدعوة إلى المحافظة عليه قولاً وعملاً^(١). ويقول أحمد سحنون في قصيدة نظمها في الاحتفال برأس السنة الهجرية :

أي تاريخ كتاريخ جدد؟ كل يوم منه سفر من خلود
كل يوم ثورة جبارة تنجلي عن نضرة الحق الطريد^(٢)

وكما كان للتاريخ العربي الإسلامي حظاً كبيراً في الشعر الجزائري الحديث، كان للشاعر لفئات إقليمية تاريخية، فهذا الربيع بوشامة يستوحى من الساحل الجزائري تاريخ أجداده الجزائريين الحافل بالبطولة والجد، ويتلمس ذلك في شخصيات لامعة، كابن تومرت، وفي دولة بني حماد، فيقول:

يا ساحل المجد هيا اسمع لإنشادي في حصنك المجتلي بوركت من واد
واهزج معي بأغاني الخلد مذكراً أيامك الغر في دنيا ابن حماد
أو من عهود ابن تومرت وفتيته بُناة عزّ بدين جامع هـاد
ثم يلتفت إلى أبناء الجزائر، أحفاد ابن تومرت وابن حماد، ويدعوهم إلى المحافظة على تاريخ الأجداد، وإعادته من أسر العدا، فيقول :

سكنتم ذرا الأوطان في حسرم مقدس ساد مستعمر عاد
قوموا لحفظ تراث من مكارمكم وحطموا كل أغلال وأصفاد^(٣)
أما قسنطينة فتجلى فيها آثار القداسة والبطولة، من "صالح باي" إلى جانب عراقتها في العلم والحضارة، وهي التي احتضنت النهضة الجزائرية الحديثة، ومنها

(١) إن التمسك بالتاريخ الإسلامي يتجسد في التأريخ بالسنة الهجرية، وهذا ما لسنه في كتاب "شعراء الجزائر" إذ وجدنا أحد عشر شاعراً كتبوا سنة ميلادهم بالهجري فقط.

(٢) الديوان، ص 103.

(٣) صالح خرفي، المرجع السابق، ص 126.

انبعثت الثقافة العربية الإسلامية على يد زعيم النهضة — ابن باديس — وقد تغنى الشعراء بتلك الأبحاد ووقفوا عليها وقفة اعتزاز وافتخار وإنارة. فقال محمد الأخضر السائحي :

قسنطينة الفيحاء ما أنت بلدة ولكنك الجند القدامى المسطر⁽¹⁾
وهي عند محمد العيد "سرتا" الزاخر ماضيها بالحداثات، وهي سرتا العلم والعلماء، والإمام ابن باديس.. والقصيدة حافلة بالنصائح القيمة والإرشادات الحكيمة التي رصع بها جبين القصيدة، إذ يقول :

حشوا العزائم واصدقوا الآمالا إن الزمان يسجل الأعمالا
وفي وصف المدينة يقول :

فأحر بسرتا حيث سرت بقطرنا واضرب بفطنة أهلها الأمشالا
واذكر أوائلها بني فنيقيـا واذكر بها الرومان والوندالا
واذكر أتراكها وإن اعتدوا حالا فقد حرسوا الرعية حالا
واذكر من البايات أحمد إنه زاد العدى عنها وصال وجالا
قُم حي أخت الآستانة نشأة وحضارة ونضارة وجمالا⁽²⁾

وفي الخمسينيات تتضافر عوامل النجاح لهذه التوعية التاريخية، ويكتمل الإطار الزمني للوعي التاريخي، وتوضح المعالم، وتبرز الشخصية — التي كانت نائية — عملاقة صامدة، وغدا السؤال عنها تحديا بها، وتبخر أسطورة الجزائر فرنسية، وتفتضح أكذوبة الجزائر بلا تاريخ، ولم تلح بشائر الثورة المسلحة، حتى كانت الشخصية القومية أرسخ قاعدة لانطلاقها، وسبيلا لصمودها واستمرارها، وهنا

(1) صالح خرفي، المرجع السابق، ص 126.

(2) الديوان، ص 339-340.

تصبح اللفتة إلى الماضي يمينا وقسما، وعهدا شريفا، وتغدو الذكرى أبعد ما تكون عن الشفاعة والاستعطاف، وأقرب ما تكون إلى تجديد العهد وتأكيد البيعة. قال الربيع بوشامة :

هذي يميني عن الشبان صادقة خذها لأحمد عهدا عند رجعاك⁽¹⁾

وأصبحت ثورة نوفمبر 1954 م نشرا للأعجاد، وبعثا للبطولات الكامنة في أعماق التاريخ، ويصبح الموقف البطولي الحي ذروة للوعي التاريخي، فاللفتة إلى الماضي تنقصبها وثبة في ساحة الشرف، وتلوح الذكريات مرفرفة على شهداء الشعب الجزائري في السهول والجبال، حادية بالأبطال إلى النصر، ويتلاشى الزمن، ويتعاقب الموقفان البطوليان الماضي والحاضر، وتنصهر الشخصية التاريخية — الرمز — في الشخصية المعاصرة، وتكتسي الأسماء الرمزية أبطال الثورة، تلك الأسماء التي كانت تنوزعها القصائد بالأمس أصبحت تتنافس عليها ساحات المعارك.

وتتحول رسالة الشعر من استلهام الماضي إلى تمجيده حيا في الحاضر، ومن التغيي بالأسماء ذكريات، إلى التحدي بها مواقف.

يقول الشاعر صالح خري :

إن كنتم تُحارب إن من	أجدادنا من باع فيها واشترى
فرسان حومتها سلوا صهواتها	كم أسرحت بـ(ابن الوليد وعنترا)
سنسبها عمرية، سعدية	ستبر رملتها قتاما أغبراً
ذكرى سنجعلها وتبقى عبرة	في الخافقين لمن وعى وتذكر ⁽²⁾

(1) صالح خري، ص 128.

(2) صالح خري، ص 128.

أما الشهيد، فسيستوسد أرضاً عربية عريقة، في احتضان رفات أبطال من شهداء الأمة. قال مفدي زكريا :

دم الصحابة معجون بتريتها وبين أضلعها آباؤنا الصيد⁽¹⁾

ولا شك أن مصرع المواطن على رفات آبائه وأجداده تأكيد لتواصل الشخصية الوطنية وخلودها، وتأكيد لأصالة التراب وتعديه لكل مسخ، فهنا سقط عقبة شهيداً، وهناك حسان بن النعمان، والجزائري الذي عرف بالتضحية في الساحات الغربية، كيف لا يستهويه الاستشهاد فوق ساحات أجداده. قال السائح على لسان الشهيد :

آه لو تدري أنني في مكان	لثم التراب فيه أقدام عقبة
وغشاها حسان ذات صباح	ورآه عند المسافأحبه
عربي هذا التراب فلا تخشى	علينا فلن يسلم عربيه
قد سقمنا صخوره وثره	بدم لم نزل نواصل سكبه
وزرعناه ألف عام إبساء	وشموخا ورحمة ومعبه ⁽²⁾

وإذا كانت الذكريات القديمة تؤكد أصالة الشخصية، فإن القرية منها تثير تلاحمها وتجدها، وتتجاوب الأصداء، وينصهر الأمس مع اليوم، ويتصدر اسم الأمير عبد القادر ومن تلاه من الأبطال كالمقراني وابن زيان، والحداد، الشعر النضالي، كما تصدر أصحابها بالأمس البطولة، وكأن التاريخ أصبح يعيد نفسه. قال مفدي زكريا:

إذا ذكر التاريخ أبطال أمة يغرّ لذكراك الزمانُ ويسجد
أثرت على العاتين حرباً ولم نزل عليهم تلقى كالجحيم وتوقد

(1) الديوان، ص 263.

(2) همسات وصرخات، ص 12، عن صالح خري، ص 130.

وجيشك اليوم عبد القادر ظافر يحطم هامات الطغاة ويحصد
 يقلس الشعب فيك أعظم قائد هامام له الأجيال تروي وتشهد⁽¹⁾
 وعاد التاريخ إلى مجراه الطبيعي، وواكب الشعر صحوته، وتعانقت الذكريات في
 ساحات الشرف، في مسيرة بطولية لم يوقفها إلا النصر المبين. وكان الشعر فيها
 صورة لالتحام الشعب بماضيه، ونزوع الشخصية إلى جذورها أين التقى الدين واللغة
 والوطن والتاريخ، وبها حلق الشعر في الأجواء الخالدة لهذه الأمة.
 وحرى بنا أن نسجل لهذا الشعر النضالي في مسيرته الطويلة من (1925 م حتى
 الاستقلال) بأنه قام برسائله أحسن قيام، دافع عن الكيان الجزائري ومقومات
 الشخصية وقام بتوعية الجماهير فأيقظ الشعب من غفلته، وهز أعطافه، فاستجاب
 الشعب لنداء الشعراء، وحققوا حلمهم في الثورة على العدو⁽²⁾، حتى تم له النصر
 واستعاد الحرية والهوية، وبات من واجبه اليوم الحفاظ عليهما. فكما قال محمد
 العيد: تلك وديعة السلف الزاكي فهلاً تصونها الأعقاب⁽³⁾.

(1) الديوان، ص 173.

(2) أدب النضال، المرجع السابق، ص 95.

(3) الديوان، ص 231.

الخاتمة:

بعد معايشتنا للموضوع، نسجل النتائج الآتية :

— أن هذا الشعر أدى دورا فعالا في بعث الروح الوطنية في الأمة، فأعاد إلى الشعب الجزائري ثقته بنفسه وبأمته العريقة.

— كما كان سلاحا حادًا في يد الشعراء الذين حملوا لواء الدفاع عن كيان شعبهم ووطنهم ضد الاحتلال.

— عمل هذا الشعر على تصوير الأحداث، وتوجيه النشء إلى مواقع العبرة والموعظة، من التاريخ العربي الإسلامي القديم والحديث، ومن تاريخ الجزائر.

— كما أنه شجذ أفراد الأمة بطاقات من العزة والإحساس القومي العريق من خلال ربطه بين الماضي والحاضر، وتصويره لأجداد الأمة.

— أن لجمعية العلماء الفضل الكبير في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية.

— أن الشعراء قدموا في غمار ثورتهم على الظلم أصدق وأنبل شعر يقدمه شاعر إلى وطنه وأمته.

— أن الشعر بعد الثورة دخل مرحلة جديدة حاسمة، وتطور تطورًا ملحوظًا إذ أصبح الشاعر يسجل انتصارات الأبطال ويتغنى بالحرية والوطن، ويخلد الشهداء، وهو في غمار ذلك لا يتوانى عن ربط هذه الأجداد بأجداد الآباء والأجداد في التاريخ الإسلامي والعربي، أو أبطال التاريخ الجزائري، وغرضه هو ربط هذه الأمة بجذورها الحضارية العمق في التاريخ، تاريخ الشرف والعزة والكرامة.

— أن هذا الشعر عرّف بمقومات الشخصية الجزائرية، وربطها بأصولها، ودافع عنها ودعا إلى الحفاظ عليها، وبناء أجداد أخرى تضاف إلى رصيدها في مجال الحضارة والفكر، والنضال.

أما الدراسة الفنية فقد أرجأناها لبحث لاحق إن شاء الله.

القصة في الأدب الجزائري 1925-1962

(الرؤية والأداة)

إعداد كل من:

* الأستاذة أمال لوائي

* الأستاذة سكيمة قدور

نشأت القصة الجزائرية القصيرة في مرحلة متأخرة عن ظهور مثيلتها في المشرق العربي، ويعود ذلك لطبيعة الاستعمار الفرنسي الذي ضرب حصارا شديدا على اللغة العربية، وحاول طمس معالمها، وهمش ذوي الثقافة العربية، ويعود من جهة أخرى إلى تكوين الأدباء أنفسهم الذي كان مرتبطا بالتراث منذ البدايات الأولى للنهضة الأدبية بالجزائر، إذ لم يكن لهم إطلاع على الظواهر الأدبية الجديدة ومنها المبادئ الفنية للقصة.

تعود البواكير الأولى للقصة الجزائرية إلى أوساط العشرينيات التي شهدت يقظة فكرية، واكتبها ظهور صحافة عربية وطنية، ورغم طغيان الحركة الشعرية في الواقع الأدبي لما له من دور حماسي في بعث النهضة الوطنية، إلا أن القصة القصيرة وجدت منفذا ومتنفسا لها في الصحافة الوطنية والعربية "كالجزائر، البصائر، الشهاب، الشعلة، الرسالة...".

وقد قسم الدارسون القصة القصيرة في الجزائر قبل الاستقلال إلى مرحلتين:

1- المرحلة الأولى (1913-1956م): اتسمت بطابع الروح الإصلاحية،

لأنها ولدت على صفحات صحافة جمعية العلماء المسلمين، وكان لجمعية العلماء هدفان رئيسيان، الإصلاح الديني والأخلاقي للمجتمع الجزائري، ولهذا فمعظم موضوعات هذه القصص هو التركيز على مقومات الشخصية الوطنية المتعلقة بالدين واللغة والثقافة العربية الإسلامية بعد الانحراف التدريجي عن الأصالة العربية الإسلامية تحت تأثير الاستعمار الغربي، وكانت الغاية هي تطهير الإسلام من كافة

الآفات التي عقلت به مع تتالي العصور⁽¹⁾.

2- المرحلة الثانية: (1956-1962م): التزمت بقضايا النضال وترتكز معظم القصص على حرب التحرير وأهدافها الثورية وهي الحرية والاستقلال وإعادة الشخصية الوطنية⁽²⁾.

— كما اهتم الدارسون للقصة قبل الاستقلال بعرض إشكاليتين هما:

1- إشكالية الفنية في القصة لأن العديد من هذه القصص يفتقر إلى المبادئ، إذ ترددت عدة مصطلحات فنية كالمقال القصصي والصورة القصصية واتضح المسافة التي تفصل بين مستوى القصة القصيرة الجزائرية الفني في بدايتها الأولى، والقصة القصيرة الفنية المتميزة بالسمات والخصائص المتفق عليها لدى معظم الدارسين، وهذا يرجع إلى عدة عوامل سياسية واجتماعية وثقافية وفنية⁽³⁾، ففي المرحلة الأولى لم يظفر الأسلوب الفني في القصة بأدنى عناية لميل كتاب القصة إلى الخطابة والسرد والحشو... وبالرغم مما اتصفت به هذه الفترة من نقص وسلبات، فإنها تعتبر محاولات أولى جادة في مسار تاريخ القصة الجزائرية، أما المرحلة الثانية فقد تغير مجرى القصة تبعاً لأحداث الثورة، إذ تأهبت أقلام جديدة للكتابة عنها... ومعظم هؤلاء الكتاب مقيمون خارج الوطن... حيث توفرت لهم حرية النشر وكثرة القراء، وبذلك نالت حظاً وافراً من التطور الفني كما سبق إذ توفر المناخ الفكري اللائق بإطلاعهم على ما أُلّف في ميدان القصة العربية والأجنبية، وبذلك

(1)-انظر: أحمد طالب، الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص24. كذلك، عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي، ديوان المطبوعات الجامعية، ص305-326.

(2)-انظر. أحمد طالب. المرجع نفسه، ص25. كذلك عايدة أديب بامية، المرجع نفسه، ص327-340.

(3)-انظر. عبد الله الركبي، القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر، ص10-45.

أتيحت لهم فرصة المساهمة في تطوير القصة إبان الثورة⁽¹⁾، إلا أننا في هذه الدراسة الموضوعية لم نركز على هذه الإشكالية، واعتبرنا كل المحاولات القصصية المكتوبة في الفترة الممتدة بين (1925-1962م) قصة قصيرة.

2- إشكالية اللغة والتعبير في الأدب الجزائري والمقصود هو الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، حيث اهتمت كثير من الدراسات بالقصة القصيرة المكتوبة بالفرنسية وبعرض موضوعاتها والتعريف بأبرز أعلامها⁽²⁾. وهو مبحث خارج عن إطار دراستنا.

أولاً: القصة والرؤية الموضوعية

إن القراءة الموضوعية للمضامين القصصية قبل الاستقلال تكشف عن تداخل المواضيع في القصة الواحدة، وتشابهها مع قصص أخرى، إذ لا يمكن فصل الملامح الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو الثقافية للشخصية الوطنية عن بعضها البعض. ولكننا حاولنا مع ذلك تقسيمها إلى موضوعات منفصلة من أجل تسهيل دراستها، وتحديد رؤيتها المخورية، واستقراء مقومات الشخصية الوطنية من خلالها من دين وقيم وعادات وتقاليد ولغة وثقافة ونضال في سبيل تحرير الوطن، وتلك الموضوعات هي:

1- الموضوعات الدينية الإصلاحية.

2- الموضوعات السياسية التحريرية.

3- الموضوعات الاجتماعية.

4- الموضوعات الثقافية.

(1)- انظر. أحمد طالب، المرجع السابق، ص 24-25.

(2)- انظر. سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،

1967م، ص 125-200. كذلك. عائدة أديب بامية، المرجع السابق، ص 376-404.

1- الموضوعات الإصلاحية الدينية:

ينتمي معظم كتاب هذه الموضوعات إلى المدرسة الإصلاحية التي كانت لها اليد الطولى في حماية قيم المجتمع من الإندثار، وتأتي على رأس الحركات الإصلاحية الجزائرية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست عام 1931 وحددت مسؤوليتها في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي، فأصبحت فكرة إصلاح المجتمع هي محور حركة الإبداع الأدبي. وإن اهتمت أول عهدها بالشعر والمقال دون الفنون الثرية الأخرى، لتفتح الجمعية أبواب النشر لكل من توسعت في أسلوبه الأدبي شيئا من أهدافها الإصلاحية التربوية، فظهرت القصة القصيرة واستطاعت جمعية العلماء بقيمتها وسلطانها الروحية توجيه مسار الحركة الأدبية نحو المقاصد والأهداف التي رسمتها، بما يتيح للجزائريين وعيا جديدا يساعدهم في الحفاظ على كياناتهم ومقومات شخصيتهم التي عمد المستعمر إلى محاربتها وحاول طمس معالمها.

وربما كان الصراع الديني الذي قام بين الإسلام والمسيحية من أبرز تلك الموضوعات، فقد توغل المبشرون في أعماق البلاد، لأنهم يعلمون أن أكبر رابط للجزائري بوطنه هو هذا الدين وما يحمله من قيم تحمته على حماية الأوطان وصيانتها. ولعلنا نكتفي بقصتين عالجتا قضية التنصير إحداها لعبد الله الركبي "صديقي عمار" حيث صوّرت شابا تفلح آلة التنصير في حذبه ولا تمضي إلا أيام قلائل حتى «خلع صاحبنا عمار قبعته من على رأسه ولبس طربوشا ثم مضى توا إلى الكاثوليك الذين كان في مدرستهم بين جمهورهم وقال لهم: جئت لأخبركم بأي تركت دينكم وما تعبدون... واتبعت ملة آبائي المسلمين...»⁽¹⁾. وإذا فشل المنصرون مع هذا الشاب فإن بعثاتهم التنصيرية أفلحت مع نماذج بشرية أخرى، مستغلة فقرها وجهلها، ومن الكتاب الذين تشبعوا بالروح الدينية وعالجوا هذه القضية الخطيرة

(1)- عبد الله الركبي، القصة الجزائرية القصيرة، 58.

"محمد السعيد الزاهري" في أكثر من محاولة قصصية جمعها في كتاب "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"⁽¹⁾، أهمها "سوزان عائشة كانت"، فهي تروي قصة فتاة جزائرية دخلت مدرسة الراهبات لتتال قسطا من التعليم ولكنها تحولت إلى فتاة مسيحية اسمها "سوزان" وتقصد بعد وفاة والديها ديورا وترهب هناك، وتبلغ المأساة قمتها عندما تموت بمرض السل وينقش على قبرها: «هنا تنام القديسة سوزان، عائشة كانت»⁽²⁾.

وتتشابه القضايا الدينية في القصة الجزائرية القصيرة، فلا تكاد قصة تخلو من الإشارة إلى الانحرافات الخطيرة التي عرفتها الحركات الطرقية ودعمها المستعمر حتى يبعد الشعب عن الدين الحقيقي الذي يحثه على العدل والمساواة والحرية وقيم أخرى كثيرة يحرك أبسطها الناس ويدفعهم إلى الثورة على الغاصب لأرضهم والمستبد بخيرات وطنهم، فكان لا بد لهم من مخدر يشغل الناس بأساليب شتى من الشعوذة والخرافات التي عاجلها الكتاب بشيء من السخرية اللاذعة والانتقاد الصريح، من ذلك قصة "إلى زيارة سيدي عابد" لمحمد السعيد الزاهري وفيها حوار بين إصلاحيين ومريد طرقي ولنا أن نتخيل طبيعة ذلك الحوار بينهما وما يعرضه كلاهما من أحاديث وآيات وحجج عقلية⁽³⁾. وفيها إشارة إلى تلك العصرنة التي غزت المجتمع وأغرقت الكثير ببريقها الزائف فراحوا يلهثون خلف كل مظاهرها، ولم ينبج من ذلك حتى رجال الطرقية الذين ظلوا حاولوا إبقاء حال الشعب على ما هي عليه، يصف الزاهري الحرز فيقول: «فوجدته حرزا عصريا بآتم معنى الكلمة كما كتبه شيخ الحلول وهو "طرقي عصري" بآتم معنى الكلمة أيضا، فقد كان مكتوبا بالمداد لا الودح، وكان مكتوبا بالقلم الريشة (الشوكة) لالاليراع "القصة" كما هي العادة

(1)-أحمد طالب، الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة، ص33-34.

(2)-عبد الله الركبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص119.

(3)-المرجع نفسه، ص63.

في كتابة الخروز ولم يكن خاليا من الإعجام "النقط" بل كان فوق ذلك مزينا بكل علامات الترقيم التي أدخلت على الخط العربي في هذا العصر الحديث، فكانت الفواصل والقواطع وعلامات التعجب والاستفهام... وكانت الآيات القرآنية مكتوبة بين مزدوجين اثنتين كدليل على الاقتباس وكان الورق جيدا صقيلا... إلا أن هذا الحرز قد كتبه شيخ الحلول لنفسه...»⁽¹⁾.

أما الزاهري فيصور في قصته "إني أرى في المنام" شيخ زاوية محتال يظهر غير الذي يطن ويستعمل أساليب المكر والخداع في جلب الأتباع والمريدين، فقد بلغ الأمر بمريدي هذا الشيخ الطرقي -وربما بإيعاز منه- أن وقفوا على بائع للفواكه يوما وقالوا له: «إن شيخنا يقرؤك السلام ويقول لك يا بني: إني أرى في المنام كأنك تنخبط في ضحضاح من النار، وأنت تستغيث فلا تغاث، حتى استغثت بي، وذكرتي باسمي، فأخذت بيدك وأنقذتك من الهلاك...»⁽²⁾، وينجح الشيخ وأتباعه في الإيقاع بالفاكهة الساذج ليصبح من أتباعه الجدد وأنصاره الأسخياء.

ومثل هذا الشيخ المحتال، المنافق، المظهري التدين، كقصّة "الشيخ زروق" لأحمد رضا حوحو، فهو يلبس العمامة ويعلق المسيحة ويخدع كل الناس حتى زوجته التي أشفقت عليه من عمله المتواصل من أجل الناس: «ما هذا ألا تستطيع حتى أن تتناول طعام إفطارك في راحة... دائما أعمال الناس؟ لا أدري أية فائدة تجنيها من وراء هذه المتاعب كلها التي صدتك عن العناية بأهلك وأولادك...»⁽³⁾.

(1)-المرجع السابق، ص69.

(2)-عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الوطنية، الجزائر، 1983، ص165.

(3)-عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، 105.

ويرد بكل ثقة وخشوع: «أي شيء أستفيد من الناس؟...! أنا أخدم الناس لوجه الله، أخدم الحق الضائع وأحاول جهدي إرجاعه إلى نصابه»⁽¹⁾.

ولا تزيد الخدمة عن مساومات واحتيالات وشهادات زور، ليصوره بعد تلك المعاملات وما قبضه في صورة كاريكاتورية ساحرة للمتاجرة بالدين والتدجيل على الناس باسم الدين: «وبقي الشيخ مسرورا يذكر الله ويوحده، ثم قام بعد نقوده مرة ثانية وما كاد ينتهي حتى دوى في المسجد آذان الظهر: فأسرع الشيخ في إخفاء تلك الرزمة من الأوراق في جيب محكم وقام يستعد لصلاة الظهر وهو يتذكر ما بقي من المعاملات ويقدر في نفس الوقت ما ستدر عليه من الأرباح»⁽²⁾.

ولأن مفاهيم دينية كثيرة تأثرت بفعل بعض المشعوذين والطرفين، فقد عكفت الحركة الإصلاحية على بيان الوجوه الصحيحة للناس وحمل الأدياء معهم لواء ذلك، وساهموا بكتاباتهم التي لا تكاد تخرج عن أفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

فهذا الزاهري يحاول توضيح المفهوم الصحيح للحج في قصته "في مجلس حجاج"⁽³⁾ حيث أدار نقاشا بين جمع من الناس... ليصل بهم أحد الحاضرين إلى السؤال عن الحج الصغير وما يقولون فيه: «فسأل سائل: وما هو الحج الصغير؟ قال: هو أن تحج إلى قبر من قبور الأولياء الصالحين مثل قبر أبي مدين أُلغوث في تلمسان»، وينتهي الأمر إلى المصلح الذي يفند كل الآراء ويعطي المفهوم الصحيح الوحيد للحج، وهو حج بيت الله الحرام، ويصحح مفهوم اجتماعيا آخر ساد في الناس وهو أن الحج لا يجب أن يكون لقباً للتفاخر والزهو أمام الناس. بل إن من الأدياء من راح يرقب سلوكات هذا العائد من مكة المؤدي لفريضة الحج، ويرصدها

(1)-المرجع نفسه، ص105.

(2)-المرجع نفسه، ص105.

(3)-المرجع السابق، ص65.

في قوالب قصصية نقدية، فهذا كاتب أشار لنفسه بـ "عابر سبيل" يصور في قصته "من صور البؤس" حاجا تملكه الجشع فراح يتاجر في السوق السوداء ويثرى على حساب الفقراء، يخزن الحبوب والمؤن فإذا اشتدت الأزمة أخرجها وباعها بأضعاف مضاعفة⁽¹⁾.

ومثل هذا الحاج الإمام الذي يعينه المستعمر الفرنسي فيبيع ضميره للاستعمار لأنه صاحب الفضل عليه في هذا المنصب الذي لا كفاءة له ولا علم أو تقوى إلا التزلف للمستعمر⁽²⁾.

والملاحظ على هذه الموضوعات جميعا هو تدخل القضايا الأخلاقية التربوية بالموضوعات الدينية تداخلا عجيبا، وذلك أمر ليس بالغريب عن مجتمع يستمد أخلاقه وقيمه ومثله من تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة.

2- الموضوعات السياسية التحريرية:

لم يتبلور الوعي السياسي في الجزائر إلا في مرحلة متأخرة إذا ما قورن بالوعي الثقافي والفكري والاجتماعي، وربما كانت الحرب العالمية وما انجر عنها من أحداث أكبر سبب في تحليه واضحا قويا، ولعل أحداث 8 ماي 45 كانت إحدى نتائج الحرب العالمية وإحدى أبرز صور النضج السياسي في الجزائر.

فإذا كان الأدباء في مرحلة سابقة لا يستطيعون التصريح بتوجهاتهم السياسية وانتقاداتهم للمستعمر وإشادتهم بالوطنيين والثائرين على المستعمر، ويركبون شطط الرمز الذي يغيب المعاني في كثير من الأحيان، فإننا نلاحظ في كتابات هذه المرحلة وعي الكتاب بدور الكلمة في تحرير الشعوب، وشعورهم بواجب نوعية هذه الشعوب، ودفعها إلى تغيير واقعها بكل الطرق الممكنة، فقد اجتازت جمعية العلماء

(1)- المرجع نفسه، ص 111.

(2)- المرجع نفسه، ص 112 (قصة "مع إمام" لأحمد بن عاشور).

مرحلة الإصلاح لتخوض الصراع السياسي، ولم تتصل عن دورها في هذه المرحلة الحرجة بانتقالها من حركة الإصلاح الديني المحض إلى خوض معركة السياسية. كما فتحت الثورة التحريرية مجالاً أوسع لكتابة القصة القصيرة وغيرت نظرهم إلى محيطهم، فبعد أن كانت نظرهم للواقع لا تكاد تتجاوز تسجيله وبإشارات ورموز وتعميمات في كثير من الأحيان، أصبحت تصوّر ذلك الواقع تصويراً دقيقاً وتدفع بالقارئ الجزائري إلى محاولة تغييره ومحاربة أسباب تردّيه. كما كشفت لهم ظروف النضال عن تجارب جديدة لم يعرفها المجتمع الجزائري، وشجعتهم على طرق موضوعات جديدة، كالاغتراب والهجرة وما يتبعها من أساليب النضال الوطني والتمسك بقيم الوطن ومثله، مثل الصور البطولية النادرة التي جسدها جيش التحرير الوطني. ومثل نقد الإدارة الاستعمارية ومن سار في خطها إذ فقدوا ثقتهم بالوعود التي أطلقتها فاتخذوا موقفاً أكثر جرأة وحماسة، حتى أن حوحو اعتبر في إحدى حوارياته مع حمارة أن الدين وإن كان الإسلام ديناً أحدهما كما تراه فرنسا وأذنابها، والآخر كما يفهمه الشعب ويعيشه⁽¹⁾.

أ- الموضوعات السياسية:

ولن نخالف الصواب إذا اعتبرنا الزاهري رائداً للقصة* من جهة، وفتاحاً لهذا الجانب السياسي الوطني، من خلال إشارته لقضية الإدماج، حيث تم فيها تصوير الصراع القائم بين الإسلام والمسيحية، والربط في القضية بين البعدين الديني والوطني السياسي، من أجل تجسيد خطر الغاية الاستعمارية الفرنسية، مثلما تعرض علينا قصة "سوزان عائشة كانت" زاوية من الواقع المؤلم الذي تعيشه فتاة من الفتيات

(1) - عابدة أديب يامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، ص 310.

* - أول محاولة قصصية عرفها النشر الجزائري الحديث هي قصة "فرانسوا والرشد" محمد السعيد الزاهري، نشرت في جريدة "الجزائر" (10 أوت 1925م) (عبد المالك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر (31-1954)، ص 163-164.

المسلمات. انتشلتها يد المبشرين من أنياب الفقر لتدججها في الدين المسيحي⁽¹⁾. وظهرت قصص أخرى تنحو نحو تلك المحاولة في تجسيد خطر المدرسة الفرنسية في تسريح أبناء الجزائر وفرنستهم، وبالتالي ذوبانهم في المجتمع الفرنسي، مثل قصص أحمد بن عاشور، كقصة "خطر الاندماج في البلاد"، وقصة "الفتية الثلاث" و"منصور الاندماج"⁽²⁾، ولا تختلف هذه القصص عن قصة زهور ونيسى "من الملوك"، حيث تعصى شابة أمها، وكما يعلنو تأنيب الأم لابنتها تتدخل الراوية للاستفسار عن سبب عقوق الفتاة، موجهة هذا السؤال إلى الأم الذي تفتتح به القصة «ذكرت يا أمي أنك ربيتها في أي مدرسة أدخلتها يا ترى؟ فأجابات والدمع يتناثر من عينيها، مسيد الرومية يا بنتي (أي إلى المدرسة الفرنسية)»⁽³⁾، كما عبرت القصة القصيرة في هذه المرحلة عن رفضها لسياسة الإدارة الاستعمارية، إذ شملت قصة الزاهري "فرانسوا والرشيد" وإن لم تصرّح بثورته أو رفضه، الفوارق العجيبة التي أحدثتها هذه السياسة رغم تكافئهما سنا وعلمًا، وعطاء للبلد وربما فاق الرشيد قرينه خدمة للوطن، فقد نشأ الفتيان نشأة واحدة ودخلا مدرسة وثانوية واحدة، ثم تخرجا من الكلية العسكرية برتبة واحدة. وكان مما تلقاه الرشيد على أحد أساتذته الفرنسيين «أنه متى اتحد العاملان على صلاح الدولة في عملهما وربتهما، إلّا وجزاؤهما متحد...»⁽⁴⁾، إلّا أن الرشيد فوجئ وهما يدخلا الخدمة العسكرية بالتمييز بينه وبين فرانسوا حتى في المأكل، فاق راتبه ومنحة أهله راتب الرشيد وما أجرى على أهله بكثير، وظل يرقى يوما بعد يوم، بينما ظل الرشيد جنديا بسيطا حقيرا رغم ما قدمه من تضحيات في المعارك التي خاضها ورغم

(1)-انظر. أحمد طالب، الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة: ص40.

(2)-انظر. المرجع نفسه، ص41.

(3)-انظر. زهور ونيسى، مجلة البصائر، الجزائر، 13 مايو 1955، ص3.

(4)-عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ص163.

شجاعته النادرة، ليخرج فرانسوا برتبة ضابط كبير بعد 18 شهرا، ويظل الرشيد وأصحابه في الخدمة العسكرية الشاقة ظلما وعدوانا، ويصعب الأمر على الفتي الجزائري المثقف الواعي، فيدب الوهن في جسده ويعتريه الهزال، ويهم بإعلان ثورة يعبر بها عن سخطه، ثم يتراجع حتى لا يقال له: «إنما أنت مشوش وعدو الحكومة! فلم يجد بدا من كظم ما يجده فلم يزل يضنيه الكظم ويعنيه»⁽¹⁾ إلى أن وجد جثة هامدة لا حراك لها.

وهكذا سقط الفتي شهيد حب الحرية أو المساواة على أبسط تقدير، حيث رأى بأم عينه أن الذي تقوله فرنسا ومعلموها وساستها غير الذي يفعلونه بالشعب، وأن لا وجود لتلك المبادئ على أرض الواقع. وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على درجة من الوعي السياسي والوطني التي بلغها الكتاب في تلك الفترة الزمنية المبكرة، كما يدل نشرها منسوبة إلى صاحبها مباشرة دون رمز أو كنايات على مدى الشجاعة الشبيهة بالمغامرة في تلك الفترة المبكرة، ويكفي أن نشرها جرّ مخنة على الكاتب أودت بحياة جريدته، ولما يمضي على حياقتها شهر من الزمن⁽²⁾. وإن لم يتوقف الزاهري عن هذا المسار الذي ارتسمه لنفسه، إذ واصل نشر محاولاته في بعض المجلات القاهرية كالرسالة (للزيات) والفتح (لحب الدين الخطيب)، وإن صحح بعض الكتاب كما رأينا من قبل -الكثير من المفاهيم الاجتماعية أو الدينية كمفهوم الحج مثلا، فإن كتاب مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية أصبحوا يعطون الأولوية والأفضلية للنشاط الوطني على هذه الشعيرة من شعائر الإسلام، وهي الفكرة التي عالجها "ابن عاشور" في قصته "حجاج في مقهى"⁽³⁾، ما دام الوطن في

(1)- المرجع نفسه، ص164.

(2)- المرجع نفسه، ص164.

(3)- عابدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، ص314.

حاجة إلى أبناء ينافحون عنه لا إلى حجاج يعودون إليه دون وعي، ولا همّ لهم إلا التباهي بلقب "الحاج".

ويشير في قصة أخرى "الرجلان والدبّ الأبيض"، إلى أن الشعب يعيش في سبات عميق وأنه آن أوان إيقاظه أو بعث الروح فيه من جديد - كما قال -: «إن الشعب في حاجة إلى من ينفخ فيه روح المقاومة، لا إلى من يثير غضبه في غير مفيد!»⁽¹⁾، ويتحدث الكاتب نفسه في قصة "القطار" عن الشعور القوي للاستعمار والذي يشمل كل أرجاء البلاد، جاء ذلك في حوار بين زوجين، فرنسيين كشفت فيه الزوجة عن خوفها وهلعها، من ذلك الرفض الشديد والمناهضة القوية للمستعمر، بقولها: «لاحظت في هذه البلاد تيارا سياسيا رهيبا يناهض الاستعمار، ولا شك أنه سوف ينسفه ويمحو معالمه»⁽²⁾.

ومما يجب ملاحظته أن صور الوعي السياسي والوطني تنوعت بتنوع الأدباء وطبائعهم وثقافتهم، فإذا تجلّى جدّ ابن عاشور في طرق الموضوع فإن رضا حوحو بطبعه المرح تناول قضايا سياسية كثيرة من منظره الفكاهي الساخر الخاص رغم جدّها، نذكر من ذلك قضية انتخابات المجالس واللائحة الذي تمارسه السلطات الفرنسية، إذ لا يمثل أولئك المنتخبون من طرف الشعب إلّا ثلثي (نواب القسم الثاني)، بينما يشكل نواب القسم الأول الثلثان، فهم أصحاب القرار وما أولئك إلّا تبع... كل ذلك جسده رضا حوحو في حوار ساخر بينه وبين حمارة الذي رأى أن تفتح مقاعد للحمير لأنهم الوحيدون الكفيلون بتعديل الكفة بين القسمين، لأن لهم أربعة أرجل، ولكل نائب من القسم الأول رجلان، فيعلق حوحو أن الحاجة للرؤوس لا للأرجل، وإن كان المستعمر يرفض الرؤوس بل يعدها:

(1)- المرجع نفسه، ص 314.

(2)- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

«قال: الرؤوس لا تبحث عنها في كراسي النيابة، لأنها لو وجدت لاحتقرت فدعنا نكون لكم أغلبية من الأرجل خير من لا شيء».

قلت: لعلك على حق... ولكن من يقنع بنظرية حمار في الانتخاب⁽¹⁾، وهو يسخر من هذه اللعبة السياسية التي حاول المستعمر إلهاء الناس بها وشغلهم عن صميم قضاياهم الوطنية، إذ لا شيء جديد تأتي به الانتخابات يقول في جرأة أكثر في "حمار الحكيم": «كل هذا ولم أبدأ رأيي صريحا في مسألة السياسة الحزبية في بلادنا ولو أردت ذلك لقلت باختصار: إن السياسة في بلادنا سياسة انتخابات تنشط وتعمل قبيل فتح الصندوق بأيام حتى إذا ما ظهرت النتيجة وفاز من فاز، وخاب من خاب، عاد كل شيء إلى مجراه الأول، عاد النشاط إلى مكانه وعاد الحماس إلى محبته وعاد البؤس الذي يضرب الأمة إلى عادته...»⁽²⁾.

وفي قصته "ثري الحرب" يصور حوحو أميا بسيطا أثري من مضاربات السوق السوداء وأصبح له جاه وانغالت عليه الأوسمة والوظائف التي كانت تشتري آنذاك بالمال، ومنها شراؤه منصب نائب في المجلس الجزائري، ويتحلق حوله الانتهازيون الجشعون الذين أغروه بطلاق زوجه لأنها لا تليق بمقامه الجديد ليتخذ زوجة أخرى تحوم حولها الشبهات، وينفق أمواله يمينا وشمالا تظاهرا بالكرم، حتى إذا ضاعت ثرواته تخلّى عنه الجميع ولم يبق له إلا الأوسمة المدلاة على صدره دليلا على ماضيه⁽³⁾.

كما هاجم ابن عاشور أعضاء المجلس النيابي في إحدى قصصه ورأى أن مناقشتهم مجرد ثرثرة لا طائل من ورائها⁽⁴⁾.

(1)- المرجع السابق، ص 315. (ساعة مع حمار الحكيم، البصائر، 24 جانفي 1949، ص 6)

(2)- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3)- عبد الله الركبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص 161-162.

(4)- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، ص 315.

ومن صور المرأة في الطرح أيضا، ما نلاحظه في قصة "الشهيدة"، لمحمد على الميزابي" بدء بالعنوان الذي يتطرق لفكرة جديدة هي "الشهادة" التي لم يتعود الأدباء عليها في هذه المرحلة السابقة للثورة، رغم ما عرفته البلاد من تساقط الشهداء في أحداث 8 ماي 1945، حيث يصور الكاتب أرملة تكذ من أجل العيش، وتتردد على المسجد لتستمع إلى مواعظ الإمام المصلح، ولكنها تتأثر بأفكاره الإصلاحية فتشرع في بثها بين بنات جنسها إلى أن تربص بها أعداء الإصلاح وقتلوا شر قتلة (قطعوها قطعاً قطعاً حتى الرأس)⁽¹⁾.

ومن جوانب الوعي السياسي أيضا تجسيد صور الاستغلال والظلم الاجتماعي الطبقية، بحثنا عن العدالة الإنسانية في ظل الحرية المنشودة، فكان الإحساس بالظلم هو النعمة المسموعة في أغلب القصص، فهي الخميرة التي أنضجت الثورة بتصوير الإقطاع وحياة الفقر... وكذلك إثارة قضية الأرض والارتباط بها ماديا وروحيا، فالأرض قطعة من كيان الإنسان ووجدانه لا يمكن التخلي عنها أو إهمالها، وكلما حدث الانفصال بين الإنسان والأرض تفاقم الشعور بالتمزق والضيايق والقلق، ونجد هذا المعنى مجسدا بوضوح في "نواراة الصغيرة"⁽²⁾، حيث يتمنى العم "رايح ثاقور" بطل القصة أن تعود إليه أرض أجداده لتدر عليه بخيراتهما من قمح وشعير بعد هذا الحرمان الطويل، والفقر المدقع.

وفي خضم صور الاستغلال الاستعماري يتضح التشوق إلى الحرية والتلميح إلى السعي الحثيث لتغيير الواقع، وهو الغالب على القصص التي ارتدى فيها الرمز رداء التاريخ الزاخر بالمقاومات من أجل الحرية والكرامة، مثلما جاء في قصة العابد الجليلي "الصائد في الفخ"⁽³⁾، التي تتضمن حوارا طويلا يدور بين شاب صياد وفتاة

(1)-المرجع نفسه، ص104.

(2)-انظر: عبد الله الركبي، نفوس نائرة، الدار المصرية، القاهرة، 1962، ص25.

(3)-انظر. أحمد طالب الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ص46.

حول خاله المتמרّد على السّلطة الاستعمارية الذي احتّمى بجبل الأوراس الشامخ، الذي اكتسب رمز المقاومة.

ب- الموضوعات الثورية:

كانت هذه بعض القضايا السياسية التي تناولها الأدباء في المرحلة السابقة للثورة، وهي جميعا تعبر عن نضج فكري ووعي سياسي كبيرين، وجرأة وشجاعة في الطرح، حيث غابت الأسماء المستعارة واختفى التلميح ليسود التصريح بأن آلة المستعمر ظلمة ولا بد لها من تقليم أو اقتلاع جذري إن أمكن.

حتى إذا جاءت الثورة التحريرية الكبرى فجرت في الأدباء الحماس ليكتبوا عن نضال الشعب الجزائري وعن الحرب التي خاضها من أجل حريته واستقلاله، وربما ظهرت جل المجموعات القصصية أثناءها. وقد ظهر تأثير الثورة في مضمون القصة القصيرة، إذ بدأت تتخلّص من الحديث عن التقاليد الاجتماعية وتتخلص أيضا من الصبغة الإصلاحية التي اصطفت بها طويلا، وأخذت تتحدث عن الواقع الجزائري الذي غيرته الثورة تغييرا جذريا، فأصبحت العلاقات فيه قائمة على العمل والنضال يحدوهما الأمل في يوم يزول فيه المستعمر تماما. وإذا كان للفرد صراعات عديدة من أجل لقمة العيش واستمرار الحياة في المراحل السابقة للثورة، فإن صراعا واحدا شغله أثناء ثورة التحرير هو حرب المستعمر بكل الوسائل وشتى السبل.

وقد غطت القصة القصيرة حرب التحرير في معظم جوانبها، وإن كانت أقرب إلى الأدب الوثائقي التسجيلي، لأن الهدف الأول من وراء كتابتها ليس طلب إمتاع القارئ والترويح عنه، وإنما إشراكه وربما حثه على المشاركة في الثورة بما يستطيع، وإقناعه بمدى صدق الثورة وقوّتها ومضيها، وكذب ادعاءات فرنسا وزيفها... وقد فاحر جلّ الكتاب بواقعية ما كتبوه وصدقهم، وأنه لا يمت إلى الخيال بصلة، وإنما هو قطع نابض كما تقول زهور ونيسي عن أشخاصها: «وصورة حياة تبرز بعض جوانب ملحمة الثورة الجزائرية وتجسمها بكل ما فيها من أبعاد وإعجاز

ولأن الثورة كانت أطول وانتصاراتها وبطولاتها كانت أعلق بأذهان المواطنين فإن الكتابات القصصية تنوعت وتعددت قضاياها، بل وتعددت المجموعات القصصية الثورية - إن صح هذا التعبير - نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مجموعة "نفوس تائر" لعبد الله ركيبي، "الأشعة السبعة" لعبد الحميد بن هندرق، و"تحت الجسر المعلق"⁽²⁾ لعثمان سعدي، وكلها طبعت في الفترة الممتدة بين 54 و62. ومما لا شك فيه أن الشعب ساند ثورة التحرير الكبرى والتف حولها بقوة، وبذل في سبيل انتصارها كل غال ونفيس، وهي الفكرة التي نظر إليها كل أديب من منظاره الخاص واختار الجانب المناسب منه، فهذا عبد الله الركيبي يعالج فكرة التجمع التدريجي للشعب والثقافة حول المجاهدين في قصته "راعي الغنم" و"أختار الطريق" ويعالج عثمان سعدي إيواء الشعب للمجاهدين الذين ستمهم فرنسا عصاة تائرين⁽³⁾.

ومن الموضوعات الثورية البارزة موضوع أولئك الذين كانوا إلى جانب فرنسا وانتقلهم إلى مناصرة القضية الوطنية أو انسحاب بعض القادة في الجيش الفرنسي، وانضمامهم إلى صفوف جيش التحرير الوطني من ذلك مثلاً "المتنحزة الشهيدة" لعثمان سعدي حيث صور التحاق أحد ابني يمينته بالجيش الفرنسي قبل الثورة والتحاق الآخر بالمجاهدين، وكيف كان الفضل لوالدته في إقناعه بالانضمام إلى جيش التحرير الوطني وذلك يصدها عنه⁽⁴⁾، وفيها قضايا كثيرة فرعية منها

(1)- عائدة أديب، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 - 1967)، ص 329.

(2)- طبعت الأولى بالقاهرة عام 1962، والثانية بتونس عام 1962، أما الثالثة فطُبعت قشرت قصصها في مجلة الآداب بين 1957-1960.

(3)- انظر. عثمان سعدي، تحت الجسر المعلق، ص 48.

(4)- المصدر نفسه، ص 65-87.

تصويره للجو العام للعلاقات القائمة بين المجاهدين ومحارقاتهم، فيما بينهم ومع المجتمع ومستوياتهم الثقافية ...

كما تناول الكاتب نفسه خروج البطل صالح من الجيش الفرنسي الذي تطوع بالخروج معه إلى الهند الصينية، فلما عاد إلى الجزائر قالوا لهم: «إنكم ذاهبون إلى محاربة الفلاقة»⁽¹⁾، والتحق بالمجاهدين محملاً بالسلاح (8 بنادق وكمية هائلة من الذخيرة).

ومثلها قصة عبد الله الركبي "وجد نفسه" التي تلعب فيها السياسة الاستعمارية الظالمة دورها في اتخاذ هذا القرار الحاسم. فقد لاقى البطل علي من الإذلال والإهانة على يد مستخدمه الكثير لينفجر صموهه وينفذ صيره ويلتحق بالمجاهدين، وبعد مضي فترة من الزمن عليه في صفوف القتال يلتقي بمستخدمه الفرنسي السابق وابنته أسيرين لدى جيش التحرير فيشفق عليهما ويطلق سراحهما⁽²⁾. وهي صورة عظيمة من صور أخلاق فرسان جيش التحرير وتسامحهم، والتي تتجلى بشكل أقوى في قصة عثمان سعدي "إجازة بين الثوار" قضتها البطلة الفرنسية "جانيت" ويكفي للدلالة على نبل أخلاقهم أن عدتها إجازة بما في الإجازة من متعة وراحة، وربما فسح وتأملات، وكتبت إلى صديقتها مسمية الحادثة بـ "المغامرة السعيدة": «أروع حدث في حياتي ساقى أذكره وأرويه إلى أبنائي وأحفادي ...، لأنه فتح عيني على عالم كان مغلقاً في وجهي ووجه كل فرنسي وفرنسية»⁽³⁾، لتسرد عليها حرص جيش التحرير على سلامتها وسمو معاملتهم وهو سلاح آخر يحاربون به فرنسا، إنه سلاح القيم والأخلاق، تقول على لسان الجندي المكلف بمرافقتها «إن سمعة جيش التحرير تتوقف الآن على سلامتك ... لا بد أن

(1)- المرجع نفسه، ص 83.

(2)- عائدة بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 331.

(3)- عثمان سعدي، تحت الحجر المغلق، ص 120.

تصلي إلى أهلك سالمة... إننا نحارب مدموازيل لا بالأسلحة فحسب، لأن عدونا يملك أسلحة أشد منها فتكا، لكن نحارب بأخلاقنا وقيمنا... ولهذا ينبغي أن تعودى سالمة إلى أهلك»⁽¹⁾، لتنتهي في الأخير إلى الاقتناع بخط الثورة وربما العمل فيه، فعندما طلب منها الملازم خدمة قالت له: «أطلب وأنا أنفذ يا سيدي القائد، ألم أعد جندياً من جنود جيش التحرير؟»⁽²⁾.

ولعل أبرز ما يميز قصص الثورة هو تمجيد المجاهدين وعرض بطولاتهم في كثير من المبالغات والمثالية التي تشبه في بعض الأحيان الخوارق، ففي "تحميا الجزائر" يفترض الكاتب لبطله بعضاً من صور تلك الخوارق: «... أهمل عليه الرصاص من كل جهة فسقط ممزقا، ولكنه لم يمض لحينه، فكان إرادته القوية وعزمته الفولاذية وشجاعته الممتازة أرجأت موته...»⁽³⁾. وهو أمر طبيعي يتجاوب مع عظمة الثورة وصدق أبطالها وإخلاصهم، ومع تفاني الشعب في خدمتها ومدى الملح الذي أحدثته في نفوس الأعداء. وإن اعتدال البعض في وصفه لهم فرأهم بشرا ضحوا في سبيل الوطن بكل ما يستطيعون دون أن يخرجوا عن طبيعة الإنسان من خوف وارتباب وتشكك وضجر أحيانا بل وحب أيضا⁽⁴⁾.

وهناك قصص ثورية تناول فيها كتابها إشارات إلى بعض القضايا السياسية المتعلقة بالثورة، فعلى الرغم من تحريم القوانين الدولية "سلاح الغاز" فإن فرنسا رمت به المجاهدين، ضاربة بالقوانين الأممية عرض الحائط، لذلك يسخر عثمان سعدي في قصته "خصلة شيب قبل الأوان" من هيئة الأمم المتحدة ويتعجب من ثقة

(1)-المصدر نفسه، ص127.

(2)-المصدر نفسه، ص136.

(3)-عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص332.

(4)-انظر على سبيل المثال "صرخة في الليل" و"الإنسان والجبل" لعبد الله الركبي، و"اجندي والفيل"، لعبد الحميد بن هدوقة، (عائدة أديب بامية، المرجع السابق، ص332-333).

العرب في عدالتها وقد «سلمت أرضنا الطاهرة هناك... هناك... في فلسطين... مسكين سي رشيد، ذاك المتعلم الواثق من عدالتها...»⁽¹⁾.

ولأن حياة المدنيين تتأثر بحرب التحرير، إذ وقعوا ضحية لاضطهاد المستعمر، فإن كتاب القصة القصيرة لم يهملوا هذا الجانب، فصوروا أوضاع المجتمع آنذاك ومعاناتهم من الغارات الجوية واعتداءات الدبابات والأعمال الوحشية الممجية من تقتيل واعتقال وهدم للبيوت أو حرقها وحرق المحاصيل... منها قصة "الوادي الكبير" للركيبي، أرغم فيه المستعمر الناس على السير مسافة طويلة ليصلوا إلى الوادي، وكانت ضمنهم امرأة حامل تلد في الطريق⁽²⁾.

ومن صور التحام الشعب بالثورة مساهمة الأطفال والنساء فيها كل بما يستطيع، يقول عثمان سعدي على لسان طفل لا يتجاوز الثانية عشر من العمر - وهو أكبر المجموعة - عندما جاءوا إلى مكان المعركة للبحث عن جثث الشهداء: «هاهو الشهيد، تقدموا في خشوع احتراماً لروح هذا البطل»⁽³⁾، وهم مجرد رعاة كونوا من أنفسهم فرقة لإسعاف الجرحى والتقاط أخبار العدو ستوها "فرقة السرجان عيسى" الذي يردّ على الجريح عندما قال له كيف تستطيعون حملي يا صديقي الصغير... إنكم صغار: «لا يا أخي إننا رجال، لقد خلقت مئاً ثورتنا العظيمة رجالاً قبل الأوان»، ليلق البطل صالح الأرزق: «يا لجنون فرنسا إنما تريد أن تمزق شعباً فيه أطفال كهؤلاء»⁽⁴⁾.

أما مساهمة المرأة في الثورة التحريرية، فإن قصصاً كثيرة تناولتها في صور شتى، فهي أم البطل في بعضها أو الأبطال والشهيد أو الشهداء وهي أخت هؤلاء

(1) - عثمان سعدي، تحت الجسر المعلق، ص 65-87.

(2) - عابدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 330.

(3) - عثمان سعدي، تحت الجسر المعلق، ص 88.

(4) - المصدر نفسه، ص 92.

جميعاً⁽¹⁾، وهي الشهيدة التي تسقط في سوح القتال وهي الممرضة المرافقة لجنود جيش التحرير وهي المسبلة في خدمة الثورة بإعدادها طعامهم ولياسهم...⁽²⁾

وهناك قضية أخرى لصيقة بالمرأة والمجتمع الجزائري عالجها كتاب هذه المرحلة هي قضية "الشرف"، والتي ارتبطت من جهة أخرى بالمستعمر فكان وقعها أشد من أي غصب آخر عرفه الشعب (غصب الأرض والمال والخيرات)، وإن تخرج كتاب المراحل السابقة من طرق هذا الموضوع أو الإشارة إليه، فإن كتاب هذه المرحلة اعتبروا الفتاة التي تعرضت له مجاهدة في سبيل الله والوطن ففي "المتحررة الشهيدة" لعثمان سعدي تتعرض أخت المجاهدين إلى اعتداء العدو انتقاماً لأخويها فيعطىها مثل الجبهة بالقرية شهادة تثبت ذلك، ويخطب أمام القرية كلها «إن الفتاة التي فقدت عذريتها خلال الثورة ومن طرف جنود الأعداء تعتبر بمثابة المجاهدة في سبيل الله والوطن، وجبهة التحرير تحميها وتبني قضيتها»⁽³⁾، ولأنها ترفض أن يتخبط في أحشائها «عدو وابن عدو»، قررت الخلاص منه بطريقتها الخاصة: «سوف أمزقه، وأمزق أحشائي معه...»⁽⁴⁾، وينتهي مسؤول الجبهة باعتبارها غير متحررة وتسجيلها في سجل الشهداء.

ولم يكن الجهاد حكماً على البشر وحدهم فإن الطبيعة الجزائرية ذاتها كانت مقاتلة بتضاريسها المتلوية وجبالها الشاهقة الوعرة، ووهادها وغاباتها الكثيفة، إنما الطبيعة المقاتلة، الحامية للثورة، فعندما تنهر الفتاة الفرنسية "جانيت" بروعة المشاهد الطبيعية في الجزائر يرد عليها مرافقها: «أنا أرى -يا أنسة- في هذه الجبال الدرع

(1)-المصدر نفسه، (الحاجة غزالة)، ص48-64. (المتحررة الشهيدة)، ص65-78، "الشبح والشرف"، ص93-106.

(2)-عايدة أديب بامية، تطور الأدب والفصصي الجزائري، ص330.

(3)-المصدر نفسه، ص77.

(4)-المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الخامس للثورة... انظري إلى صحورها الجبارة وودياتها العميقة... انظري إلى تلك الأخاديد الصخرية الجبارة، إنها متارسنا ودروعنا... وهذا النبع إنني أرى فيه مركز إسعاف لنا في ساعات الشدة... كم من مرة وقفت متأملا أمام شرح صخري عظيم، أو تحت ساق شجرة عملاقة، شاكرا فضل جبالنا علينا، خاشعا نخشوع الشيخ أمام محرابه»⁽¹⁾.

3-الموضوعات الاجتماعية

كان للمفارقات العجيبة التي صنعتها يد المستعمر آثارها الجلية في الحياة الاجتماعية، من فقر مدقع يزرع تحت أنوائه أبناء الوطن وغنى فاحش وترف صارخ يعيث فيه المستعمر الدخيل، والتخلخل خلقي وفساد وتخلف وجهل وغيرها من المظاهر الأخرى. وظهرت حركات إصلاحية حاولت الوقوف أمام مذ الضياع الذي أرادته المستعمر لهذا الشعب، فقد ظهرت محاولات أدبية شتى حاولت معالجة بعض صور الانحراف عن مقومات الشعب وقيمه وتراثه، في وقت كان الشعب الجزائري يعيش صراعا حادا بين الانغماس في بريق المدينة الغربية والتمسك بثوابت المجتمع وقيمه الدينية وعاداته وتقاليده، ولعلّ الذي يجب ملاحظته أن كل المحاولات القصصية التي عاجلت المشاكل الاجتماعية كانت إيجابية الطرح، فهي لا تخرج عن طبيعة الشعب الجزائري العربي المسلم التواق إلى الحرية والعدالة والرقى والانتماء الحضاري إلى الأمة العربية الإسلامية، ومن القضايا الاجتماعية قضية العادات والتقاليد التي درج عليها الشعب وغدت إحدى مميزاته التي يختلف بها عن غيره، وقد حرص عامة الشعب على الحفاظ على العادات والتقاليد وتشبثوا بها لأنها نابعة من أصالتهم وقيمهم، وربما كان اللباس أكثر مظهر من مظاهر تميز الشخصية الوطنية وتفردها ومخالفتها للعدو وإن عاجلها الأدباء في إطار أقرب إلى البعد الديني التربوي

(1)-المصدر السابق، ص129-130.

منه إلى الاجتماعي⁽¹⁾ كما وجدنا جلّ الأدباء يعالجون تمرد الجيل الجديد خاصة على هذه الدعامة من دعائم الانتماء إلى الوطن، نذكر على سبيل المثال قصة "تضحية" لأحمد بن عاشور، حيث ينسلخ الشاب يوسف من كل قيمة (من لغة والبأس) مقابل لذة عابرة، يقع الفتى يوسف وهو ابن تاجر في المدينة في حبّ ابنة ضابط متقاعد، فيهمم بها دون أن تعيره أدنى اهتمام لأنه كان يبرز لها بزيه التقليدي حتى إذا قرر التخلص من العمامة والبرنس وتحول إلى شاب عصري يرتدي ملابس رياضية أنيقة، ويذهب إلى حيث تتزحلق فئاته على الثلوج... فتندهش إذ تراه يتكلم العربية، ويقدم لها نفسه فتندهش مرة أخرى لأنها إنما عرفتة مرنسا معمما فيقول لها: «ضحيت بكل ذلك من أجلك»⁽²⁾، فتبادلته الحب وبهيمان في الشوارع ودور السينما...

كما عرضت قصص أخرى موضوع الزواج بالأجنبيات وانحلال بعض الشباب وتمردهم على التقاليد النابعة من روح الشريعة الإسلامية في مسائل الخطوبة والزواج، وكانت المحاولات القصصية دعوة للمحافظة على القيم والتقاليد العربية الإسلامية الأصلية، والتثبت بذلك هو المخرج الوحيد للحفاظ على الشخصية الجزائرية، والسلاح الوحيد الذي يملكه الشعب الجزائري ليضع حدا للغزو الاستعماري بأخلاقه وثقافته، ومن بينها قصة أحمد بن عاشور "زوج متملن" و"زوجة أوربية"، اللتين تكادان أن تكونا قصة واحدة في رسم زاوية تفكك روابط الأسرة الجزائرية، إذ يتخلى الأب عن زوجته ليبي مع إحدى الفرنسيات بيتا جديدا، لكن جانب الأخلاق يقف حائلا بين الزوجين، حيث كانت تقيم معه في قصر فخيم بضاحية البلدة، وما مر على ذلك زمن طويل حتى صار محمود من حين لآخر يرى في حجرات القصر أثار الزائرين، غير أنه كان لا يجرؤ أن يستفسر عن ذلك، لأنه

(1) -انظر. عبد الله الركبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص58.

(2) -عبد الملك مرتاض، فنون الشر الأدبي في الجزائر، ص179.

كان يكره أن يتهم بالغبرة، وهي من الأخلاق التي اشتهر بها العرب، حيث يهرع الكاتب في نهاية القصة إلى تجسيد العبرة الأخلاقية⁽¹⁾.

ويصور الكاتب نفسه مرة ثانية في قصة "زواج عصري" ظاهرة التمرد على القيم والتقاليد، ويجسد الصراع الجديد الذي قام بين الجيل القديم المتشبث بأصالته المعتر بانتمائه، وذاك الجيل الجديد الذي لم يستطع الثبات أمام مغريات وبريق المدينة فانجرف في تيارها، فلم يعد أولئك المسلخون عن قيم المجتمع يرون طاعة للوالدين... ويستخدم الصراع بين الجيلين إلى حد إقدام الأب على ضرب ابنته ضربا مبرحا، والتفكير في قتلها وعشيقها وأخيها الذي كان سندا لها ومشجعا لأنه كان معجبا بالحضارة الغربية، لتنتهي القصة بانطلاق الأخ بأخته إلى المدينة وتقديمهما شكوى بأيهما، وينتهي الصراع الحاد بين الجيلين بفشل الجيل الأول وانتصار الثاني⁽²⁾، وإن كان انتصارا زائفا لأن الذي وهبه شهادة الانتصار هو المستعمر الفرنسي المخالف في عاداته وتقاليد المجتمع الجزائري، فأين له الحكم بين المتخاصمين من أبنائه.

ومن الموضوعات الاجتماعية الأخرى نقد المظاهر الاجتماعية الفاسدة بكشفها وتحليلها والتركيز على إبراز أثرها الخطير في تقويض الشخصية الوطنية السليمة، ويعد رضا حوحو من أبرز الأدباء الذين اهتموا بالقضايا الاجتماعية، وأولوها أهمية كبرى، وأهم أعماله الأدبية "صاحبة الوحي"⁽³⁾، وهي مجموعة قصصية قريبة من كتابة المذكرات والسيرة، مما جعلها وثيقة أدبية هامة تؤرخ لفترة اجتماعية معينة، وهي ذات موضوعات مستوحاة من واقع الحياة الجزائرية ووحى

(1)- أحمد طالب، الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ص 43.

(2)- عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 179.

(3)- طبعت المجموعة سنة 1954 بالطبعة الجزائرية بقسنطينة، وتحتوي على ثمان قصص ومسرحية قصيرة، بعنوان "أدباء المظهر".

علاقته مع الناس لنقد بعض العادات والتقاليد السلبية والأخلاقيات الفاسدة، كموضوع العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة وتحكم التقاليد المتشددة فيها التي يحرص الكاتب على تقديمها وفق المقصد الخلفي، إذ تعرض إلى إرغام الفتاة على الزواج دون مراعاة اختيارها ومشاعرها وإرادتها، ومنع زواج أي محبين لأسباب كثيرة طبقية وغيرها، وبذلك تسيطر هذه التقاليد التي يتمسك بها الأهل والأقارب إذ يشترك جميع الأبطال في انهماكهم أمام حكم التقاليد، وفي استسلامهم وعدم مواجهة قهرها...⁽¹⁾. واتسعت رؤية رضا حوحو الاجتماعية وتطورت أدواته الفنية في المجموعة القصصية الثانية "نماذج بشرية"⁽²⁾، حيث يلج على مبدأ الصدق الذي يأخذ وجهة نظره من الواقع الحي الذي يعيشه دون زيف أو تنميق، إذ يقول في مقدمة نماذج قصصه «ثم أني لم أعمد في عرض هذه النماذج إلى الخيال، فاستخدمه في التلميح والتزييف، أو إلى التحليل النفسي، فأسخره لإثبات فكرة وإدخال أخرى، أحل إني لم ألتجأ إلى ذلك، وإنما التجأت إلى المجتمع من مختلف طبقاته بنماذج عشت مع بعضها وسمعت عن بعضها نماذج حية أقدمها للقارئ، لعله يتوصل بها إلى تفهم بعض طباع مجتمعه»⁽³⁾، وأكدت قصصه هذا المفهوم الوارد في نص مقدمته من خلال نفاذه إلى أعماق الواقع، وكشف حباياه وتقديمه في صورته الصحيحة دون الانخداع بالمظاهر الخارجية السطحية، ومن خلال تصويره لسلوك الشخصيات العديدة التي قدمها، كمعالجته لمظاهر النفاق الديني⁽⁴⁾، والفسق والرذيلة، كما في قصة "عائشة"⁽⁵⁾ التي سبقت إلى الرذيلة، واضطرت إلى العيش في

(1)-انظر: أحمد منور. قراءات في القصة الجزائرية، مكتبة الشعب، 1981، ص 28-35.

(2)-طبع ضمن سلسلة كتاب البعث، تونس، 1955.

(3)-المقدمة، ص 6-7.

(4)-أشرنا إليها في الموضوعات الدينية الإصلاحية.

(5)-نماذج بشرية، ص 21-22.

حماها مرغمة، تتعلق بمبادئ سامية، وتكافح بإرادة صلبة وإيمان قوي من أجل تحرير بلادها، وتحرير نفسها من الوضعية المزرية التي كانت عليها، وقد استطاعت في نهاية الأمر أن تحقق رغبتها في العيش بكرامة وشرف، وقصة "السكر"⁽¹⁾ تكشف عن ظاهرة شرب الخمر وما يترتب عنها من نتائج خطيرة تقدم صرح المجتمع وتبتعد به عن مقوماته، والتي تفتشت بين أبناء المجتمع الجزائري جراء احتكاكه بالمستعمر ومحاكاته له، فيصور رضا حوجو الصراع الداخلي الحاد الذي يعانيه ذلك السكر من أجل الإقلاع عن الخمر، وتحقيق توازنه الحياتي في مجتمعه المحافظ. والظاهرة نفسها عالجتها زهور ونيسي في قصة "جناية أب"⁽²⁾، هذا الأب السكر الذي تخلى عن مسؤوليته تجاه أبنائه وزوجته، وتركهم لمخالب الفقر تنهشهم، مما تضطر الزوجة لإعالة أبنائها بالخدمة في بيوت الأثرياء.

وأكد رضا حوجو على الأخلاق الفاضلة كالفضيلة والعفة، وحب الخير والتعاون والإيثار... وما إليها من القيم الخلقية اللازمة لبناء مجتمع جزائري له أصالته وقيمته، وخصوصيته وتميزه كما في بعض قصص مجموعة صاحبة الوحي⁽³⁾. وقد أبدى كتاب القصة اهتماما بقضايا المرأة الجزائرية، وما كانت تعانيه من تعسف وجور وظلم وعبودية وجهل... وكلها عوائق تمنعها من أداء دورها الإنساني والاجتماعي، وهو ما اعتبر عند رضا حوجو في تقديمه لقصته "غادة أم القرى"، حيث يقول: «إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب... من نعمة العلم... من نعمة الحرية، إلى تلك المخلوقات البائسة المهملّة في هذا الوجود، إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى»⁽⁴⁾.

(1)-المصدر نفسه، ص32.

(2)-البصائر، ع309، 11 مارس 1955، ص3.

(3)-انظر: أحمد منور، قراءات في القصة الجزائرية، ص38.

(4)-غادة أم القرى، المقدمة، قسنطينة، 1947.

لقد شكلت أمية المرأة الجزائرية حلقة مفرغة، تهدد تقدم الجزائر ومستقبلها، وشخصيتها واستقرارها بعد عزوف بعض المتعلمين الجزائريين عنها، واختيار الزواج من امرأة أجنبية، حيث يرفض حوحو الرجعات المختلطة، كحل غير متكافئ لمشكلة الأمية ويقترح معالجة جوهر المشكلة بتعليم المرأة الجزائرية⁽¹⁾، فكانت الدعوة إلى التعليم محورا أساسيا في قصص رضا حوحو مينا أن التعليم العربي الإسلامي هو الأفضل وناصرت هذا الاتجاه زهور ونيسي كما هو الشأن في قصتها "من المهمين"⁽²⁾، إذ تأتي فتاة صغيرة أن تساعد جدتها، فتلقي القاصة اللوم على ثقافتها الفرنسية، وتؤكد أن الفتاة لم تكن لتتصرف بهذا النحو غير اللائق لو أنها كانت متقنة ثقافة عربية إسلامية تمنحها الشعور بالآخر، كما اتضحت بجلاء في كثير من القصص قضية الحجاب والسفور.

ففي الحجاب مثلا مجموعة من القصص التي تناولت الظاهرة وإن كان الطرح في قالب وعظي خطابي، مثل قصة "زليخة والعفة تذرمان من الحمامات البحرية الماحنة" وهي لكاتب مجهول ربما استحيا التصريح باسمه تخرجنا من هذا الموضوع الجديد الذي لم يطرح من قبل يمثل هذه المرأة سمي نفسه "المحبوب" ولعل عنوانها يوحي بالمدلول المراد من ورائها، ففيها يعترض سبيل البطل فتاة حسناء عارية ترغمه بالحاج على محادثتها ومحاورتها في موضوع الحب، ليعرج إلى الحديث عن حضور صلاة الجمعة، ويدخل بعدها في حوار داخلي يدور في قلبه فيشكله في نقاط ثلاث؛ سوداء أمارة بالشر وبيضاء أمارة بالخير، ونقطة حمراء بينهما وهي الإرادة، وتكتب له زليخة رسالة بعدما أعياء البحث عنها تخبره فيها بمداية الله لها وأخذه بيدها منذ لقينته فتقول: «رجعت إلى الحجاب الذي انتصرت به جدي، وفتحت به مئات المدارس،

(1)-عبد المالك مرتاض، خضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص161-164.

(2)-البصائر، 13 ماي 1951.

وتركت السفور الذي اتخذت به خليلتي...»⁽¹⁾، وهو الموضوع الذي عالجته الكاتب نفسه باسم المستعار "المحبوب" في قصته "العظمة في أكواخ النساء العاريات" ولكنه في عودته رأى فتاة تخرج من كوخ حاسرة الوجه فعلقها وجاهد من أجل رؤيتها مرة أخرى دون جدوى لأنها كانت عفيفة لا تخرج إلا متحجبة⁽²⁾.

ومن بين الموضوعات الاجتماعية الأخرى، والتي بإمكاننا أن نستنج منها أبعاد الشخصية الجزائرية، هو موضوع "المجرة خارج الوطن" حيث ركز كتاب القصة اهتمامهم بما راصدين حياة المهاجرين في فرنسا، وعرضت أغلب القصص أسباب الهجرة، والجو المادي والنفسي للحالية الجزائرية المهاجرة، وصور الاغتراب الذاتي والعزلة المفروضة والروابط الوجدانية المتعلقة بالدين واللغة والوطن والأهل⁽³⁾. مثل محمد صالح الصديق الذي شخّص حياة المهاجر ومعاناته النفسية إذ يقول: « ولما بلغت الحال مداها في التأزم، ولم يعد الابن يستطيع أن يتحرك بقضاء مآربه اللازمة، وليس لأمه من عمد إليها المعونة كسواه. ارتحل إلى باريس اختفاء عن أعين الطغاة الوحشيين واكتسابا للمعيشة التي انسدت عليه في وطنه»⁽⁴⁾، لكن لم ينج الفرد الجزائري من وسائل القهر والاستغلال وراء البحر، إذ صور في قصة أخرى الاستغلال الذي يعاني منه الإنسان المهاجر، فبرى بطل القصة عندما يضيق بحياة العبودية يدفعه هذا إلى التفكير في العودة إلى أرض الوطن للانخراط في صفوف جيش التحرير⁽⁵⁾.

(1)-عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص185.

(2)-المرجع نفسه، ص186.

(3)-انظر: أحمد طالب، الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ص69-71.

(4)-صور من البطولة، الدار القومية لطباعة والنشر، تونس، ط1، 1958، ص43.

(5)-المصدر نفسه، ص87.

4-الموضوعات الثقافية:

لا شك أن العامل الثقافي له دوره الخطير في حياة الفرد والمجتمع الجزائري، وقد يترتب عن تدهوره نتائج غير محمودة، من بينها التدهور الفكري بانتشار الجهل والأمية، وما يترك ذلك من أثر سلبي على نهوض المجتمع لعدم كسب ثقته وتميزه وعدم شعوره بقيمة مثله ومقوماته... ولقد تناولت أغلب القصص هذه الظاهرة التي نستشفها من خلال سلوك ومواقف الشخصيات، وجسدت أبعادها الفكرية من خلال التأكيد على ضرورة العلم والثقافة بالنسبة للرجل والمرأة، لأن الإنسان المتعلم كما ترى زهور ونيسي في قصة "الرصيف النائم"⁽¹⁾، لا يعيش العبودية والوضاعة، ولا يفقد توازن قيمه الإنسانية. واتسع نطاق الاهتمام بالثقافة في المجتمع الجزائري وإلحاح الكتاب عليها، باعتبارها أساس النهضة والتقدم... كالوعي بأهمية الفن والأدب وضرورتها لتوجيه الشعب وتوعيته بواقعه، وخدمة الثقافة العربية، ولعل ما كتبه رضا حوحو في "حمار الحكيم"⁽²⁾، المستوحاة من "حماري قال لي" يدخل في إطار ما سماه عبد الله ركيبي بالمقال القصصي⁽³⁾. والتي ناقش فيها على لسان حماره -الذي كان حمارا فيلسوفا -مختلف القضايا والمشاكل الجزائرية البحتة، منها الموضوعات الثقافية، وأعطى صورة للواقع الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، حيث دار الحوار القصصي حول السياسة والدين والتعليم والثقافة «قال الحمار الفيلسوف:

-لا لا إنك تبالغ، وما عليك إلا أن تشرح لي أية مشكلة من مشاكلكم وسأفيدك برأيي السديد فيها.

(1)-زهور ونيسي، الرصيف النائم، دار الكاشف، القاهرة، 1967، ص83.

(2)-انظر: القصة الجزائرية القصيرة، ص75-80.

(3)-المرجع نفسه، ص161-164.

-قلت إن مشاكلنا كثيرة، وحياتنا معقدة، ولكن لا بأس، أي موضوع تريد أن نبحث؟⁽¹⁾».

وأهم الموضوعات الثقافية المرتبطة بمقومات الشخصية هي الثقافة العربية الإسلامية المرتبطة بالأساس الأول وهي اللغة العربية، إنها من خصوصية وانتماء وفرض هوية عربية أمام غزو ثقافي أجنبي استعماري غرضه محو تلك الهوية بعدة وسائل وقنوات، ومنها نشر اللغة الفرنسية، ودعت كثير من القصص للحفاظ على اللغة العربية، حيث لا تضيع شخصية الجزائريين وعروبتهم وهو ما تلح عليه قصة "بين فتاتين"⁽²⁾، التي هي حوار يدور بين فتاة متفرنسة وأخرى محافظة، وكان الحوار يدور حول اللغة العربية واللغة الفرنسية، للتأكيد على أن العربية هي التي ينبغي أن تكون لغة التخاطب، ولغة التعليم لأنها هي اللغة القومية، وهو الموضوع نفسه الذي تعالجه قصة "من المعلوم"⁽³⁾ وهي تدور حول فتاة تتعلم اللغة الفرنسية تنسى لغتها القومية، وبذلك تتعالى وترفع عن الناس، وتحتقر لغتها دون إدراك ووعي بقيمة انتمائها العربي الإسلامي.

كما ركز كتاب القصة اهتمامهم باللغة العربية عند معالجتهم لموضوع الهجرة خارج الوطن، فاثمن شيء يحتفظ به الإنسان خارج وطنه هو اللغة، لأنها الصلة الوثيقة بينه وبين أرضه وقومه، وهي الرابطة الوجدانية لماضيهِ وحاضره، فكلما أحس بالابتعاد عنها شعر بالحنين إليها أكثر، ولذلك نجد المغتربين في حل القصص يلجأون إلى التجمهر داخل إطار وحدة قومية حتى لا تضمحل شخصيتهم وتذوب في بيئتهم الجديدة. وحتى يقهروا مشاعر العزلة والاغتراب⁽⁴⁾.

(1)-عبد المثلث مرتاض، قصة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 161-164.

(2)-عبد الحميد الشافعي، البصائر، 23 مارس، 1956.

(3)-زهور ونيسي، البصائر، 13 مايو، 1955م.

(4)-انظر: أحمد طالب. الالتزام في لقصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ص 70-71.

إن دراسة القصة القصيرة الجزائرية قبل الاستقلال، وما عكسته من موضوعات ارتبطت بمقومات الشخصية الوطنية، رغم تداخل المواضيع في القصة الواحدة. إذ لا يمكن فصل الحياة الاجتماعية عن السياسية أو الدينية أو الثقافية، وإنما حاولنا تقسيمها إلى تلك الموضوعات تسهيلا للدراسة، مستنديين في ذلك على الجانب الأقوى في كل قصة.

1- ففي الموضوعات الدينية الإصلاحية، ارتبطت الموضوعات بالترعة الدينية، والغاية في كل ذلك رسم معالم الشخصية العربية الإسلامية، التي تنتمي إليها الجزائر، حيث كان الدين هو الجناح العريض الذي ضم تحته موضوعات التنصير والصراع القائم بين الإسلام والمسيحية، والإصلاح الديني بمعالجة الفساد الذي حل بالعقيدة الإسلامية نفسها، بعد انتشار الشعوذة والدجل والطرقية، ونقد الواقع الديني بالتركيز على المصدر الدائم المشترك وهو الدين.

2- أما الموضوعات السياسية الوطنية، تجلت فيها مقومات الشخصية الوطنية بشكل أوسع من أجل خوض النضال السياسي والثوري، وبرزت تلك المقومات بقوة كالارتباط بالدين والوطن واللغة والتاريخ، والاعتزاز بالعروبة والإسلام من خلال قضية الإدماج التي تم فيها كشف الغاية الاستعمارية بتوضيح البعدين الديني والوطني السياسي فيها، وكذلك قضية الحرية المنشودة التي تم الوصول إلى تحقيقها بالوعي الديني الذي يرفض الظلم ويحث على العدالة الإنسانية، والوعي التاريخي الزاخر بالمقاومات والبطولات من أجل العزة والكرامة، والوعي الثوري الذي أدى إلى انبثاق فجر النصر والاستقلال من خلال صور التضحية الاستشهاد والإيمان القوي من أجل المحافظة على تلك المقومات.

3- وفي الموضوعات الاجتماعية والثقافية، اتضحت أبعاد الشخصية الجزائرية المرتبطة بمقومات الدين واللغة والوطن، من خلال الدعوة إلى المحافظة على القيم والتقاليد العربية الإسلامية الأصيلة، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة لبناء مجتمع سليم

له خصوصيته وتميزه، وتبين كل ذلك من خلال معالجة وضعية المرأة، والزواج بالأجنبيات، والجهل، والأمية، والهجرة، والانحراف الاجتماعي، والاستلاب اللغوي والثقافي، والقيام بكشفها وتحليلها بالتركيز على أثرها الخطير في تقويض الشخصية الجزائرية، وكانت غاية كتاب القصة هي إظهار قيم المجتمع الجزائري وأصالته.

ثانيا: القصة والأداة الفنية:

إن تقييم القصة القصيرة يخضع لتقييم وضع الأدب العربي ككل في الجزائر، بخاصة مرحلة ما قبل الاستقلال. فكل ما يمكن ملاحظته قلة الأعمال القصصية بالمقارنة مع كثرة الإنتاج الشعري نظرا للثقافة السائدة آنذاك، وكذلك عدم تبلور مبادئ فن القصة في الواقع الأدبي، وعدم توفر ظروف الطبع والنشر المساعدة في بلد مستعمر، ولكنها رغم ذلك تمثل نشأة وبداية تطور القصة في الجزائر.

وإن انصبت جهود بعض الدارسين على دراسة مضامين القصة القصيرة، فإنهم لم يهتموا دراسة الجانب الفني فيها، وإن اجمعوا على قصور هذا الجانب وعدم اكتمال متطلبات القواعد العامة للقصة القصيرة من حيث عرض الموضوع والأسلوب، والإطار الفني العام وعزوا ذلك إلى جهل كتابها لمفهوم كتابة القصة القصيرة وللخلفية الثقافية لمعظمهم، وهذه الخلفية تبدو مسؤولة عن إخفاقهم أمام صعوبة تناولها وكتابتها، وإن بدت للوهلة الأولى إنها من أسهل الأشكال الأدبية⁽¹⁾، وهذا ما جعلهم -كعبد الله الركيبي- يصنفون القصة تصنيفا فنيا. إلى ما يسمى بالمقال القصصي والصورة القصصية، ويعتبرون أن المقال القصصي هو البذرة الأولى لبداية القصة والصورة القصصية هي البداية الحقيقية للقصة الجزائرية القصيرة، وقد نشأت في الوقت نفسه مع المقال القصصي وسارت معه واستمرت حتى الاستقلال، بينما توقف المقال عند قيام الثورة⁽²⁾، كما قسمت "عايدة أديب بامية" القصة

(1)-انظر: عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص361.

(2)-انظر: القصة الجزائرية القصيرة، ص55-87.

القصة إلى مرحلتين، راعت فيها البعد الفني أيضا، المرحلة الأولى، هي بداية تبلور مفهوم القصة، وتجلى ذلك عند الجيلالي ورضا حوحو...، والمرحلة الثانية هي مرحلة نضج مفهوم القصة، وتجلى ذلك عند الطاهر وطار وابن هديوقة⁽¹⁾، والملاحظ في ذلك أن هذا الفن القصصي عرف ميلادا ثم نموا ثم ابتعاثا، حيث وصل إلى ما يمكن اعتباره إبداعا، إذ لم تعدم القصة القصيرة مساحات فنية مختلفة، نستطيع أن نستشفها من خلال تتبعنا للملامح الفنية القصصية التالية، وتطرفنا لمحاسنها وعيوبها.

1- رسم الشخصيات:

تختلف صورة الشخصيات القصصية باختلاف الكتاب، فبينما جنتح "محمد العابد الجيلالي" إلى المثالية برسمه لشخصيات خيرية لا تعرف الشر مطلقا، وكأها نماذج خام تتحرك خارج إطار الحياة المعروف بصراعاته، وبخبره وشره، بأمله ويأسه، بشقائه وسعادته...

إن الأبطال الذين اصطنعهم في "السعادة البتراء" و"الصائد في الفخ" مثلا، أبطال أختيار أبرار بسطاء رحماء لا التواء في سلوكهم ولا حقد في أعماقهم...، فالشيخ القاضي في "السعادة البتراء" يحب جاره حبا يفوق حب الأخ أخاه... وهو يعني بالفن محمد ويساعده على متابعة الدراسة، والفتاة سعاد تبدو في غاية الأدب وحسن الخلق، ويظهر الفن محمد وكأنه الإنسان الكامل المجرد من كل عاطفة أو هوى⁽²⁾. وعليه فإن العابد الجيلالي عجز عن تحليل خبايا النفوس ودوافعها وغرائزها الجائعة وعواطفها الطافحة ومشاعرها المتأججة، فجاءت تصرفات شخصياته آلية لا تخضع لمنطق أو واقع، إنها شخصيات ثابتة في مواقفها لا تنمو ولا تتغير ولا تتطور من البدء إلى الانتهاء، وهو السبب الذي أفقد محاولاته عنصر المفاجأة وجعلها تنتهي

(1)-انظر: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص353-363.

(2)-عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1983،

جميعا بنهايات سعيدة كأنها موزونة من السماء دون عناء أو تعب في سبيل بسوغيها، أو البحث عنها والصراع من أجلها، وكأن الحياة من السهولة واليسر بمكان⁽¹⁾.

وأبرز ما يميز شخصيات العابد الخيالي أنها جاءت بسيطة سطحية يتجاوزها القارئ بمجرد الانتهاء منها، لأنها لم تترك فيه أثرا ولم تحرك فيه عاطفة أو ميلا أو حتى فكرا... وشبيه به "ابن عاشور" الذي كان يصطنع شخصيات بسيطة، ولكنها لا تغلو من الحركة والانفعال رغم جنوح الكاتب إلى تسخير كل ما من شأنه أن يوصل الأبطال إلى الغايات المنشودة بعيدا عن النهايات الحزينة، من ذلك شخصية يوسف في أقصوصة "تضحية"، وما بذله من تضحيات بقيمة ومثله في سبيل وصوله إلى هدفه وهو رضى الفتاة التي أحبها، فشخصياته وإن كانت بسيطة تتوفر على عنصر النمو والتغير بخلاف شخصيات الخيالي، من ذلك تغيير يوسف في هيئته وملبسه، بل منهجه ونظراته إلى الحياة، وحياته كلها، وتغير موقف الفتاة استجابة لتغيراته...⁽²⁾.

ويركز ابن عاشور على وصف أحوال الجسم بطوله أو قصره، بياضه أو سمرته، ووصف الملابس... ليعطي صورة متكاملة عن الشخصية في الداخل والخارج بحيث تعلق صورهما في ذهن القارئ فيحبها أو يتعاطف معها أو يغضب حتى من بعض تصرفاتهما.

أما "رضا حوحو" يعطي الأهمية الأولى لشخصيات القصة الذين كما يؤكد يجب أن يكونوا أحرار، وأن يتكلموا بلغة تعكس كلا من مشاعرهم الداخلية ومركزهم الاجتماعي كما يرى بأن على الكاتب أن يتستر وراء شخصياته حتى ينتج في عمله الأدبي⁽³⁾. وقصصه أثبتت قدرته على الغوص في أعماق الإنسان

(1)- المرجع نفسه، ص 435.

(2)- المرجع نفسه، ص 435.

(3)- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي، ص 357.

وتفهم نفسيته، وبرهنت على مدى قدراته وإمكانياته في ذلك. ففي قصة "الشيخ زروق" على سبيل المثال، أجاد فيها تصوير شخصية الشيخ بعمق من خلال التعارض بين أقواله وأفعاله، وأن أفعاله هي أبعد ما تكون عن أفعال الرجل المؤمن الورع، كما يحاول أن يتظاهر هو بذلك. وعلى الرغم من ذلك فإن "حوحو" لم يدهش قراءه فجأة بحقيقة زروق لكنه بالأحرى أثار بعض الشكوك حول مقصده في السطور الأولى من القصة، حيث يكتب قائلا:

«...تدور حول سيرته شبهات لم يصدقها إلا نفر قليل، حيث يتهمونه بالقيام بأعمال مالية غير مشروعة»⁽¹⁾، ثم يضيف «ولكن أغلبية مواطنيه تعتقد أنها مجرد إشاعات كاذبة يروجها حساد الشيخ وناكرو فضل»⁽²⁾، ويكشف الكاتب تدريجيا عن رياء الشيخ من خلال أنشطته التي تشمل كافة الأعمال غير المشروعة، وكانت غاية الكاتب من خلال تصويره لسلوك الشخصيات العديدة التي قدمها في المجموعة القصصية "نماذج بشرية"، هو النفاذ إلى أعماق الواقع لا تصوير شكله الظاهري السطحي، وتقديره في صورته الصحيحة دون الانخداع بالمظاهر الخارجية. كما اعتنى الكاتب بتصوير الشخصيات تصويرا واقعا دقيقا نابضا بالحياة، بل تجلت فيها روح السخرية والتصوير الكاريكاتوري المضحك، حيث برزت هاتان الميزتان في الحوار وفي الوصف الخارجي للشخصيات وفي المواقف المخرجة التي يضع فيها الكاتب شخصياته⁽³⁾.

واكتسبت شخصيات حوحو مظاهر مختلفة ومتنوعة بتنوع كتاباته القصصية، واتبع في رسم شخصياته الطريقة التحليلية يمزج فيها بين الصورة الرومنطيقية حيناً، والواقعية حيناً آخر، فيصطنع الشخصيات الثابتة التي لا تتغير في عواطفها ونوازعها

(1)- نماذج بشرية، ص 10.

(2)- المصدر نفسه، ص 10.

(3)- أحمد منور، قراءات في القصة الجزائرية، ص 41.

وميوها، ومبادئها، ويقف من شخصياته وأبطاله في القصة الذين يقومون بدور شرير موقفاً قاسياً عنيفاً، حيث يلقون مصرعهم في كثير من النهايات، أو موقفاً غير قاس لكنه ساخر وتحكمي، ومقصده من وراء ذلك هو إبراز أثر المجتمع الفاسد وعاداته وتقاليدته البالية، وما تولده للناس من بؤس وشقاء، كما في مجموعته القصصية "صاحبة الوحي وقصص أخرى" وقصته الطويلة "غادة أم القرى"⁽¹⁾.

أما "عثمان سعدي" فإن مجموعته القصصية "تحت الجسر المعلق" تختلف عن سائر النصوص القصصية التي أشرنا إليها في الدراسة المضمونة سابقاً، بكونها ذات مضامين وطنية خالصة، إذ جعل من النضال في سبيل تحرير الوطن الموضوع الرئيس فيها، وإن استمد منها قضايا اجتماعية وثقافية كثيرة أشرنا إليها في المبحث السابق. وسنكتفي هنا بالوقوف عند قصته "إجازة بين الثوار"⁽²⁾، لنتتبع أحوال شخصية "جانيت" الفتاة الفرنسية التي سمعت الكثير من جيش التحرير الوطني من أبيها وسائر المعمرين، حتى إذا عاشت تلك المغامرة المثيرة والسعيدة في آن كما قالت في رسالة لإحدى صديقاتها عرفت الوجه الآخر لأولئك المجاهدين، واكتشفت الحقيقة التي حاول المستعمر إخفاءها من حسن معاملة وأدب وخلق رفيع، فإذا ألفه حميمة تنشأ بينها وبين الجندي الذي أوكل إليه أمر حراستها، والتنقل بها عبر كثير من القرى والمدائر، وإذا مودة عميقة تنشأ بينها وبين كل الجزائريات اللاتي تعرفت عليهن خلال رحلتها مع فرقة جيش التحرير، إلى درجة إهدائها عقدها الذهبي إلى ابنة فلاح قضت في بيتهم ليلة من ليالي مغامراتها الشيقة.

وخلال رحلة العودة كانت تتعجب من الأخلاق السامية لكل الذين اجتمعت بهم من أبناء الشعب الجزائري البسيط جنوداً وفلاحين ومثقفين، فكأنها

(1)-انظر: عبد الملك مرناض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص432-434.

(2)-عثماني سعدي: تحت الجسر المعلق، ص119-137.

وسط ملانكة أطهار، أو كأنها قديسة مما جعلها تتساءل في نفسها عن مواطن الفتنة والجادية فيها، وتشك في أمر أنوثتها وسحرها.

وقد ركز الكاتب على شخصية "جانيت" دون سواها، وسخر سائر الشخصيات في سبيل غمائها وتطور مواقفها، إن لم نقل تغيرها تغييرا جذريا، فقد كان أولئك الأفراد الذين صادفتهم نماذج عن كل شرائح المجتمع الجزائري الكريم الطيب الشهم السمح، وكانوا رموزا لقيم المجتمع الجزائري الحضارية والوطنية والخلفية، لأنهم يمثلون الشعب الجزائري كله، تلك الرموز والقيم التي استطاعت أن تتحول بالفتاة الفرنسية عن التردد والشك والارتباب في حقيقة الثورة، وأولئك الذين أسمتهم فرنسا بـ "الفلاقة"، إلى اليقين من نبيل غايتهم وأحقيتهم بالدفاع عنها، ومن سمو أخلاقهم التي انتزعوا بها أهليتهم للحياة والحرية والمجد والسيادة⁽¹⁾. ولكنها رغم تميزها عن سائر الشخصيات التي مرت بنا تفتقر إلى نوع من الصراع الداخلي الذي كان بإمكان الكاتب تفجيره بدءا من الحوار الذي دار بينها وبين المعسر (المضطرب المرتبك) الذي التقى بها في مقعد الحافلة، فلما غمنت لو تركوا نافذة مفتوحة أمام ذلك الحر، انتابه هلع وقال لها: «ألا تعلمين أن هذه الجبال والوديان أوكار لهؤلاء الفلاقة»... ولتنصت إلى ذلك الحوار قبل أن يوقف الثوار الحافلة لنظّل من خلاله على بعض النقاط التي كان يجب استثمارها وتفعيل الصراع الداخلي للرواية:

• ألسنت خائفة مدوموازيل؟

أنا... أبدا ومن أي شيء أخاف؟

من الفلاقة طبعاً...

(1)- عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،

1990)، ص 58-63.

إذا حدث وسقطت بين أيديهم سأصبح أشهر فتاة فرنسية، ستكتب عني الصحف وأصير على كل لسان...

إنهم وحوش... إذا سقطت بين أيديهم سيقتلونك
لا أتصور ذلك... على كل حال فلا بد أن يكون لهم حد أدنى من الاحترام للنساء... -أبدا.. أنت غلطانة... إنهم ليسوا متمدينين»⁽¹⁾.

وإن أشار في بعض سردياته إلى ذلك في مثل قوله دائما على لسان الراوية جانيت:

«تملكني في هذه اللحظة شعور غريب، مزيج من الخوف وحب استطلاع عالم مجهول، عالم لم أعرفه إلا من خلال كتب التاريخ والصحف، عالم الثوار والمتمردين. ويبدو أن حب الاستطلاع كان مصدره الصورة التي تقدمها لنا صحفنا عن هؤلاء الفلاقة... أما حب الاستطلاع فأظن أنه كان نابعا من مرحلة المراهقة، التي اجتازها بعنف في رحلة عمري...»⁽²⁾.

فإنها إشارات ضئيلة تجعل الراوية لا تساهم في صناعة الحدث أو دفعه إلى الأمام، وتنتهي بها إلى مجرد شخصية مسطحة وبالحدث إلى مجرد حدث أفقي رتيب لا يعرف تصاعدا أو تنازلا، وإنما يمضي بوثيرة واحدة إلى المنتهى، وكأننا بالقصة تنتهي عند نهاية الصراع والتوتر بإيقاف الحافلة.

ويبدو أن بعض كتاب القصة القصيرة وقعوا في الغالب ضحية الانفعال السريع الذي يتعد عن تصوير التطور الداخلي للشخصيات والبحث عن مبررات مقنعة لسلوكاتها، مثلما حدث مع بطل قصة "نضال" لأبي العيد دودو، الذي أقدم على قتل أبيه الذي كان عميلا للاستعمار⁽³⁾، إذا لم يعمد الكاتب إلى متابعة

(1)-عثمان سعدي: تحت الجسر المعلق، ص 123.

(2)-المرجع السابق، ص 124.

(3)-أحمد طالب: الالتزام، في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ص 87.

سلوكات الشاب وتطوراتها، وحيرتها مثلاً واضطرابها أمام قرار خطير كهذا، وما ينجر عنه من ارتباك وخوف وتأييب ضمير على مجرد التفكير في الأمر... لتأتي الشخصية باهتة سطحية، وتأتي سلوكاتها مصطنعة وبعيدة عن الإقناع، بخلاف بطلنة قصة "مليكة" لفاضل المسعودي، حيث نرى صراع الأخت المكافحة في سبيل الوطن واضطرابها وأرقها عندما كلفت بقتل أخيها، ونلمح ترددها وحيرتها بين رابطة الدم وصلة الرحم، ورابطة الوطن وواجب النضال في سبيله من خلال ذلك الحوار الداخلي، الغائر في أعماق حيرتها، ليأتي فعل قتل هذه الأخت المناضلة أحابها الخائن مستساغاً فنيا «همست بصوت جريح تخاطب نفسها: مليكة، لماذا تتحررين إلى هذا الحد يا مليكة؟ إنه فعلاً أخوك ابن أمك وأبيك، ولكنه خائن خائن ياللعار»⁽¹⁾، ويأتي تكامل الشخصية بالتدرج من خلال حركتها وسلوكاتها وتقلبها النفسية وردد أفعالها.

وقد تناول عثمان سعدي الظاهرة نفسها "ظاهرة الخيانة" في قصة "المتحررة الشهيدة"⁽²⁾، حيث كلف الأخ المجاهد نفسه بتنفيذ المهمة، وليخفف الكاتب من حدة الموقف جعل الأخ المجند في جيش العدو كما قال الكاتب على لسان الأم ينضم إلى صفوف المجاهدين. فالتغيرات الثورية وحساسية الموقف وصرامته، فرضت دحر الخيانة والذي ينفذ ذلك غالباً ما يكون أقرب المقربين إلى الخائن، لأسباب تتعلق بأبعاد النضال.

وتتفق معظم القصص التي تناولت قضية الخيانة في رسم الملامح العامة لشخص الخائن، الذي يظهر محيطاً نفسه بمواجز نفسية كثيرة تفصله عن الشعب، عدم الثقة في أقرب المحيطين به، شديد الحذر والخوف، يتخبط في دوامة من القلق والضيق والتمزق النفسي، فغالباً ما يظهر فظاً غليظ القلب -ربما- أكثر من

(1)- المرجع نفسه، ص 87.

(2)- انظر: عثمان سعدي، تحت الجسر المعلق، ص 93.

المستعمر نفسه، كما يتجلى ذلك في شخص "السي عمار"، في قصة "تحت الجسر المعلق" لعثمان سعدي⁽¹⁾.

2-رسم البيئة أو الحيز أو الفضاء:

إن البيئة أو الحيز أو الفضاء من العناصر الأساسية التي لا بد من إلقاء نظرة على مدى حضورها ووضوحها عند كتاب القصة الجزائرية آنذاك، وإن كان "أحمد رضا حوجو" أبرزهم وأكثرهم تحكما في الأداة الفنية، فإننا نلاحظ غياب البيئة الجزائرية في معظم قصصه، فقد استهوته بيئة الحجاز، وألهمت مخيلته فراح يبدع في تصويرها، معطيا مساحة ضئيلة للبيئة الجزائرية.

بينما تجلت بوضوح عند سائر الكتاب بدرجات متفاوتة، بدءا بـابن العابد الجليلي وابن عاشور، وزهر ونيسي إلى عثمان سعدي وأبو القاسم سعد الله ورضا حوجو، وعبد الله الركيبي وغيرهم.

فعلى الرغم من ضعف الحكمة وبساطة الأسلوب وصورة الشخصيات الواهية الضعيفة في محاولات ابن العابد الجليلي، فإن البيئة الطبيعية المحلية كانت قوية الوجود، بارزة الملامح، لأن الكاتب كان يستقي حوادثه من مدن الشرق الجزائري وقراه حيث كان يقيم، من ذلك مثلاً قصة "الصيد في الفخ"، التي وصف فيها بعض نواحي الأوراس في فصل الربيع وصفا موجزا، ولكننا نعتبره من بواكير المحاولات التي تناولت وصف الطبيعة المحلية⁽²⁾.

وهو الأمر الذي يتطور قليلا عند أحمد بن عاشور في قصة "تضحية" التي نجد فيها وصفا دقيقا للبيئة الطبيعية بالبلدة، بالرغم من عدم تصريحه باسم المكان، لأنه كان يذكر البلدة إلى جانب اسمه في نهاية القصة، فالتزحلق على الثلوج بالجزائر يكون في نواحي "الشرية"، وهي منطقة لا تبعد كثيرا عن البلدة، يقول في حوار

(1)-المرجع السابق، ص5-47.

(2)-عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص443.

بين يوسف وأحد أصدقائه: «...ألا ترى الثلج يتناثر الآن على المنحدرات والشعاب كقطع صغيرة من الجبن...».

-«ولم الذهاب إلى هنالك والبرد شديد فارس؟».

لأجل الرياضة، فالفتاة تهوى الترحلق!»⁽¹⁾.

فهذا وصف صريح لبيئة طبيعية زمن الشتاء وإن كان مقتضيا ولا يعبر عن صورة جمالية ولا عن تفاعل الشخصيات مع مشاهدتها.

ليكنتم ابن عاشور ذكر المكان، في قصة "عانس تشكو" ويتغاضى عن النصريح بالبيئة بالرغم من وصفها، وربما دلّ ذلك على خشية كتاب تلك المرحلة من ذكر المكان وما قد يترتب عن ذكره من فضح للأعراض والإشارة إلى الأشخاص⁽²⁾، وفي ذلك ما فيه من الأذى للكاتب وسط مجتمع محافظ متماسك.

وهناك من صرّح باسم ساحة أحداث قصته كما فعل "أبو القاسم سعد الله" في قصة "سعة خضراء"، بتصريحه باسم القرية التي آب إليها البطل جمال، وهي "قمار" وأبدع في وصف البيئة الصحراوية، يقول على لسان جمال: «هذه قرية قمار: غارقة في رمال بيضاء ناصعة، يزيدنها وهج الظهيرة لألاء، فيجبل إليك وقد التفت من حولها غابات النخيل، ألما زورق مشحون بمخر العباب، ويتهادى ثملا برقيق النسيم، وكانت ظلال النخيل السامق الفروع، تنبسط على الأديم المتوهج فتلتطف من لفحات القيط الغضوب...»⁽³⁾، ولعلّها من الصور المميزة في وصف الطبيعة الجزائرية وروعة مناظرها وسحرها.

(1)-المرجع نفسه، ص444.

(2)-المرجع نفسه، ص445.

(3)-المرجع السابق، ص445.

وربما اقتربت منها أو فاقتها صور "عثمان سعدي" عبر كامل مجموعته القصصية "تحت الجسر المعلق"، إذ لا تخلو واحدة من تصوير للبيئة الجزائرية في كل حالاتها، بين الخصب الجلب، والرغبة والجمال والجلال.

فمن قساوة الطبيعة والجفاف وشح الأرض وصعوبتها نجد قصة "الشيخ حداد"، الفلاح المتمرس الخبير بالأرض وفنونها، الذي يقول عندما اصطدم سن المحراث بصخرة: «يا لهذه الأرض... ويا لهذه الصخور الملعونة التي لا تنتهي، لقد أصبح ما جمعناه منها منذ أن بدأ جدي يعمل هنا يكون حدرانا تحيط بقطعة الأرض من كل ناحية... الآن فقط صدقت ما كان يردده أبي رحمه الله: أن هذه الأرض تنبت الصخر أكثر مما تنبت الزرع والعشب...»⁽¹⁾.

وفيها نجد إشارات كثيرة للبيئة الفلاحية وما يلزمها من حيرات ومهارات للتغلب على صعابها.

ويشير في قصة "الثلج والشرف" إلى ظاهرة تساقط الثلوج، التي عرفتها الهضاب والأماكن المرتفعة، والتي تمتد في بعض الأحيان إلى الأسبوع والأسبوعين وهي ما أسماها الكاتب مثلما تسميها عامة الناس "قرة ثلجية"، وفيها يصف على لسان البطلة جبال الثلوج والزوابع الثلجية وحصارها، وبعض عمليات صيد الأرانب وخطورتها: «خمسة عشر يوما، حتى الآن وقربتنا تعاني أعباء "قرة ثلجية"، "قاسية، أكداس من الثلج تصل رؤوس الهضاب والمرتفعات بعضها ببعض، وتغطي الوهاد والوديان، زوابع ثلجية من النوع المسمى عندنا (بالسافاي) تهب بين الآونة والأخرى، وتذروا الثلج في الجو، فتحجب الأرض والسماء عن الأعين، وتحيل النهار الوضاء إلى ليل طبقاته غلاله يضاء ناصعة... لا أدري لماذا يقشعر يدي كلما طرقت مسمعي كلمة (السافاي)...، إنني أحس يدي تملكه قشعريرة أشد حدة في

(1)-عثمان سعدي: تحت الجسر المعلق، ص 107-118.

هذه السنة، كما تصورت أخوي الجنديين في جيش التحرير، يصارعان السافاي داخل شعاب الجرف أو وسط وديان الجبل الأبيض...»⁽¹⁾.

وهو وصف موقف إذا قارناه بما سبقه من إشارات ضئيلة للبيئة الجزائرية، حتى يبدو لنا وكأن الشخصيات تتحرك في الفراغ.

ولعل أجمل مشهد في وصف البيئة الجزائرية بروعتها وجمالها هو تلك المرحبة البديعة في قصة إجازة بين الثوار، وتلك الوقفة الشعرية أمام موضع من مواضع الجمال، وإن رأى عبد المالك مرتاض أن وصف ذلك الجمال كان مقصودا لذاته⁽²⁾، فإننا نرى أن الكاتب الذي ركز على النضال والتحرر ولم تغفل قصة في مجموعته "تحت الحجر المعلق" من ذلك يهدف من وراء وصف تلك المناظر الخلابة إلى أهمية النضال والقتال في سبيلها⁽³⁾، بل إنه في المشاهد نفسها التي عبر فيها عن الطبيعة الرائعة الساحرة الفاتنة عبر أيضا عن الطبيعة المقاتلة الجاهدة، التي سخرها الله لحماية جيش التحرير وإخفائه وموازرتة... يقول العريف مصطفى مجيبا جانب وقد أبدت إعجابها بالطبيعة وسألته إن كان يوافقها الرأي: «أنا أرى -يا آنسة- في هذه الجبال السرعة الحامي للثورة... انظري إلى صخورها الجبارة ووديانها العميقة... انظري إلى تلك الأحاديث الصخرية الجبارة، إنها متاريسنا ودروعنا يا مودموازيل، وهذا النبع التي أرى فيه مركز إسعاف لنا في ساعات الشدة من هذه المراكز الكثيرة التي تضمها جبالنا الحبيبة»⁽⁴⁾.

(1)-المصدر نفسه، ص 445.

(2)-المصدر نفسه، ص 129.

(3)-وكذلك فعل مفدي زكريا في كثير من قصائده، حيث رأى أن جمالا كذلك وفنته وسحرا كالذي في أرض الجزائر يتطلب مهرا غاليا ويكلف دماء غزار في سبيل تحريره.

(4)-المصدر السابق، ص 129.

ليتوحد بعد ذلك مع الطبيعة ويشعر أنه جزء لا يتجزأ منها لطول احتكاكه بها واحتمائه بأغوارها ووهادها وجبالها وأشجارها... ويقدم لها شكره الخالص الخاشع «كم من مدة وقفت متأملاً أمام شرخ صخري عظيم، أو تحت ساق شجرة عملاقة، شاكراً فضل جبالنا علينا، خاشعاً خضوع الشيخ أمام مجراه...»⁽¹⁾.

ولا نكاد نجد في التحارب القصصية السابقة شخصية تقف وتبدي إعجابها بمناظر الطبيعة، كما وقف المحامد المصطحب "جانيت" العريف مصطفى، منبهراً عبر النص السردي أكثر من مرة أمام ثموخ تلك الجبال، وترفرق مياهها، وتضوع أزهارها وتنوع مناظرها... فإذا جانيت تختص النبع بمقطع من رسالتها «ينبع من تحت صخرة كبيرة، ويكون جدولاً ينحت له وسط الصخرة مجرى صغيراً، وكان وهو يندفع بقوة الانحدار، يحدث خريراً خافتاً يشبه المناجاة بين الأحبة...».

وإن رفض المنطق لفظلة الخريير الخافت لأن السر العادي هو الذي يحدث خريراً، أما الانحدار فإن الذي ينجر عنه أقوى من همس الخريير إنه صوت ارتطامه بمواطن الانحدار التي لا نشك في كونها صخوراً هي الأخرى.

فإننا نجد في النص السردي السابق لوحة يشكل الماء العنصر الأساسي في بناء مشاهد العبقرية: -مشهد النبع الرقراق:

- مشهد الصخرة الكبيرة وهو يتدفق من تحتها.
- مشهد الجدول الصغير الذي صنعه النبع فشق مجراه في ثنايا الصخور المترصة.
- مشهد انحداره إلى الأسفل، وموسيقاه الهادئة عند الكاتب على لسان "جانيت" والصاخبة في نظرنا.

• لتواصل المشهد في باقي سردها، وقد تقدمت منه في ذلك اليوم الحار في أيام الصيف وأخذت ترمي من على وجهها ونحرها وتتعجب من برودته، فكأنه خارج

(1)-المصدر نفسه، ص130.

للتو من ثلاثة، ليرد عليها "مصطفى": أن الفلاحين يسمونه "ماء حر"، يأتي هكذا من بين الصخور حار شتاء بارد صيفا، وذلك من "غرائب الطبيعة"، كما قال لها⁽¹⁾. ولا نعتقد أن كاتبها من كتاب هذه المرحلة (25-62) خص الطبيعة الجزائرية الخلابة بمثل هذه العناية الفائقة والوقفات الطويلة عند مواطن الفتنة والسحر فيها ومواطن العلاقة الحميمة التي قامت بينها وبين أبنائها إلى حدّ قتالها إلى جانبهم.

3- اللغة والحوار:

يعد الحوار أكثر الطرق التي تناسب الحدث بالطاقات الإخبارية والتحليلية والوصفية، وقد يعد الحوار من أدق وسائل الكاتب وأكثرها أهمية، إذ يساعده على رسم الشخصية وتحديد صفاتها العقلية المميزة لها، والكشف عن عواطفها وأبعادها ومواقفها، إلى جانب فائدته الملموسة في تطوير الأحداث للسیر بما إلى النهاية الطبيعية، كما أنه بواسطته تتصل شخصيات القصة.

إن القارئ لا يمكنه التعرف على الشخصية حق المعرفة، إلا إذا سمعها وهي تتكلم وخاصة إذا كانت هذه الشخصية تتسم بالكمال والوضوح والحيوية، وأي كاتب في إمكانه الاعتناء بالحوار حتى يكون أكثر تركيزا واستيعابا وكشفا وأكثر دلالة على الشخصية.

من هذا المنطلق ركز كتاب القصة على أسلوب الحوار بل بالغوا فيه، وقد وجدوا فيه وسيلة مناسبة لعرض أفكارهم وآرائهم بطريقة مباشرة مثل رضا جوجو، والجيلالي، والشافعي، وابن عاشور وزهور ونيسي، وشكل الحوار العمود الفقري في قصصهم، وكان ذلك يتفق مع المفهوم العام للقصة، حيث أصبح ما يسمى بالقصص الحوارية بارزا في تحليل مواضيع الفترة الأولى، بل عكست ظروف تلك الفترة وأوضاعها، وأبرزها مع حمار الحكيم لرضا جوجو⁽²⁾.

(1)-عثماني سعدي، "نحت الجسر المعلق"، ص130.

(2)-تطور الأدب القصصي، ص358-359.

كما أن الحوار يكسب شخصيات القصة وأحداثها حرارة وصدقا، إذا كان يحتوي على طاقات تمثيلية سريعة وطبيعية، وهذا لا يتحقق إلا إذا نحا الكاتب نفسه نحو الحوار، ليرتك الحرية الكاملة لشخصياته وهي تمثل دورها بانطلاق تام، ولعل الذي يفسد الحوار تعليقات القاصر وتعقباته ونصائحه للقراء. وظهر هذا جليا عند الجيل القديم خاصة عند أحمد بن عاشور ومحمد الصالح الصديق⁽¹⁾.

بقيت مسألة هامة وهي لغة الحوار بالقصص تكون بالفصحى أم بالعامية، وقد دار الجدل حولها طويلا إذ يستخدم البعض العامية في الحوار قصد تحقيق الصدق والواقعية، حتى تظهر الشخصية في درجة وعيها وتفكيرها وكلامها بنفس الصورة التي تظهر عليها في حياتها اليومية الواقعية، وقد يبدو لبعض الكتاب أن كتابة بعض المواقف الحوارية بالعامية ليست مجرد إعطاء صورة صادقة عن الشخصية تمثيلا، وإنما تحتملها طبيعة الشخصية نفسها⁽²⁾.

ونخلص إلى أن معظم القصص لم تتوفر فيها الشروط الفنية المطلوبة في فن القصة، وإن بدت ملامح التطور والنضج الفني مع أواخر الخمسينات إلى ما بعد الاستقلال، وكان القاسم المشترك بين جل القصص التشابه في البناء الفني وفي طريقة العرض، والطابع النمطي في تصوير الشخصيات، والسرد التقليدي في عرض الأحداث، وفي استعمال اللغة والتشابه في البناء الفني العام وإن كانت سمة الصدق والواقعية هي السمة الإيجابية التي أعطت عمقا وقيمة لهذا الفن القصصي. واهتمام بعض الدراسات بتوضيح وإثراء هذا الجانب الفني للقصص إثراء نقديا... كشف أيضا عن بعض العيوب والنقائص الفنية التي وقع فيها كتاب القصة منها:

(1)-انظر: أحمد طالب: الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة، ص213.

(2)-المرجع نفسه، ص214.

1-الفقرات الوصفية المسهبة:والتي لا نخدم موضوع القصة والمثال على ذلك قصة عثمان سعدي "تحت الجسر المعلق"⁽¹⁾، حيث أن وصف قسنطينة لا علاقة له بأي شكل بموضوع القصة؛ وقد قيل في نقد القصة أن أسوأ المقدمات هي المقدمات الوصفية.

2-العقد الواهية: والتي لا تحمل أي أثر درامي، وتكون القصة حيثذ تافهة وتنفق في أن تثير اهتمام القارئ بما جاء فيها فيقل اهتمامه وينصرف عنها، حيث لا توجد فيها ذروة، وقد وجدت في كثير من القصص وبخاصة الفترة الأولى⁽²⁾.

3-النهاية الضعيفة: ومنها التي يسهل التنبؤ بها أو التي تحدث بصورة مفاجئة وغير متوقعة، فبعض القصص تنتهي بينما لا يزال القارئ ينتظر تفاصيل أخرى حول الأحداث ليستكمل المعنى، والصورة التي أثارها الكاتب في البداية كما في قصة "صاحب دكان" لابن عاشور، وقصة "السكير" لرضا جوجو، وهناك قصص تنتهي عند بدايتها. ما يليها مجرد سرد ووصف لا يخدم العقدة مثل "إجازة بين الثوار" لعثمان سعدي.

4-عدم التأثير الدرامي: وهو ناجم عن فشل معظم كتاب القصة الذين يحملون قصصهم أعباء تفاصيل غير ضرورية، وأوصاف مسهبة، ويهملون عقدة القصة تماما، وظهر ذلك في معظم القصص⁽³⁾.

5-الوعظ والإرشاد: تنتشر هذه السمة بصورة واضحة في قصص المرحلة الأولى والتي تظهر إما في صلب القصة أو في خاتمها، والذي يوجه القصة توجيهها أخلاقيا، يطنى على الموضوع الرئيسي للقصة، مما يؤدي إلى إهماله، وهذا هو الحال مثلا في قصة عبد الله الركبي "الطاغية والأعرج"، أو زهور ونيسي في "من الملوّم".

(1)-انظر: تحت البحر المعلق، ص 6-9.

(2)-عابدة أديب بامية: تطور الأدب القصص، ص 359.

(3)-المرجع نفسه، ص 360.

6- **ضعف اللغة:** في الإجمال لا نجد أسلوباً متميزاً في أية قصة قصيرة عربية، باستثناء بعض الأعمال، حيث تظهر العديد من الأخطاء النحوية والفقر في المفردات، واستعمال التعابير والكلمات العادية والدارجة أحياناً، وبخاصة في لغة قصص المرحلة الأولى، التي تميزت بالأسلوب التقليدي الذي يركز على الحمل الطنانة والتوكيدية⁽¹⁾.

7- **المبالغة:** بالغ بعض الكتاب في تضخيم صور الانتصارات والبطولات من أمثال "أحمد بن عاشور"، وفاضل المسعودي وزهور ونيسي وعثمان سعدي... وقادهم الشعور الوطني الدافق الذي كانوا يتمتعون به إلى بناء شخصيات نموذجية لأبطال مثاليين تفوق قدراتهم قدرة البشر، فهم أبداً لا يقهرون ولا يعرفون هزيمة أو انكساراً، وهو أمر مستساغ وإن رفضه الكثير من الدارسين ورأوا فيه طغياناً على الجوانب الفنية الإبداعية، كما يقول محمود تيمور: «ليس لنا أن ندفعه بالعناصر الفنية كلها إلى ساحة واحدة هي ساحة الحرب المباشرة... وليس من الخير أن نجعل من رجال الفن جنوداً يحملون السلاح لخوض المعارك العامة، فإن وراء الجندي ضروباً من الأعمال تخدم المعارك بطريقة غير مباشرة، وهي لا تقل أثراً عن أثر الجندي حامل السلاح في ميدان الكفاح، فإن الكفاح متعدد النواحي والضروب، وفي ميدانه متسع للجميع»⁽²⁾.

(1)- المرجع نفسه، 367-369.

(2)- محمود تيمور: الأدب الهادف، المطبعة النموذجية، ط 1، 1959، ص 58.

ذلك أن طبيعة الحدث كانت أقوى من أن ينصرف عنها أي فرد من أفراد المجتمع الجزائري، فمما لا شك فيه أن ثورة بحجم ثورة التحرير العظيمة معين لا ينضب وإن كتب الأدباء وأسهبوا، فإن جوانب كثيرة منها ما تزال خفية، والحق أن مواضيع أخرى كثيرة اجتماعية وثقافية ووطنية ودينية وسياسية تخللت الكثير من قصص تلك المرحلة، كما أننا لا نستطيع تبرير الضعف الفني أو إرجاعه إلى الموضوع بقدر ما نعتبره ظاهرة عامة في القصة الجزائرية في تلك المرحلة والقصة العربية على الإطلاق، وهي مرحلة التشكل والبناء واكتساب الخصائص الفنية تدريجياً.

تم الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع - عين مليلة

www.elhouda.com